www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شِيرين هَنَائِي

الطبعة ٣

ذِئَاب يُوسْتُون

الرواق للنشر والتوزيع

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر إبريل 2015 **
www.ibtesama.com/vb

ذئاب يلوستون

www.ibtesama.com/vb

ذِئابُ بِلوستون

شيرين هنائي

■ الطبعة الأولى..... ديسمبر 2014

■ الطبعة الثانية..... ديسمبر 2014

■ الطبعة الثالثة..... يناير 2015

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رسوم داخلية : شيرين هنائي

التصحيح اللغوي: أحمد عبد المجيد

رقم الإيداع: 2014/23909

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 5153 - 62 - 3

جميع حقوق الطبع محفوظة

للنشر والتوزيع

3 شارع إدريس – أول شارع الوحدة – إمبابة – الجيزة

هاتف وفاكس: 33100951 (202)

محمول: 01147379183

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

www.ibtesama.com/vb

ذئاب يلوستون

رواية

شيرين هنائي

الرواق للنشر والتوزيع

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

إلى زوجي..

إهداء دائم مستمرّ، يمتد من قلبي إلى قلبك عبر العصور والأزمنة.
لولاكَ ما كتبتُ حرفًا واحدًا، ولا وعيتُ حقيقة واحدة مما يدور حولي..

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

"وهج الصواريخ الأحمر..

وانفجار القنابل في الهواء..

خير دليل وسط عتمة الليل،

على بقاء رايتنا مُرفرِفة في مكانها،

على أرض الأحرار وموطن الشجعان.." [1]

(١) من كلمات السلام الوطني الأمريكي، والمأخوذة عن قصيدة كتبها المحامي والشاعر الهاوي فرانسيس سكوت كي، بعنوان "الدفاع عن حصن ماك هنري" عام ١٨١٤. تمّ اعتماد القصيدة رسميًا والتعامل بها عام ١٩٣١.

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

الفصل الأول

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb

" لَو، أيها الهندي الأُمِّي..
ترىٰ الربّ في السحاب، وتسمع كلماته تحملها الريح..
روحك هي علم عُلوي، لم تتعلّم الضلال..
ساميةٌ، كمسار الشموس وتجليات المَجرَّات...." [1]

(١) من قصيدة للشاعر أليكساندر بوب بعنوان "مقال عن الإنسان".

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

- ١ -

برادلي جولدنج

أذكر عبارة أبي المعتادة كلما قاد سيارتنا الموستانج العتيقة على طريق ٢٨٧ المحاذي لنهر ويند ريفر:

ـ انظر يا براد! تُشبه تلك الأشياء أمك ولها ذات المذاق المقزز!

تنزلق كرتا عيني داخل محجريهما ببطء ملول، وأرمق ثيران البيسون عن يمين الطريق، لا أذكر ملامح أمي بدقة الآن، لكن خللاً هرومونيًا ما جعلها مشعرة، سمينة، عصبية في آخر أعوام لها في تلك الحياة.

مر عِقد كامل منذ تركتُ منزل أبي في السادسة عشرة. لطالما كنا عائلة من الأسماك، تلتقي أنثاها بذكرها في موسم التزاوج وأوقات الطعام، على وليمة تتوسطها مجموعة من الأبناء منزوعي الأشواك والقشور مع البطاطس المقلية والمقبّلات!

أمي.. سمكة كبيرة مشعرة تعاف النفس أكلها، ألقاها أبي في أقرب مكبّ نفايات غير مأسوفٍ عليها!

www.ibtesama.com/vb

لولا تكليف رئيس التحرير لي أنا بالذات بكتابة التحقيق، فهو في دائرة تخصص قلمي على أية حال، ما مررت أبدًا من ذلك الطريق ولا أي طريق آخر يؤوي البيسون بملحقاته من ذكريات.

أين هي ذاكرة الأسماك حين تحتاجها؟!

انعطفنا يمينًا منذ ما يقرب من ساعة بقرب مدينة لاندر وها نحن على طريق سانت ستيفنز، انتهى الخط الأصفر على الأسفلت ليبدأ عهد الطرق الملتوية بين الجبال والمساحات الشاسعة من اللاشيء على الجانبين.

خيام بدائية لازالت تنتصبُ بشكلها المخروطي، يحب هؤلاء القوم التخييم فيما يشبه بيئتهم الأصلية من وقت لآخر، حتى إن بعض كبار السن يختار العزلة الاختيارية آخر أيامه في تلك المساحات اللامتناهية من الخلاء على خلفية من أشجار الصنوبر في إشارتها الدائمة إلى السماء.

مع اقترابنا من مدينة سانت ستيفنز ذاتها، تظهر المنازل الخشبية التي تشبه مخازن الوقود، مجرد علب ثقاب ضخمة مفتوحٌ درجها، تمرح داخل أسوارها الحيوانات والطيور الداجنة.

انتزع مرافقي صغير السن، جايكوب لورانس، غطاء عدسة كاميرته وهتف:

ـ يا للمسيح! لم أكن أعلم أن الوضع بهذا السوء! هذا أسوأ من حياة السود واللاتينيين!

ورش تصليح سيارات تتناثر على نفس هيئة علب الثقاب. حبل يحمل ملابس داخلية ملوثة بالشحوم يرفرف في الهواء شتت انتباهي عن وهدة في الشارع نصف الأسفلتي نصف الصخري، قذفتنا بضعة إنشات داخل السيارة، تلقى السقف على إثرها نطحتين من رأسينا. الشيء الإيجابي

www.ibtesama.com/vb

الوحيد في الموضوع هو أن وجهتنا بالقرب من الطريق الرئيسي، فلم أضطر إلى السؤال عن العنوان.

كنيسة سانت ستيفنز تُطلّ علينا من بعيد بوجهها الأبيض الشاحب وتصميمها المتواضع، الصلبان عليها أقرب لنقوش هندية ملونة منها لصلبان. لا أؤمن بأي مزاعم عن وجود إله في مكان ما في الأعلى، لكن التحريف الذي أدخله الهنود على رمز قديم يؤمن به الملايين فوق تحملي. اعتزازٌ بألوانهم ورموزهم يفوق اعتقادهم الحديث في المسيح المخلِّص.

بحثت عن مكان آمن لركن السيارة فلم أجد، غُراب عابر لوث الزجاج الأمامي بلطخة ضخمة من الفضلات، من الصعب أن تصل ماسحات الزجاج إلى البقعة فضلاً عن كونها معطلة من الأساس. لن أصلح سيارة الجريدة على حسابي، فلأتركها بِبَركتها إذن! حاذيتها بجانب الرصيف وترجلت، إن كان هناك إله فليحمِها وإلا سنعود إلى دينفر على ظهور الخيل!

ـ جايك، فلننته من تلك القذارة سريعًا، لن تريد أن تعبر طريق ٢٨٧ ليلاً، الزجاج الأمامي المهشم وأنثى البيسون النافقة فوق جثتينا الملتصقتين بالمقاعد ليستا من خططي للأعوام العشرين القادمة.

ترجل جايكوب بدوره ضاحكًا فبدا مراهقًا بريئًا، لف حزام الكاميرا حول كفه، وبيُسراه ضم دفتر الرسم إلى صدره وهمس في خبث محبب متحاشيًا أن يسمعه المارة:

ـ إن كنت في وايومنج فلتمت كما يموت أهل وايومنج، هذه ولاية تحمل رسم البيسون على علمها بحق الله، فتوقف قليلاً عن التفكير فيه! يمكنني أن أُعدّ لك أكثر من مائة موقف ذكرتَ فيها لفظة بيسون خلال السنة الماضية فقط!

أمي.. أنثى بيسون صدمتها سيارة موستانج عتيقة، ولم تتوقف..

www.ibtesama.com/vb

أخرجت الوريقة الصغيرة التي تحمل عنوان السيد ليو كوتِنوار[1]، الهندي الذي قتل آخر ذئاب يلوستون.

بشكل شخصي؛ لا أهتم لحظة بالسيد كوتنوار ولا بالذئاب وكل الهراء القذر عن الحياة البرية. لكن عنوان مقال على أربعة صفحات مع الصور يحمل اسمي وعبارة "الهندي الذي قتل آخر ذئاب يلوستون"، بكل ما تحمله العبارة من إسقاطات ومعاني، سيضيف لمسيرتي المهنية الكثير.

لطالما كرهت المعتدّين بأنفسهم، ولم أكره أكثر من زنجي أو هندي أحمر يتفاخر بتاريخ أجدادٍ من البدائيين المتوحشين، كقط أجرب يتفاخر بأمجاد نمر. نمر خُلِق فقط ليتم اصطياده، وإن تُرك عاث فسادًا في الأرض.

يسكن كوتنوار منزلاً خشبيًا أزرق اللون من طابق واحد هو مثال آخر لعلب الثقاب. يُطل على باحة متربة يلعب فيها أطفال حُفاة وطيور داجنة منتشرات حول حبوب الذرة الجافة، تُشرف النافذة الوحيدة لمنزل الرجل على ألعن مجموعة من ورش تصليح السيارات ذات الحوائط المسودّة.

رغم السحب المتكاثرة في السماء إلا أن المنطقة شحيحة الأمطار فلم آخذ معي معطفًا واقيًا ولم أُصلح بالطبع مسَّاحتي الزجاج الأمامي.

قطرة مطر وافتها المنيَّة فوق عدسة نظارتي، لمحها جايكوب فدس الدفتر والكاميرا تحت سترته، ثم مد يده محاذرًا ألا يُسقط الدفتر من تحت إبطه وضغط مفتاح الجرس.

كان هو، ليو كوتنوار، من فتح الباب، يقارب سنه التسعين عامًا لكنه

---

(١) ليو كوتنوار Leo Cottenoir شخصية حقيقية وقد قتل آخر ذئاب يلوستون وذلك عام ١٩٤٣. تمّ إجراء حوار صحفي معه عام ١٩٩٣ وكان عمره آنذاك ٨٣ سنة. فيما عدا تلك المعلومة عن كونه من قتل آخر ذئاب يلوستون، كل ما سيتم ذكره عن الرجل في الرواية غير حقيقي ومن وحي عشرات الشخصيات التي عاشت في هذه الدنيا.

www.ibtesama.com/vb

بصحة ممتازة. استغرق الأمر بضع دقائق حتىٰ تذكّر اسمي من مكالمتي الهاتفية له أول أمس، فأشرق وجهه واحتشدت تجاعيده في تشريفة ترحيب. تنحّىٰ عن المدخل مشيرًا إلىٰ حجرة استقبال ضيقة وهتف:

ـ نعم، نعم.. السيد برادلي جولدنج.. للحظة اختلط عليّ الأمر وظننتك الدكتور هنتر. لكن هنتر لابد وأنه قد مات منذ عشرات السنين، فضلاً عن كونه أشقر من الأساس.. هه؟!.. تفضلا..

دُرت بعيني ببطء يمنةً ويسرةً.. لا شيء يدل علىٰ كون المكان مملوكًا لهندي أحمر. أريكة متعددة الوسائد قماشها البني مهتريء عند الزوايا، يغطي مسنديها مفرشان يدويا الصنع بلا طراز واضح.

ورق الحائط سكري اللون، مزدان بالأزهار الوردية الكبيرة والمصطفّة تحت بعضها البعض بين خطّين طوليين بلون كان ذهبيًا. كانت تلك النقشة رائجة في أوائل التسعينات، ومازالت محببة لسبب لا أفهمه عند الكثير حتىٰ الآن.

لاحظ كوتنوار شرودي فيما يحيط بي..

ـ تبحث عن رأس الحيوان المعلق وجلد الثور البري. لن تجد تاج ريش هنا وبلطة توماهوك هناك.. هذا بيت أمريكي لا تشوبه شائبة.

ابتسامته أجبرتني علىٰ الإعتذار عن شرودي، لكنها لن تجبرني علىٰ كسر القالب الذي خصصته للهنود في مخيلتي. سأجد شيئًا ما هنديًا يعتز به الرجل، عظمة يستخدمها كهراوة أو زوج من الأحذية المصنوعة يدويًا تحمل رسمًا بدائيًا سخيفًا علىٰ مقدمتها. وحين أجد تلك الأشياء سأكره الرجل كالجحيم الذي يحوي أمثاله من المعتدّين بأنفسهم.

التقط جايكوب صورة للمكان وصورة لكوتنوار وقرر أن يدّخر بطارية

www.ibtesama.com/vb

الكاميرا لتصوير الرأس المحنطة للذئب الأخير. وضع الدفتر على فخذيه وابتسم لكوتنوار بخدّين محمرّين من البرد واستأذنه في رسمِه فوافق الرجل بهزّة رأس متأنية.

نظرت إلى ساعتي فوجدتها قد تعدت الثانية عشرة ظهرًا، سأُنجز ما أتيت لأجله في نصف ساعة.. ساعة على الأكثر، وأقود مسرعًا فارًا من رائحة الفاصوليا المطبوخة التي تفوح في المكان سيء التهوية.

عضضت خدّي من الداخل مانعًا ابتسامة تدفعها عبارة أبي الخالدة:

ـ إن ذهبت إلى دورة المياه فاقضِ حاجتك أو ارحل!

فلأقضِ حاجتي، إذ لا مجال للجلوس أكثر. حتى إن لم ينته جايكوب من لوحاته فبإمكانه دومًا أن يرسم من الذاكرة أو ينقل من الصور.

ضغطت زر التسجيل ووضعت المسجل الصغير على المنضدة الخشبية المربعة أمامي ليكون قريبًا مني ومن كوتنوار في نفس الوقت.

ـ سيد كوتنوار، على مدى تاريخ الولايات المتحدة، تحرص البلاد دوما على تكريم أبنائها الأوفياء بلا تفرقة بين أصل أو جنس. صدر العام الماضي برعاية رئيس الولايات المتحدة السابق، السيد بيل كلينتون، دولار تذكاري يحمل صورة البطلة الهندية ساكاجاويا التي كانت دليلاً لحملة لويس وكلارك الاستكشافية[1]. هذا هو الدولار الذي أتحدث عنه إن لم تكن قد رأيته بعد..

مد كوتنوار عنقه أولاً مضيقًا عينيه، ثم مد يدًا مرقطة بنمش الشيخوخة

---

(١) ساكاجاويا Sacagawea امرأة هندية كانت هي وزوجها وطفلها الرضيع مرافقين وأدلّة لحملة لويس وكلارك لاستكشاف الجزء الغربي من الولايات المتحدة عام ١٨٠٤. وقد تمّ صُنع العديد من التماثيل التي تُمثّل ساكاجاويا وابنها جان بابيتست. كما تمّت تسمية عدّة مشروعات ومؤسسات للمرأة باسمها. وتمّ صك عملة تذكارية تحمل اسمها عام ٢٠٠٠.

www.ibtesama.com/vb

والتقط العملة مريحًا إياها في يمناه وأطال النظر أكثر مما ينبغي. لكزتُ جايكوب المنهمك في رسمِه السريع فالتقط صورة، على إثرها أخرج صوت غالق الكاميرا كوتنوار من شروده.

ـ هذه ليست ساكاجاويا...

قالها كأنه أمر مفروغ منه، بلا تعبير في صوته أو قسماته. أطبق كفه على العملة وصمت، فعلّقتُ وأنا أتحاشى النظر إلى عينيه الضيقتين اللامعتين:

ـ بالفعل المرأة التي حُفر وجهها على العملة هي (راندي إل هي دو تيتون)، امرأة من الشوشوني مثل السيدة ساكاجوايا. لا توجد صورَ حقيقية للأخيرة على أية حال..

هزّ رأسه وابتسم مطرقًا إلى الأرض، عضلات كفه تنطبق بشدة على الدولار.

ـ نعم.. لا فارق بين هندية وأخرى.. هل لي أن أحتفظ بالعملة؟

ـ بالطبع.. هي لك..

لا أرتاح كثيرًا لنبرة صوته ولا أفهمها. لا أفهم تعبير وجهه في تلك اللحظة بالذات ولا أعلم كيف عرف أن المرأة على العملة ليست ساكاجاويا. ربما قرأ المعلومة في جريدة أو شاهدها في التلفاز. على سبيل تلطيف الأجواء، سأل جايكوب السيد كوتنوار عمن انتخبه وما إذا جمهوريًا أم ديموقراطيًا فأجاب كوتنوار أنه لم ينتخب بيل كلينتون السابق ولا جورج بوش الابن الحالي ولم ينتخب أبدًا في حياته. وأضاف بطريقة العالم بالأمور أن الولايات تسير على نسق واحد في اختيار رؤسائها.. رئيسًا ديموقراطيا يبدو طيبًا ثم رئيسًا جمهوريًا يبدو عدائيًا، وعلّق أن عدائية بوش الابن وضحت جلية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي لم يمر على حدوثها بالكاد ثلاثة أشهر.

www.ibtesama.com/vb

لم أعلّق على عمقه السخيف الصبياني، وأكملت جملتي كأني لم أسمع شيئًا:

ـ في إطار تكريم الدولة كما سبق وأشرت أنا، تُخصص جريدة دينفر الأسبوعية عددًا خاصًا عن السكان المحليين للولايات المتحدة وتاريخهم المشرف لدعم حكومة الولايات. وجدنا في بحثنا عن معتقدات الهنود الحمر علاقة مميزة وغريبة بينكم وبين الذئاب بشكل خاص. وللمفارقة، وجدنا أيضًا أن الذئب الأخير في منطقة يلوستون قد تمّ صيده على يد رجل هندي. هناك قصص غريبة تدور حول ذلك الذئب الأخير ويوم موته، كذلك حول حجمه الضخم وسلسلة الأحداث التي أدت إلى مقتله.

ـ هي سلسلة من الأحداث فعلاً.. سلسلة طويلة بعض الشيء، إن اتسع وقتك يمكنني أن أعرض عليك بعض حلقاتها، فالسلسة ذاتها تحتاج أعوامًا وربما قرونًا لتفحّص كل حلقة فيها..

توقف جايكوب عن الرسم وتبادل معي نظرة جانبية سريعة، استرجعَ خلالها بالتأكيد مقولة أبي الشهيرة عن قضاء الحاجة والتي لا أُفوِّت تحقيقًا صحفيًا معه إلا وأكررها على مسمعه. أكاد أسمع رده المعتاد عن الإمساك الذي يتطلب وقتًا طويلاً. يدفن جايكوب ابتسامته خلف الكاميرا ويتظاهر بالتقاط الصور.

طرقات خفيفة على باب المنزل وصوت مفتاح يدور في القفل، يدخل فتى هندي يحمل عبوة نصف دستة من البيرة. فتح غلافها البلاستيكي لاهثًا وطوّح لكل منا علبة باردة كبيرة.

ـ هناك سيارة كورولا غريبة زجاجها الأمامي تعلوه القذارة، إن كان أحدكم صاحبها فليبعدها عن مدخل ورشة بيكوورث..

مسح يديه المبتلتين في منشفة مبقعة بالشحم تُطلّ من جيب بنطاله

www.ibtesama.com/vb

الجينز الفاتح وسأل كوتنوار ـ بلهجة تتحدّثها قبائل الشوشوني من أصل لغة سيوان ـ إن كان يريد شيئًا آخر، فهز الرجل رأسه نافيًا، ثم سأله عني منبهرًا، فأخبره الرجل باسمي ثم نقده بضعة أوراق مالية دسها الصبي في جيب قميصه، ووقف ينظر لي في فضول وابتسامة تعلو وجهه كأنه يريد أن يقول شيئًا. عاجلته بنظرة مسحته من أعلى إلى أسفل وبالعكس، جعلته ينصرف محرجًا محمر الأذنين.

ـ نحن عائلة واحدة هنا وهم يهتمون لأمري. فهمتَ ما قاله أليس كذلك؟ في يوم ما كنا قبائل عدّة.. ربما تُحب أن تُبعد سيارتك عن مدخل بيكوورث؟

لا وقت للاستطراد مرة أخرى، جرعت جرعة كبيرة من البيرة ثم وضعتها على المنضدة غير عابئ بأثرها المبتل على الخشب القديم الجيد.

ـ لا عليك.. سننتهي سريعًا.. هل تذكر يوم مقتل الذئب جيدًا؟ يمكنني أن أساعدك، فقد قرأت المقال الذي حكيت فيه القصة والذي نُشر عام ١٩٩٣..

يقوم كوتنوار محنيًا، يضع تحت علبة البيرة مربع من الورق المقوى ثم يعود إلى جلسته.

ـ ما حكيته يومها لا يهم كثيرًا. فما تم نشره لم يكن ما قلته حرفيًا..

ـ إذن ماذا حدث في ذلك اليوم؟

ـ ذلك اليوم كان حلقة متّصلة لا يصح فصلها عن السلسلة أبدًا كما قلتُ لك..

ـ كلنا آذان صاغية

بدلاً من أن يفتح فمه ويحكي، قام وفتح خزانة صغيرة بجانب كرسيه،

www.ibtesama.com/vb

تستقرّ فوقها مروحة مكتب عمرها يتجاوز عمري ببضع سنوات. مِلتُ برأسي في محاولة لسبر أغوار الخزانة ورؤية أي أشياء هندية يخبئها الرجل.

قام جايكوب وعرض على كوتنوار المساعدة، لكن الرجل رفض بلطف. أطعمَ دولار ساكاجاويا إلى الظلام النَّهِم بالداخل ثم أغلق الخزانة بعد أن أخرج منها زوجين من الموكاسين [1]. لقد بدأ الرجل في الاعتزاز بتراث الأجداد!

الغريب هنا هو أن إحدى فردتي الحذاء يحمل رسم حصان والآخر يحمل رسم رجل يمسك علم الولايات المتحدة!

ـ نعم.. ما تراه صحيحًا.. حذاء هندي مطرزٌ فوق مقدمته علم الولايات المتحدة.. يمكنك أن تذهب إلى متحف وايومنج لتشاهد زوجين مطابقين لهذين.. موكاسين عمره مائة عام..

ـ لكن ذلك إهانة للعلم الأمريكي يا سيدي.. بروتوكول استخدام العلم ينصّ على عدم إهانته بنقشه على الأحذية. أعلم أنه لا يوجد عقوبة على من يخالف ذلك من الأفراد لكن الاحترام واجب أيضًا.

هندي حقير من مائة عام أهان علم الأرض التي تُؤيه وأمثاله. تبًا.. فلننتهِ من هذه المهمة في أسرع وقت. أكاد أشم أطراف أعصابي تحترق فتزداد رغبتي في تبغ أنفث فيه توتري.

ـ لم تلاحظ أن على الزوج الآخر نقش لحصان.. نحن قوم نُبجِّل الخيل ونحترمه. ترى أنت نقش العلم إهانة، وأراه تبجيلاً! دعك من الحذاء وصانعه..

---

(١) حذاء يدوي الصنع طويل الرقبة عادة ما يُصنع من جلد الحيوانات المدبوغ ويلف بشرائط جلدية وتُزيّن مقدمته برسومات بسيطة مطرزة.

www.ibtesama.com/vb

دسّ يده في الزوج الذي يحمل نقش الحصان وأخرج مفكرة قديمة محفور على غلافها الأمامي العام ١٩٤٣ بخط مذهَّب غائر.

ـ هذه، تساعدني على التذكّر..

فضول المصور سيقتل جايكوب يومًا ما! استأذن كوتنوار في أن يرى المفكرة، فأعطاها له الأخير وهو يُكرر "ولد طيب.. ولد طيب" ويبتسم كأن جايكوب طفل صغير.

هو بالفعل في التاسعة عشرة من عمره، يدرس الفنون الجميلة والتصوير ويعمل بالقطعة في جريدة دينفر الأسبوعية، ولا يفوِّت تحقيقًا لي إلا ويُصوّره بكاميرته للجريدة ويحتفظ لنفسه باللوحات المرسومة يدويًا. يحلم أن يقيم معرضًا للوحاته وصوره الفوتوغرافية، فهو دائم الزعم أن ما يصدر من بشر لا يُسجّل إلا بيد بشر. يعتبر أن وساطة الكاميرا تنقل صورة بلا روح.

ربما يقتلني فضولي يومًا ما أيضًا! مجبرٌ أنا على التظاهر بأن لا شيء يعنيني أو يثير شغفي في مقتنيات هندي أحمر، لكن والحق يقال لقد استفزّني كوتنوار وأثار فضولي وحنقي في آن واحد!

هذه إذن مذكرات يكتبها الرجل، تحمل أول صفحة فيها تاريخ ٢٨ يناير ١٨٢٦.

١٨٢٦؟!

ـ معذرة يا سيدي.. في أي عام وُلدتَ؟

سأله جايكوب فأعفاني من الحرج.

ـ عام ١٩١٠.. عام الثورة المكسيكية، والعام الذي نُصب فيه تمثال ساكاجاويا في داكوتا الشمالية.. وهو نفس العام الذي اختاروا فيه الحروف التي يُكتب بها اسم ساكاجاويا، وهي الحروف التي تمّ تسجيلها للأبد على

www.ibtesama.com/vb

تلك العملة التذكارية أيضًا.. نحن لا ننطق اسمها بهذه الطريقة.. لكنها الآن (ساكاجاويتهم) وهم أحرار في تسميتها كيف يشاؤون أو تصويرها كما تبدو في أعينهم.

الاعتداد مرة أخرىٰ.. كأنه لا يكفيه شرفًا أن تنتصب تلك المرأة بتماثيلها في كل صوب. ماذا نفعل كي ترضى تلك المخلوقات عنا؟!

ـ اعذر فضولي يا سيدي، فقد انفتح الدفتر مني وقرأت أول تاريخ دوّنته، أعتقد أنك قصدت ١٩٢٦ وليس ١٨٢٦..

ـ لقد قصدت ١٨٢٦.. كنت في الثانية عشرة وقتها..

لقد بدأنا في الخرف، فلينتهِ هذا اللقاء بأي ثمن وليصمت جايكوب ويتركني أُكمل ما جئت من أجله، بعدها يمكنه المبيت في حضن العجوز كما يشاء وسماع ترهاته..

طرقات علىٰ النافذة الزجاجية خلفنا، التفتُّ لأجد رجلاً غليظ الملامح يشير إلىٰ كوتنوار فيبادله كوتنوار الإشارة أن يصبر..

فتح جايكوب النافذة خلفه فأطّل الرجل علينا حاملاً رائحة بنزين وبيجل البصل..

ـ سوف ندفع سيارتكم عن مدخل ورشتي قليلاً..

ألقاها وانصرف يُنفّذ، فطمأننا كوتنوار أن كل شيء سيكون علىٰ ما يرام..

ـ سيد كورتنوار، لا أريد أن آخذ من وقتك أكثر من ذلك.. هلا حكيت لنا عن يوم مقتل آخر ذئب، ولربما نعود مرة أخرىٰ لاستكمال الحديث الشائق عن سلسلة الأحداث السابقة لذلك اليوم؟

www.ibtesama.com/vb

ـ لن آخذ من وقتك الكثير.. دعني أحكي لك ما حدث أولاً في عام ١٨٢٦.

عاد جايكوب بجذعه للخلف متخذًا وضعًا أكثر راحة على الأريكة، وشرع يُقلّب في الدفتر ويجرع البيرة في استمتاع ينقصه طبق ضخم من الفيشار.

لن أتحمّل ذلك كثيرًا، استأذنتُ كوتنوار في التدخين خارج المنزل ريثما يحكي هو للمسجل ولجايكوب الذي يُعاني طفولة متأخرة وتوقًا لحكايات الجدات.

أقف أمام المنزل أرمق قطرات الأمطار الخفيفة..

الرجل الهندي قد دفع سيارتي وأوقفها أمام ورشة أخرى! اللعنة! لا يوجد مكان شاغر إلا وجواره ورشة أو ثيران طليقة ترعى..

فلأنتظر حتى يعترض صاحب الورشة الأخرى أو ينتهي كوتنوار من استطراداته، أيهما أقرب..

علبة سجائري شبه خاوية في جيبي. أنقل أصابعي بينها وبين أقراص النعناع. فلأترك السجائر تحسبًا إذا ما ساءت الأمور وأحتجت إلى أن أحرق توتري في شيء سِلمي.

صوت كوتنوار يتسلل إلى مسمعي من عالم آخر لا أود الولوج إليه.

ولا أملك القوة على الإفلات من براثنه..

سأكره هذا الكوتنوار إلى الأبد..

www.ibtesama.com/vb

- ٢ -

ذئب

تدور أذناي حول محورها تجاه الصوت الحاد فأتأكد أن دفقة النيران التالية قد أصابت ذا العنق الفضي. فلتحتضنك يا أخي الأم الأولى ولتذُب في كينونتها عائدًا إلينا في خرير الماء وندف ثلج الشتاء القادم.

لن يدخل ضعف الاشتياق قلب ذئب أبدًا، ولن أفتقد من انتقل من عالم الأنفاس الرائحة والغادية إلى عالم يقطن في كل روح فينا، كل شيء فيه راسخ كالطود.

لن أعوي.. لن أتحرك..

يتحركون هم، تلتقط أقدامي وقع أحذيتهم الغائصة في عمق الثلوج.

متحفزًا، أرىٰ أولهم يقترب من الشِباك الممتدة فوق حفرة كبيرة، يركع علىٰ ركبة واحدة ويمدّ يده في غطائها من جلد الأيائل..

يغضب لاكتشافه عبثي في مصيدته، فأنا من يُلقّبه الصيادون بالجرو

www.ibtesama.com/vb

الحفَّار. يجرع مشروبه ويعود متكئًا على سلاحه، حاملاً خيبة أمل في صيد شتوي في غير موعده.

لا أخشى الانتقال من حياة الأرض، فمن يخشى لقاء أمه؟ لكن تنتظرني رفقة آدمية، ترتبط مصائرنا بذات البدايات والخواتيم. كسلسلة أتبادل وإيّاه جدل حلقاتها.

أتشمم الثلوج مقتفيًا رائحة دماء ذي العنق الفضي. بقعة الدماء تنسحب إلى قلب الثلوج وأرى أثر جرّ أخي يجاور أثر أقدام صائديه.

ارتبط مصيره بمصيرهما ونسج دوره في حلقات حياتيهما. أُغمضُ عينيّ وأتوجه إلى أخي الشمس..

أعوي..

أذّكر كل ما مر بذي العنق الفضي كما أذّكر كل ما مر بأسلافي العظماء حراس أرض الموت المجيدة. ذاكرة واحدة وحياة واحدة ممتدة إلى حيث لا تقدر بصيرتي على الوصول.

لن يفتقد أحد من قطيعي غيابي اليوم، أبتعد عن موطني مسيرة إشراقتين لأخي الشمس. ستنتهي مهمتي بعد إشراقتين أخرتين ثم أعود.

اليوم أرى من خُلقت لمرافقته من بني البشر.

ـ نادِني جايكوب فقط يا سيد كوتنوار.. اعذر شرودي في مذكّراتك، أنت تكتب بصيغة كونك ذئبًا.. هذا يتسق نوعًا مع ما أعلمه من علاقة الهندي بالذئب.

ـ يقول قومي أن نانابوزهو العظيم اعتبر الذئب أخًا توأمًا له منذ إشراقات الشمس الأولى على هذه الأرض. الذئب تشيبيابوس الذي غاب عن عالم الأحياء بعد قتل مخلوقات الماء الشريرة له. لم يستطع

www.ibtesama.com/vb

نانابوزهو العظيم أن يُعيد أخاه إلى الحياة، فالموت مرحلة من مراحل حياة الأرواح الأزلية الأبدية، فنصَّب العظيم أخاه الذئب سيدًا لمملكة الموت البهية[1].

ـ يُلهمني ذلك بلوحات لا حصر لها! هذا يوضّح عمق وقدم العلاقة بالفعل ويفسّر اختيارك لكتابة أجزاء من مذكّراتك كذئب.

ـ ربما كانت تلك هي مذكرات ذئب فعلاً لا مجازًا.. لن نعرف أبدًا!

ـ فلتُكمل يا سيدي..

ـ .. كأنَّه البارحة.. صباح الثامن والعشرين من.....

(١) أسطورة Nanabozho والذئب واحدة من عشرات الأساطيرعن ذات الشخصية التي تقف على الحد الفاصل بين الآلهة والبشر وتُفسر قصصها عدّة نقاط فيما يؤمن به السكّان الأصليين لقارة أميركا.

www.ibtesama.com/vb

- ٣ -

لِيو كوتِنوار

..... يناير في عام الرب ١٨٢٦

أركب جوادي لأول مرة خارج نطاق بوا أوجوي[١]، المدينة الصغيرة تُداعب براعم تذوّق الحياة لدي. يوم حافل ينتظرني، فهو يومي الأول في سوق بيع الفراء. يتقدمني أخي الأكبر رأس القندس[٢]، يحمل خلفه على حصانه عشرات من قطع الفراء الثمينة ليبادلها بالطعام والسلاح. لا يحق للهنود أو الزنوج استبدال الفراء بالمال أو حتى بذات القيمة التي تُستحق للأوروبيين. قبيلتنا تسير بخطوات ثابتة نحو مجاعة محققة وحروب تستنزف قواها مع المورمون وجيش الرجل الأبيض من خلفهم.

---

(١) Boa ogoi مكانها اليوم في ولاية آيداهو وهي من أماكن معيشة قبائل الشوشوني الغربيين western Shoshone، من أهم قبائل الهنود الحمر قديمًا ومازالوا يعتزّون بأصولهم إلى اليوم.

(٢) يحمل الهنود أسماءً تحمل صفات ذهنية أو بدنية فيهم، أو نتيجة شكل أثر أقدامهم على الأرض وما إلى ذلك. ويعتبر القندس حيوانًا مقدّسًا يُنسب إليه تنوّع صفات البشر وقواهم، لأن البشر بحسب الأسطورة خُلقوا من أجزاء جسده المختلفة.

www.ibtesama.com/vb

لن أدع هكذا ذكرىٰ تُفسد عليّ صفو يومي هذا. يعرف الجميع أخي الأكبر وينابيه الرجال البيض بـ"بيفز" تدليلاً لترجمة اسمه للإنجليزية.

يجتمع تجار الفراء والصيادون من رجال الجبال وغيرهم في ملتقاهم السنوي بالقرب من النهر الأخضر في أراضي وايومنج المجاورة، ويأتي بعضهم للسوق المحلي هنا للقاء الأصدقاء وتبادل حكايا الجبال المخيفة والمشوّقة.

يتركني أخي برفقة جوادينا ويحمل الفراء علىٰ كتفه لمبادلته. أفرك كفّيّ في ردائي المصنوع من فراء الأرانب البرية طلبًا للدفء وأجوّل بناظري في الميدان المتسع المزدحم بعربات تجرها الجياد، وعلىٰ أطراف الميدان يتناثر الأوروبيون في حُلّاتهم الأنيقة وقبعاتهم العالية، يشترون هذا ويسألون عن ماهية ذاك.

مجموعة من ثلاثة صبية أوروبيين في مثل عمري أو أكبر قليلاً يتجاذبون أرغفة خبز ساخنة يحملها صبي تعس. يتسلىٰ أضخمهم بجذب الصبي من حمّالتي بنطاله ودفعه خلفًا وأمامًا.

مقهىٰ تفوح منه رائحة البن يجلس عليه مجموعة من رجال قبائل الغراب[1] بزيّهم المُطعّم دومًا بريشات سود، وإن لم يكونوا يرتدون تيجان الريش في الأسواق عامة، إلا أني أعرف ملامحهم جيدًا بحكم تعاونهم مع قبيلتنا من الشوشوني الغربيين في تربية الخيل منذ أن جلبها المستعمر من العالم القديم، كما يطلقون علىٰ موطنهم وراء المحيط.

جذب رجل منهم عيناي إليه، فاقتربت بخطىٰ حثيثة أتحقّق مما أراه. رجل ضخم خشن الشعر إلىٰ درجة غير مألوفة عند قومنا، وجهه مطلي

---

(١) Crow Nation من الهنود يعيشون في منطقة نهر يلوستون وما حولها، ويعتبرون أنفسهم أبناء الغراب المقدّس جالب النور والنار إلىٰ الأرض.

www.ibtesama.com/vb

بلون أحمر، يلف عنقه طوق من الخرز الأبيض المجدول في صفوف عرضية تتدلى حتى صدره، لا يبدو مباليًا بشدة البرد، فجذعه عارٍ، يستر نصفه السفلي بنطال يدوي الصنع مزدان بشرائط جلدية على الجانبين.

كان باختصار رجلاً زنجيًا يتظاهر بأنه هندي! الرجال من قبيلة الغراب حوله يسمعونه ويضحكون، يُدخّنون الغلايين المحلية ويحتسون شراب الذرة المختمر بينما يجرع هو القهوة.

ـ ليو!

صوت أخي أوقف تقدم خطواتي فالتفتُّ إليه مبتسمًا في حرج. نظر خلفي وهزّ رأسه في فهم ثم انفجر ضاحكًا بلا صوت كعادته. تهتز كتفاه في مرح ويظهر بياض أسنانه الاستثنائي. سناه الأماميان كبيران نوعًا، يضفيان منطقًا على تسميته برأس القندس!

ـ تعالَ واختر ما تُريد مبادلة فرائك به.. اقترب!

أنتظرُ تلك اللحظة بفروغ الصبر. عيناي مثبتتان على الحافظة الجلدية المفرودة بين يدي التاجر، والتي تحمل في طياتها سكاكين صيد أوروبية من معدن لامع حاد ومقبض خشبي منقوش بدقّة.

مازال أخي ينظر إليّ ويضحك.. يُربّت على ظهري في فخر شديد..

ـ يجري الصيد في دمائك مجرى الصهارة تحت سطح الأرض البارد.. اختر ما شئت ولا تسأل عن ثمنه.

اخترت سكينًا متوسط الحجم اختبرت وزنه في كفي، أُجيد قذف الخناجر والسكاكين وإصابة الأهداف المتحركة بها كما أجيد الذبح والسلخ،

www.ibtesama.com/vb

لكنهم يمنعونني من الذبح لصغر سني، يذبح أخانا الأكبر ويُجيد تلاوة الصلوات في آذان الطرائد.

ـ حسنًا يا ليو، قف جوار جوادينا وسأُنهي حسابنا مع الرجل الطيب وأوافيك.

أخرجت سكيني من غلافها الجلدي وشرعت أتأملها في نور الشمس متوجهًا إلى حيث مربط الجياد. أُمسك خصلة من شعري الطويل وأُمرّر عليها النصل فتطير الشعيرات المذبوحة في الهواء.

أدس السكين في حزامي، لكن قبضة على عضدي من الخلف تمنعني من الحركة. ألتفت لأجد الصبيان الأوروبيين يلفّون حولي وهو يلوكون الخبز من صيدهم السابق.

أزيد من التمسك بسكيني. أذكر تحذيرات الجميع أمس، لا تحتك بأوروبي مهما كان الاستفزاز، فهم يعرفون جيدًا أن قومهم يحمونهم وينصرونهم على أيًا كان من الأغيار.. دع التعامل لرأس القندس.

ركلة في بطني من الصبي ذي العينين الباهتتين والقبعة الصغيرة.

ـ ثلاثة هنود صغار.. ثلاثة هنود صغار غرقوا في النهر!

يُغنّي أغنية إنجليزية تبدو عن الهنود، لا أفهم أكثر ما يقول.

ـ قبل أن تغرق في نهر من بولك أيها الهندي.. أعطني ذلك السكين..

لهجة آمرة، وخوف يتبدى في عينيه.. الصبي يخشاني. البدين يدفعني في ظهري ثم يئد توتره من ثباتي في لقيمات متتابعات من رغيفه.

ـ ترتدي فراء الأرنب كرجل كهف قزم.. هل جربت ارتداء فراء دجاجة؟

www.ibtesama.com/vb

يضحك الثالث ويُكرّر آخر كلمتين قالهما ذو القبعة. يداري قلقه من الخطوة التالية في سخرية مفتعلة.

ـ ليس لهندي مثلك أن يحمل سلاحًا كهذا، لابد وأنك سرقته كما يسرق قومك مستعمراتنا ليلاً..

سرقة؟! قومي لا يسرقون! لا تُسعفني لغتي على فهم ما قيل قبل لفظة سرقة أو بعدها، كما لا تُسعفني كي أردّ..

ـ لا نسرق.. أنا لا نسرق!

ثلاثتهم يدورون حولي، أولهم يغني، ثانيهم يلوك الخبز، ثالثهم يردّد آخر كلمتين لي ويضحك.

تلاقت عيناي بعيني الزنجي المُتظاهر. توقف عن الكلام بغتة ومعه توقف القوم عن الضحك والتفتوا لي.

شهرت سكيني في وجوههم لا أبغي دمًا، فقط أجبر ما انكسر من كرامتي.

يصيح البدين بعد أن فرغ من رغيفه:

ـ سيقتلنا كما يقتل قومُه البيضَ! النجدة!

لم يتوقف أحد من المارة ولم يتحرك أي من مشاهدينا. أحدهم صاح بلا اكتراث "اترك السكين ودعهم وشأنهم"!

ذئب يعوي على بعد غير كبير..

أغنية عن ثلاثة هنود..

وقع أحذيتهم ذات النعال السميكة على الأرض..

رائحة القهوة تعبر الميدان..

www.ibtesama.com/vb

صوت أخي..

ـ ليو.. ماذا تفعل؟!!

أتشتتُ، فيختطف ذو القبعة السكين من يدي، يصيح فرحًا غير مصدق لما أنجزه للتو. تتأرجح عيناي في جنون بين أخي والصبية الهاربين فأختار ثأري.

أعدو خلفهم فيلحق بي أخي، يلف ذراعيه القويين حول كتفي ويتحدث بنبرة ثابتة من بين أسنانه:

ـ ليو، اهدأ.. هذه مجرد سكين.. وهم مجرد صبية..

ثم ركع على ركبتيه مديرًا جسدي تجاهه، أمسكَ كتفي ونظر في عينيّ. أشحت بوجهي خجلاً من اعتراف لابد منه..

ـ أكرههم يا بيفز.. لقد نعتوني بالسارق و.. واستخفّوا بقومنا.. لم يتحرك أحد ممن حولنا وكأن ما يدور لا يعنيهم، وأنت لم تتركني أثأر لنفسي وأقتل واحدًا منهم على الأقل ليعلم الجميع من نكون..

كل نَفسٍ يدخل رئتيّ خنجر مدبب يمزقني. أسمع اندفاع الدماء إلى وجهي وتضيق قلادتي على عنقي النابض بالغضب فأخلعها عنوة.. تنفرط حبّاتها البيضاء في كل صوب.

ـ ليو يا أخي.. أنا أيضًا أشعر بالكُره تجاه من يُسيئون لنا، لكن الكُره يستعر داخلنا محيلاً أرواحنا إلى رماد ولا يمسّ من تكرهه بلظى حريقه، يشبه الأمر أن تتناول سُمًا وتتمنى أن يموت عدوك! صدقني فقد صارعت ذلك الشعور في نفسي كثيرًا..

يقوم ويمدّ يده نحوي فتلتقم كفه الدافئة كفى المثلجة، سائرًا جواره أُحدّق في ظلّينا على الأرض.. ظل كبير يحوي ظلاً أصغر.. أضعف..

www.ibtesama.com/vb

عواء الذئب يتكرر بلا مجيب..

ـ الأمر يا ليو أشبه بأن كان داخلي ذئبان، أحدهما أبيض والآخر أسود. الذئب الأبيض يعيش في تناغم مع كل ما يحيط بعالمه الطاهر ولا يبدأ بالعدوان إلا إذا كان العدوان بقدر ما يُعكّر توازن عالمه، حتىٰ وإن اعتدىٰ عليه غيره.

علىٰ عكس الذئب الأسود، يفور مرجله بالكَره والبغضاء.. يثور لأتفه الأسباب، طيلة الوقت، بلا رادع. إلا أنه لا يستطيع التفكير، فالغضب يُعميه، لذا فغضبه بلا فائدة تُجنىٰ، لا يقدر علىٰ تغيير شيء، بل يجعل الأمور أسوأ من حوله ويُخلّ بتوازن محيطه بتصرفاته الهوجاء..

يساعدني علىٰ ارتقاء جوادي ويربّت علىٰ منخريه متحاشيًا النظر إلىٰ عينيّ..

ـ أحيانًا، كنت أشعر بمدىٰ صعوبة الحياة وهذان الذئبان يصطرعان داخلي، يتجاذبان أطراف روحي.. يختصمان أيهما أحق بها..

ـ وأيهما انتصر إذن؟

ـ انتصر الذي أُطعمه!

www.ibtesama.com/vb

- ٣ -

برادلي جولدنج

ـ انتصر الذي يُطعمه.. إمم..

بدا جايكوب مستمتعًا إلى أقصى درجة بحديث الهندي، الرجل يموت تيهًا بنفسه وبأصله.

لِمَ كل هذا العواء والأنين على شجار صبية يحدث كل يوم بلا توقف؟! لِمَ الصبغة العنصرية اللعينة في كل حرف ينطقه؟!

بحثتُ في جيبي عما يصلح لربط خصلات شعري المبتلة، فقد استحالت ستارًا أسود ملتصقًا بنافذة نظارتي..

ـ سيد جولدنج.. هل انتهيتَ من التدخين؟ الأمطار اشتدت وأرى أن ملابسك قد تشربت جالونين منها على الأقل..

ألتفتُ لكوتنوار وأفتحُ فمي لأُجيب، فأسمع من خلفي خطوات تهرع نحوي. فتى البيرة مرة أخرى.

www.ibtesama.com/vb

ـ سيدي.. هومر ليبرسون يطلب منك أن تُبعد سيارتك عن ورشته لأن الأمطار كثيفة ويريد أن يرصّ سياراته بجانب بعضها البعض ليغطيها بغطاء واحد.. أعطني المفتاح ويمكنني أن أجد لك مكانًا جيدًا..

مفتاح سيارتي؟ هذا الصبي يمزح! أخرجت مفاتيحي متحاشيًا إعطاء الفتىٰ أي انتباه وعبرت الطريق نحو السيارة.

لم يستجب المحرك لمحاولاتي المتتالية، يتقدم الفتىٰ تحت الأمطار مقتربًا مني فأُغلق ما فتحته من زجاج نافذة السيارة، لا أريد نصائح عما يجب فعله لإدارة محرك أحمق.

توقّف الفتىٰ وسط الشارع ومن خلفه هرول جايكوب تجاهي وهو يدسّ مذكرات كوتنوار في جيب بنطاله الخلفي، مستظلاً بمعطفه المفرود فوق رأسه كمظله بأكمام. فتح الباب الجانبي ودلف يلهث ماسحًا وجهه في بطانة المعطف.

ـ ماذا الآن؟ لِمَ لا تدور؟

أشرت إلىٰ خزان الوقود الفارغ في غيظ.

ـ فارغ.. الخزان فرغ من تلقاء نفسه، هه؟ ربما أفرغه بيكوورث أو أي حقير آخر.. إليك الاحتمالات: أولاً أن يكون أحدهم قد أفرغه في غفلة منا بغرض اختطافنا أو مساومتنا، ربما قتلنا كذلك وتفكيك السيارة، فنحن في منتصف اللامكان هنا، ثانيًا أن يكون أحدهم قد أفرغه أو ثقبه ليتقاضى منا أجر إصلاحه وإعادة ملئه، وسيكون أجرًا مضاعفًا بالطبع..

لزيادة ارتفاع ضغط دمي بضع درجات أخرىٰ، انخرط جايكوب في نوبة ضحك أخذ يضرب خلالها التابلوه بقبضته محاولاً إخراج أكبر قدر من الانفعال في أقصر وقت.

www.ibtesama.com/vb

ـ يا إلهي! أنت تمزح، أليس كذلك؟! براد.. أنت لا تمزح؟! هل تُصدّق فعلاً ذلك السيناريو المعقد عن اختطافنا أو رغبتهم في حلب المزيد من المال من صاحب سيارة تثير الشفقة!

ـ لن أغادر هذه السيارة ولن آمن جانب هؤلاء القوم..

بدا لي أن هومر ليبرسون هذا يأس من أن تتحرك سيارتي، فشرع في دفع سياراته وتغطيتها سريعًا، ثم انصرف يعدو إلى منزله.

وصل كوتنوار إلى السيارة حاملاً جهاز التسجيل وكاميرا جايكوب ودفتر الرسم، ليبدُ مباليًا بالأمطار وهو يطرق على زجاج النافذة بظهر كفه المرقط ويلهث.

مد جايكوب يده وفتح زجاج نافذتي ثم فتح باب المقعد الخلفي للهندي العجوز.

ـ تفضل يا سيدي، لِمَ أحضرت حاجياتنا؟ فقد كنا على وشك العودة إليك..

ـ بدت أجهزتكما ثمينة فظننت أنه من الأفضل أن تحتفظا بها في الجوار..

هذا الرجل يقرأ أفكاري بشكل خاص ويستمر في تكييل اللكمات لقناعاتي. إلا أنها لكمات ضعيفة تليق بشيخ يُعاني ركلات الزمن.

يلهث الرجل من بضعة يارِدات قطعها، شفتاه مزرقتان..

ـ سأجد من يُصلح سيارتك سريعًا إن كنت ترغب في ذلك طبعًا، لكن بعد توقف الأمطار، أو يمكنك الاتصال بخدمة ٩١١ في حصن واشاكي وطلب سيارة خاصة لجرّ سيارتك إلى.. إلى أقرب مكان تصليح سيارات خارج ويند ريفر.

www.ibtesama.com/vb

يظن إنه يردّ لي أنا ضربات كالها له صبية في الشارع.. سأتصل بالجريدة وبالطوارئ وبـ ٩١١ إن استدعى الأمر. نسبة الجريمة مرتفعة هنا شاء أو أبى تصديق ذلك.

جايكوب يدعوه لدخول سيارتي لالتقاط أنفاسه، يرفض الرجل مشيحًا بكفه إلا أن جايكوب ينزل ويدفع الرجل برفق إلى الداخل.

مازال فتى البيرة واقفًا وسط الشارع تحجبنا عنه الأمطار المتزايدة في جنون. نوافذ السيارة ذاتها أشبه بجدارن صوبة نباتات زجاجية. بخار الماء ينزلق متباطئًا محاكيًا انكسار المطر في الخارج.

عينا كوتنوار معلقتان بالفتى الهندي، لا يجرؤ على النزول إليه مرة أخرى، ولا يقدر على دعوته لرفقتنا الدافئة داخل السيارة. أصوات عواء الذئاب المتوطنة في منتزه يلوستون الوطني المتاخم يتعالى قربًا.

أُسدّد نظرة نارية لجايكوب كي يخرس ولا تأخذه توابع نوبة كرمه فيدعو القوم جميعًا إلى السيارة!

ـ سيجد طريقه.. لا تقلق يا بني.. هكذا وجدت طريقي أنا يومًا وسط صمت الصامتين..

www.ibtesama.com/vb

- ٥ -

ذئب

لم تتلاقَ عينانا إلا أن عوائي يومها وجد صداه في قلب الصبي الصغير وسط الميدان. لا يجوز لي الاقتراب أكثر، فعالمنا يختلف عن عالم أبناء البشر، إلا أننا نتشارك ذات الأم وذات الأصل وننسج معًا إرادتي الموت والحياة.

يلوستون[1]، قلب الأرض النابض وآخر حصن تبقىٰ علىٰ سطحها، تتحمل هجمات مدافع البشر ويأبىٰ سطحها إلا أن تزيده الجروح قوة وهيبة.

لقد تحرك الرجل الأبيض علىٰ أرض يلوستون ولوث طهر ثراها منذ إشراقتين لأخي الشمس، يتحرك بمكر ليل نهار متوجهًا لأرض الأشراف بوا أوجوي.

---

(١) يلوستون yellow stone منطقة جبلية تحوي الغابات والحيوانات البرّية مثل الذئاب والدببة والقيوط وغيرها، وهي منطقة وحشية تتميّز بنشاط جيولوجي مثير للانتباه، وتمتد في ولايات مونتانا ووايومنج وآيداهو ويوتاه. تحوّل المكان منذ عام ١٨٧٢ إلىٰ متنزة وطني ومحمية طبيعية.

www.ibtesama.com/vb

يتحلق قومي حول قرية قوم العشب[1]، يستشعر البشر فيها خطرًا يقترب. يعانون الجوع ونقص المحاربين والإمدادات. يحتمون خلف جدائل من عشب الأرض ويدعون الإله خالق الأرض والشمس، ونبتهل نحن معهم.

أنفض ذرات الثلج المتكومة فوق فرائي في إصرار، أستشعر خطوات رفاقي يقتربون، أبي وأمي وإخوتي الصغار. حتىٰ ذو الرقبة الفضية يتواجد في كل دفقة مياه دافئة من تحت السطح المتجمد للأرض.

محاربو الغازي يتنقلون في مجموعتين، يتنقل أخطرها ليلاً ليُتمّوا خدعتهم علىٰ القوم الغافلين[2]. مرت عدة مواسم لهطول الثلوج ومازال قومه يزحفون علىٰ أراضي قوم العشب ويحرمونهم الصيد. قوم العشب يموتون بلا طعام ولا مخزون للشتاء.

قوم العشب الشرفاء يسرقون ما اغتصبه الرجال البيض منهم ليُطعموا أطفالا تهرب الروح من أجسادهم في كل ساعة أمام أنظارهم.

قوم العشب يقتلون ابن كبيرهم عندما اتهمه رجال البيض زورًا بسرقة جواد لهم، لا يسرق الشرفاء إلا كفافهم فقط.

محاربو الغازي يلهثون بخارًا أبيض، تجمد ما يشربون واحترقت أطراف أنوفهم..

يلتصق بي أبي، الذئب القائد في قطيعنا المكون من أربعة ذئاب بالغين

---

(١) قوم أرض العشب أو الشوشوني، وكلمة شوشوني تعني العشب أو قوم العشب. وينقسمون إلىٰ الشوشني الشرقيين والغربيين، ويختلفون بشكل كبير عن بعضهم البعض، من حيث أماكن المعيشة والأنشطة وبعض التقاليد واللهجات. المذكورون في العبارة أعلاه هم الشوشوني الغربيون في ولاية آيداهو.

(٢) قام الجنرال باتريك كونور عام ١٨٦٣ بحملة لإبادة الهنود الحمر بإدعاءه أنهم يسرقون الطعام من مستعمرات المورمون وقام بمذبحة نهر الدب RIVER BEAR MASSACRE

www.ibtesama.com/vb

وأربعة جراء. يُعلِّمني أن الصيادين من الجبال يتعقبوننا، تم قتل ذئبين من القطيع الشمالي ومازال الرجال يتعقبوننا في تلك الليلة قارصة البرودة.

أحيانًا يتحوّل الصيد في نفس البشر إلى ثأر، وتُمسك نيران الثأر بكل تعقّل خلقه الإله فيهم، فيبخعون أنفسهم فقط لإثبات سطوتهم. لا يُدركون تقبّلنا للانتقال للحياة التالية إلا أن كلاً بميعاد وأوان..

www.ibtesama.com/vb

- ٦ -

ليو كوتنوار

تغرق شمس النهار في نهر الدب العظيم، تُطفيء لهيبها بينما مازال يستعر داخلي ألف لهيب لا يهدأ.

صامتٌ، أجوب أنحاء القرية، صامتون هم الأهل يجوبون دواخلهم المقفرة..

ماذا يحمل الغد..؟

ثلاثة رجال مصابون بطلقات نارية يلفظون آخر أنفاس لهم داخل خيمة المُعالج كما لفظها عشرات قبلهم بلا ترياق. خرج أولئك الرجال ليلاً يسرقون طعامًا لنا.. نعم..

الهنود يسرقون..

بادلوا دماءهم بثلاثة أجولة من الطحين، تركوها هربًا في منتصف الطريق. واستبدلوا أرواحهم عارًا يُحلّق فوق الرؤوس ناعقًا.

www.ibtesama.com/vb

لن نُحيي رقصة الشمس الصيف القادم، فلا يوجد ما نحتفل به وما نكسر به صيام الأربعة أيام المقدّس. لن نفرح ولن نشكر في أرض الجبال القاحلة تلك حتىٰ نعود ديارنا التي طردنا منها البيض.

أدور حول شبكة صيد البيزان التي نصبها بيفز من أيام ثلاث. عندما يدخل الباز الأحمر الشبكة فإن أخي يُطلقه علىٰ الفور. يُخبرني أن البازُ الأحمر[1] هو أحد الحُماة الست لقومنا.

أُصارع فكرة أن الحُماة قد تخلّوا عنا، الحماة ما هم إلا حكايات بائدة. إن كان لهم وجود فلمَ لم يحموا كرامتنا وينقذوا أرواح أطفالنا الجوعىٰ؟ إن كان لهم وجود فلِمَ يتركون للرجال البيض ظلاً يمشي علىٰ أراضينا؟

الرجال يتحضرون لحراسات المساء. أوشكت ذخيرتنا علىٰ النفاد والبرد تجاوز أي برد مررنا به من قبل.[2]

تمر السويعات وأنا أرقب شبكة الصيد، يتركني أخي الأكبر كي تلتهم نيراني بعضها البعض وتخمد.. يترك ذئبي الأبيض في داخلي يتلوىٰ جوعًا.

تغفو عيناي للحظات فأصحو فزعًا، أنقل عيناي بين الرجال المتجمدين في مواضعهم كقباب من فراء الدببة المتحلقة حول النار.

عواء الذئاب يتكرر بشكل غير اعتيادي، تتغير ملامح الزعيم فقد أدرك ما لم ندركه. توتر عام علىٰ ملامحه وهو يتقدم واقفًا، يولي أذنه اليمنىٰ شطر صوت الذئاب، ثم يتبادل همسات مع ابنيه الكبيرين. يوقظون إخوتي الكبار فتهرع خلفهم أمي وقلبها ينفطر خوفًا.

---

(١) الباز هو طائر شبيه بالصقر لكنه من فصيلة البازيات. والباز النادر الذي يقدّسه الهنود الحمر هو الباز ذو اللون الأحمر بالكامل، وليس الباز أحمر الذيل العادي.

(٢) درجة الحرارة في ليلة التاسع والعشرين من يناير ١٨٦٣ قد انخفضت عن ٣٠ درجة سيليزية تحت الصفر في ولاية آيداهو، وقد تجمد الويسكي في مؤنة جنود الجنرال كونور ليلتها.

www.ibtesama.com/vb

يمر الوقت ثقيلاً ومازلت أغفو جالسًا أتلصص على شبكة الصيد تارة، وعلى خيمتنا تارة.

بصيص أحمر من إشراقة الشمس يتبدى من خلف الجبال، يصبغ الثلوج بلون وردي يتسلّل عبر فتحات الشِّباك. أُضيّق عينيّ لأتأكد مما أرى..

الباز الأحمر المهيب يرفرف محاولاً الخلاص من الشبكة الملتفّة!

أهرع نحوه وفي جوفي يفيض التوتر والإحساس باليأس، يهيبان بي أن أفعل شيئًا، أي شيء يؤكد كوني مازلت حيًا.

أدخل إلى الشبكة محاولاً الإمساك بالباز النادر، سأمسكه وأبيعه بأغلى الأثمان، وأشتري بثمنه ما يكفي لكف يد السؤال عن عائلتي.

صوت طلقات نارية ثم يهوي الساتر المجدول من الأعشاب قبل أن يبدأ رجالنا حتى في الاصطفاف.

جنود الجنرال كونور يتقدمون نحونا في ثبات، مشاة وفرسان، كأنهم في حرب على دولة كبرى لا قبيلة من العزَّل لا تتجاوز الألف نفسٍ.

كل ما نملك من دفاع هو أسلحة تبادلناها مع الصيادين وبعض القطع العتيقة نتوارثها من الأجداد في مواجهة جيش الاتحاد الشهير ومرتزقته من كاليفورنيا.

كان الهدف من حائط العشب المنسوج هو إخفاء عددنا فقط، وهو عدد غير مطمئن. صوت طلقات البنادق العتيقة تأتي من الحُفر التي يحتمي فيها مقاتلونا حول نهر الدب.. أحاول أنا أن أهرب من التفاف الشبكة حولي ومن خمشات الباز على وجهي الدامي، لا أقدر على فتح عيناي كي لا تصيبها المخالب المهتاجة.

www.ibtesama.com/vb

كلما سنحت لي الفرصة لفتح أجفاني أرىٰ الفوضى تعم والأرواح تنسل من بين الأضلع..

صراخ النساء..

الزعيم صائد الدب يصيح في حيرة "بحق الأجداد لقد توقعت مفاوضات منكم لا حربًا.. توقفوا"!!

الباز يخمش وجهي ويحجب السمع عني برفرفة جناحيه العملاقين..

الزعيم ساجويتش يختفي عن عيناي الداميتين في سحابة من غبار الثلوج المتصاعد من تحت سنابك الخيل..

أين المَخرج؟! الباز يُمزّق لحم ذراعي بمنقاره الحاد..

ـ ليو!!!

أخي رأس القندس ينادي..

ـ أخي.. أنا في شِباك البيزان!

أسقط أرضًا ضاربًا رأسي في صخرة حادة، تغيب الدنيا عن عينيّ للحظات ثم تعود..

لا وجود للخيل أمامي إلا أن إطلاق النار لا يتوقف.. أين بيفز؟ أين أمي؟

أغيب عن الوعي.. ثم أعود..

الباز الأحمر يحلق حرًا فوق سمائنا، يدور في حلقات..

أحاول أن أصرع الدوار في معركة غير متكافئة..

ـ .. أيها الزعيم، لقد نفذت الذخيرة!

www.ibtesama.com/vb

رجال يحملون بلطات التوماهوك يحتضنون الموت المدوي في صدورهم..

ورجال يحاولون سبك رصاصات لإنقاذ الموقف، يموتون ممسكين في أيديهم السبائك، يُطبقون على آخر أمل..

ألمح رأس القندس يعتلي تبة، ويصوب السهام نحو المعتدين، من حوله تُقابل الرصاصات الرماح والسهام في الهواء..

أنطلقُ مترنحًا، بينما الخيل تُطوّق المكان بالكامل مانعة أي شخص من الفرار. الجنود يحرقون الخيام فتهرب النسوة والأطفال إلى أحضان الموت..

لا أكاد أرى أيًا منا يقف على قدمين..

الدوار ورائحة البارود والدماء..

أطفال مهشمي الرؤوس ونسوة منتهكات الأعراض يلفظن آخر الأنفاس الطاهرة فوق بياض الثلوج..

لا أجرؤ على فتح فمي.. لا أجرو على النظر حولي..

الزعيم ساجويتش يعتلي حصانه ويجمع حوله عدة مصابين وأطفال على عربة تجرها الجياد يحاول النجاة بهم، ينزف ذراعه بغزارة، دفقات من الدماء تصبغ الهواء المحمل بهدوء الموت..

أبحث عن أثر لسهام أخي رأس القندس، يشير لي الزعيم ساجويتش كي آتي معهم..

أنقل قدماي محاذرًا الخوض في أجساد أهلي وأولاد عمومتي..

ابن الزعيم، تيمبيمبو، ملقى بلا حراك تُزيّن صدره رصاصات سبع،

www.ibtesama.com/vb

ترتعش قدمه فأجثو مقرّبًا وجهي من أنفه، مايزال حيًا! أجره جرًا نحو أبيه الذي سقط من فوق جواده المبقور توًا.

أكداس من المصابين يحتاجون من يجرهم جرًا إلى خارج ثغرة دقيقة في سياج الجنود حولنا.

أتفحص الأوجه الدامية فأجد وجه أخي رأس القندس. مصابًا في رأسه بصف أسنان مكسور.

والغبار الأبيض يعطي سمت الحلم لكل هذا الدمار.

الثلج الذائب بفعل النيران ينزح الدماء ويجري في شرايين صغيرة على وجه الأرض المكلومة..

تفاصيل لا أعرف كيف تسللت إلى عقلي، وكأنه يحاول اختزان لحظات ربما تكون الأخيرة لي..

أناس يلفهم الفراء والثلج ملقون أرضًا كذبائح تم سلخها..

أناس يعتمرون القبعات، يطئون أرضنا بسنابك خيلهم، شامخين، عالين متعالين..

أهمس في أذن بيفز:

ـ أكرههم يا بيفز.. أكرههم..

وآخر ما أذكر عواء مستمر لذئبين وحيدين يتظاهران بكونهما عصبة..

www.ibtesama.com/vb

- ٧ -

ذئب

تستقبلهم مملكة الموت أفواجًا، يقف كل منهم قبالة أخيه الذئب ويذوبان في كيان خصب، منه تنبع الأحلام والذكريات.

اعتاد الصيادون في الجبال عبث الذئاب بمصائدهم، خدع صغيرة تثقب جرح كبريائهم فينز الصديد.

أعدو بين أشجار الصنوبر المحترقة من الصيف الماضي، فلولا احتراقها ما بقيت بذورها حية تحت رماد الموت تخترقه طمعًا في دور لها في الحياة[1].

ألبث في مكاني وأتكور مقللاً من حجمي الملحوظ. السكون يعم كل ما حولي إلا من تتابع خطوات الصيادين تبتعد عن حدود الغابة المحترقة.

يدعون أشجار الصنوبر المحترقة، الموتى الواقفين. كأرواح أجداد مُحلِّقة تحرس أحفاد لا يدرون من غدهم شيئًا.

---

(١) تحترق غابات الصنوبر في منطقة يلوستون بتتابع مثير، حيث تمنع الغابات المحترقة النيران من العبور إلى الغابات السليمة بنظام دقيق، كما لابد لبذور الصنوبر من درجة حراراة عالية قريبة من درجة الاحتراق كي تتفتح وتنغرس في الأرض لتنمو مرة أخرى.

www.ibtesama.com/vb

يمر وقت يُتوّج فيه أخونا الشمس غرة السماء، فتنقشع السحب كوهم يبدده الضوء البكر. أرىٰ والضياء يعمي عينيّ، فراء إخوتي الأربعة وأمي معلقًا أمام مأوىٰ الصيادين الخشبي في سفح الجبل. بينما لحومهم ملقاة تتخطفها الضباع.. تجري القيوطات برزقها من القلوب والأكباد وما لان علىٰ فكوكها الضعيفة، بينما تدور النسور في انتظار قوتها.

اليوم أبدأ حياتي كذئب وحيد بلا قطيع أو عائلة، إلا أنني مازلتُ أستشعر وجود أبي في مكان ما.

أنتظر متكورًا في مخبئي حتىٰ صعود القمر متخفٍ في رداء من سحب مثقلات بمزيد من الثلوج. هدوء يلف اتساع المكان في جلد ضيق واحد، فيضيق الصدر وتتسارع الأنفاس.

أعوي زافرًا كل ما أثقل كاهلي.. أعوي من أجل الصحبة.. من أجل الوحدة.. من أجل من ذهبوا ولن يعودوا..

ذئب منفرد تعتبره كل القطعان الأخرىٰ خطرًا، ذئب يائس، برّي، بلا كبير يخضع له. لدهشتي تقف أذناي في محاولة لاستقبال عواء جريح مكتوم من ناحية مغرب أخينا الشمس. رغم الظلام أعدو، تبتعد عن طريقي الأيائل والظباء. أغوص في سُمك الثلوج ناثرًا بياضًا يُعانق أنفاسي الحارة.

أبي، زهرة قرمزية تفترش فراءه البني عند ساقه اليمنىٰ، قطعة خشب مسنونة من فخ تنبع من منتصفها، مسودّة تنفث الألم في دمائه.

ألعق الجرح وألعق وجهه المتألم، رذاذ دافئ يطولنا من ينبوع ملتهب قريب. لطالما أماتنا التضاد وأحيانًا بين موت وولادة علىٰ أرض الحجارة المتألقة الصفراء.

www.ibtesama.com/vb

أضغط بفكي على الوتد الخشبي وأُثبّت أبي بقائمتيّ الأماميتين. أُغلق عينيّ عن نظرة عذاب في عينيه الذهبيتين..

و أجذب..

www.ibtesama.com/vb

- ٨ -

ليو كوتنوار

عواء مفزع كاد يُسقطني من مكمني على فرع شجرة الصفصاف الضخمة حيث نختبئ مع الزعيم ساجاويتش الجريح. لا أعرف كيف نمت وأخي يستند في ضعف إلى صدري، مربوطان إلى فرع غليظ خشية السقوط إذا غافلنا التعب.

أُبيدت أكثر من نصف القبيلة، وما تبقى هم للموت أقرب. لا يقدر أحد على الحركة ما بين جريح وغائب عن الوعي ومن هو على شفا جرف الموت مُطل.

تيمبيمبو ابن الزعيم مايزال ملقى، مثقوب الصدر في مواضع سبع. أخرجت النسوة الرصاصات من لحمه إلا أنه مايزال يرتعد رغم النار الصغيرة التي أوقدناها بعد أن تأكدنا من ابتعاد المعتدين وانشغالهم في جرحاهم.

لابد لنا من أعشاب لمداواة الجرحى أو خلطات كالتي يستخدمها

www.ibtesama.com/vb

البيض مع مرضاهم. بلدة فرانكلين تقع على مقربة من مكان اختبائنا، بإمكاني الذهاب إلى هناك ومحاولة جلب بعض الأدوية... أو سرقتها.

لن يشتبه أحد في فتى صغير، ولن يخسر أحد شيئا بفقد فتى صغير فشل في الإمساك حتى بباز أحمر. ليتني كنت مكان أي من الرجال الأشداء الذين وافتهم المنية، لكان هو أكثر نفعا مني لهم.

انكسار الفرار من الزحف في العيون، سعال مكتوم لا ينقطع من صدور من اختبأوا تحت مياه نهر الدب بعد المعركة. لابد من فعل شيء.. لابد..

يستمر ذئب ما في العواء والأنين، كأنما يشاركنا ذات العار والألم.

أنزل بهدوء من برجي الخشبي، الرجال والنساء كل منقسم بين عالمين، يجاهد كي يبقى في عالم مألوف.

يفتح أخي عينيه ويبصرني، نظرة خاوية في عينيه دفعتني لمغامرتي غير المحسوبة عواقبها. أبتعد ببطء متدثرًا في ثوبي يزدردني الظلام في نهم. يمر الوقت طويلاً ثقيلاً، يُعزّيني فيه اقتراب وجهتي وعواء ذئب منفرد يُجيبه أنين مكتوم.

أنبطح على وجهي متخفيًا في الثلوج أُشاهد كنيسة فرانكلين المضاءة بمصابيح زيت. أشباح الرائحين والغادين ترمي ظلالها على الحوائط الداخلية البيضاء.

زلاجات تحمل جنودًا جرحى من الكنيسة إلى وجهة غير معلومة. مع الوقت تخفت الضوضاء وتختفي الزلاجات حاملة آخر فوج من الجرحى. أقترب شبه زاحف، ألهث انفعالاً وبردًا. عواء الذئبين يبدو قريبًا إلى حد كبير، ربما من قطيع شمال غرب يلوستون الجبلي.

نساء يرتدين أثوابًا بسيطة طويلة رمادية فوقها مريولة ملطخة بسواد

www.ibtesama.com/vb

وصفار وحَمار سوائل بشرية، وأغطية رأس بيضاء مربوطة من الأمام. يحملن أردية الجنود الممزقة والملوثة ويقمن بحرقها في باحة الكنيسة.

أتأمل وجوههن للحظات في وهج النيران التي أضفت ألقًا على بشرتهن الشاحبة وما تبدّى من شعر رأس بلا لون. سيدة أربعينية تتوسطهن تُثبّت عينيها العسليتين في عينيّ، لقد رأتني!

أختبئ جاثيًا في الثلوج وتتسارع دقات قلبي حتى تكاد تتوقف. أكتم البخار المتصاعد من أنفي وفمي وأرتجف.

لم أسمع صرخات النسوة ولا طلقات نارية من بندقية ما. لم أسمع حتى همهمات تتساءل عما يجب فعله ولا خطوات عادية هنا وهناك، فأتشجع وأرفع رأسي، أنظر مرة أخرى، ماتزال النسوة واقفات، تُلقي السيدة نظراتها في اتجاهي من وقت لآخر كأنها لا تقصد النظر إلى اتجاه محدد.

أوازن بين التقدم أو العودة، يبدو أن المرأة لم تقرر بعد خطري من عدمه. قررت التراجع إلا أن ثلاثة ظلال كلبية خلفي غرست خطاي إلى الأرض. ثلاثة قيوطات جذبتها رائحتي أو رائحة الدماء، أو ربما تطمع في شاة من غنم الكنيسة المتروكة اليوم بلا راعٍ. أتجمد مكاني وأتحاشى النظر إلى أعينها. صوت زمجرتها يتعالى تهديدًا وقد قررت أن رائحة الخوف في جسدي تُسهّل مهاجمتي حتمًا.

ألتفت لأجد الأربعينية تدفع النساء دفعًا لداخل الكنيسة وعيناها معلقتان بي، ويبدو أن النسوة كن يفضلن الاستدفاء في النيران عن العودة للداخل، إلا أنهن انصعن لها.

ومع آخر سيدة تختفي عن عينيّ، أشارت مراقِبتي لي أن أقترب! مشيت جاثيًا خشية إثارة خفيظة القيوطات التي تقترب متحفزة من السور الخشبي المنخفض الذي يحوي داخله الخراف. مسافة قليلة هي حتى وجدت

www.ibtesama.com/vb

نفسي أسفل نافذة أرضية يعلوها وجه السيدة المستدير، ففتحت لي في لهفة وأعانتني على الدخول.

دفء صادم في الداخل، تنقطع عني البرودة وزئير الهواء مع غلقها للنافذة بإحكام. تُربّت على شعري الفاحم، يمنعني حيائي من إطاله النظر إلى وجهها.

تسألني إن كنت أريد ان آكل فأهز رأسي أن لا، أرد عليها بكلمة واحدة "ترياق"، هي أقرب كلمة أعرفها تُعبّر عما أريده.

تسألني إن كان الترياق لي فأنفي ذلك مطرقًا إلى الأرض. تسأل عن أشياء أخرى لا أدري لها جوابًا.. طنين مستمر في عقلي ما بين ترك القيوطات تأكل خرافهم بينما أطلب أنا منهم العون، وما بين إنذارهم ووأد ثأر أصغير يطفئ من لهيب غضبي ونقمتي على نفسي وقومي قبل كل شيء.

تخرج السيدة وتغيب، أمكث جوار النافذة في انتظار غدر لم يأتِ، فأقترب متسللاً من الباب أنظر من فرجة ضيقة.

مايزال بعض الجنود الجرحي يفترشون الأرض، حوالي عشرة ما بين واعٍ وغائب عن دنيانا، يرقد بجانب كل منهم سلاحه، بعضهم مايزال مطبقًا عليه.

أرى السيدة تأتي من بعيد تحمل صحون الحساء إلى الجرحى فأتأمل خدّيها المتوردين بردًا وثغرها المتبسم ممتلئ الشفاه إلى حد لا يتناسب مع دقة ملامحها. تبدو لي الآن أصغر قليلاً من سن الأربعين.

أُغلق الباب وأجلس أرضًا تحت النافذة. أرمق زجاجات دواء مرصوصة في خزانة بلا باب. محاقن كبيرة زجاجية وأدوات معدنية أخرى لا أعرفها.

تفتح الباب وتناولني صحنًا ساخنًا، أضعه جانبًا، تصرع كرامتي

www.ibtesama.com/vb

جوعي، لا أرىٰ في إطراقي أرضًا سوىٰ قدميها الدقيقتين في حذاء أسود.

طلقتان ناريتان من خارج الكنيسة تخرج علىٰ إثرها السيدة مهرولة تاركة الباب مفتوحًا، أرىٰ الجنود يتحفزون ممسكين أسلحتهم لا يقدرون علىٰ القيام من مراقدهم. أصوات عواء القيوطات الرفيع يشي بانكشاف أمرها، إلا أن نظرة نارية ملتهبة من جندي نصف راقد علىٰ الأرض جمدت من حولي الزمن. لحظة بدت كدهر. أكاد أقسم إنني رأيت الرصاصة قادمة من سلاحه تجاهي ببطء تدفعها هالة من لهيب وكراهية. أركل صحن الحساء في قيامي الأهوج وأسرع إلىٰ النافذة خلفي، المقبض عالٍ بالنسبة لطولي، أخرّ أرضًا لا أدري أين اختفت ساقي من تحتي، دفقة دماء ألهبت ما فوق ركبتي أجبرتني علىٰ الانخفاض أكثر والتكوّر حول فخذي المنتهكة من رصاصة حارة. أجزّ علىٰ أسناني وأبصر الوغد يضع رصاصة أخرىٰ في بندقيته من طراز "مَسكيت" ويبحث عن كيس البارود، يحمل الهواء لي سبابًا عن اللص الهندي والقيوطات التي نهشت أثداء الحملان وهربت.

موتي محقق الآن.. لا محالة..

www.ibtesama.com/vb

- ٩ -

برادلي جولدنج

لم يفعل الفتىٰ الواقف تحت الأمطار سوىٰ أن حدّق فينا حوالي خمس عشرة دقيقة ثم قطع رسغه بمطواته، فالتحمت بداية موته مع نهاية تخاريف كوتنوار في نسيج سينمائي لا أُصدّق أنهم لم يتدربوا علىٰ توقيته عشرات المرات من قبل!

اندفع جايكوب خارجًا مستظلاً بمعطفه بينما خرج كوتنوار متمهلاً يجرّ ساقًا خلف الأخرىٰ، حتىٰ جلس في الماء يُمسّد جبين الفتىٰ كأن ما أصابه مجرد حمىٰ.

أخرجت هاتفي وحاولت التقاط شبكة وأنا أسبّ في سرّي، ما هذا الجنون؟!

ـ بمن أتصل؟ هه؟!

صاح جايكوب وقد هربت الألوان من ملامحه وصار كشمع خام:

ـ حصن واشاكي.. ٩١١.. أليس كذلك يا سيد كوتنوار؟

www.ibtesama.com/vb

ـ بلىٰ.. بلىٰ..

يمسد جبينه ويرسم صليبًا بإبهامه عليه، ثم يقترب من أذن الفتىٰ ويهمس..

صنع جايكوب رباطًا ضاغطًا من حزام الكاميرا ثم حاول سد الجرح الغائر بتكويره لسترته فوقه.

من داخل الورشة اندفع بيكوورث وشاب آخر يلفّان حول نفسيهما، جرىٰ الثاني ناحية الكنيسة وخطف الأول الهاتف من يدي الحيرىٰ وطلب رقمًا ما ثم تحدث لدقائق.

ـ الشرطة قادمة، سيارة الإسعاف معطلة منذ البارحة.. تبًا!

ـ معطلة؟! ألا توجد سيارة أخرىٰ ننقله فيها إلىٰ أقرب طوارئ؟

ـ معطلة.. نعم يا سيدي.. إن كنت تتحدث عن مستشفىٰ من طابق واحد في مبنىٰ الجامعة تعالج ما يسمونه أمراض السكان الأصليين للولايات فلك أن تتوقع مستوىٰ الخدمات. نحن أقل من الحيوانات درجة أو اثنتين.. لابد أن ننتظر المأمور، فهو الأقدر علىٰ إدخالنا أي مشفىٰ دون أن يطلبوا منا إفادة من الشرطة بكونها حادثة انتحار لا اعتداء.. لا بد وأنك تعيش في كوكب آخر.

حسنًا، ما كان لي أن أتبادل كلمة مع هؤلاء البشر، أين يعيشون هم بحق السماء! مستعمرة كأنها محمية طبيعية لحيوانات شارفت علىٰ الانقراض! ما الذي يمنعهم من الاختلاط بالمجتمع بدلاً من العزلة والشكوىٰ من سوء الخدمات؟!

ما يمنعهم يا عزيزي هو الاعتداد بالنفس.. سحقًا له!

لم يظهر أشخاص آخرون، ربما لسوء الحالة الجوية، وربما لعدم وجود

www.ibtesama.com/vb

منشآت مأهولة على امتداد ميلين على الأقل سوى ورشة بيكوورث وورشة الهندي الآخر المغلقة، وبالطبع الكنيسة ومنزل كوتنوار.

وجدت أنني مرغم على الاقتراب من الثلاثة المتحلقين حول الفتى المضرج بدمائه. يجيب كوتنوار على سؤال سأله جايكوب ولم أسمعه:

ـ قطرات الماء قد تحفر أقسى الصخور.. لا أحد يلحظ القطرات أبدا، إلا أن الجميع يفجعون لمرأى حجر ينشق من تلقاء ذاته..

ـ كم تبعد النجدة من هنا؟

ـ خمس عشرة دقيقة.. لكن الأرض الزلقة اليوم قد تتطلب حوالي ثلاثين دقيقة..

يهمس فتى البيرة مبحوح الصوت في أمنية غريبة أخيرة:

ـ وعدتني أن تُكمل لي حكاية يبدو أنك لا تنتوي إنهاءها.. أو ربما لم تكن تعرف لها تكملة.. سامحني يا سيد كوتنوار، أنت لا تعرف حقًا من أنت كي تخبرني من أنا!

أغمض كوتنوار عينيه وأطرق فيما بدا لي ندمًا أو ألمًا، تعبيرات وجه الرجل تُحيّرني كثيرًا، فهي دومًا مزيج فريد من عدة مشاعر، ما بين ظاهر يودّ إخفاءه، وباطن تشي به عيناه.

ـ بعد كل تلك الأعوام بالفعل لا أستطيع أن أجزم من أنا، لكنني كنت آمل أن تمهلني، فلربما عرفتَ أنت من حكايتي من تكونَ ومن أكونُ أنا.

www.ibtesama.com/vb

- ١٠ -
ذئب

تجمعت زمرة ذئاب بيضاء حولنا، ذئب وحيد يطبب ذئبًا جريحًا لا مكان له بين الذئاب. أعرف سُنّة حياتنا، وأعرف أن ذئبًا جريحًا أو مريضًا هو ببساطة عالّة على أي قطيع ولابد من الخلاص منه أو تركه يموت..

لم يلتف الذئاب حولنا لمهاجمة أبي الجريح، إنما لأنني فقط قد تعديتُ حدود منطقتهم، ولم أُعلن عن نفسي أو نواياي بشكل لائق. الذئب القائد في المجموعة يقترب مني متحفزًا، نافشًا فراء عنقه، عيناه تحدقان في عينيّ، أذناه منتصبتان موجهتان للأمام وذيله مرفوع معقوف نحو ظهره. أبي كان الذئب القائد في مجموعتنا ولا يزال يفكر كذئب قائد. رائحته تحفز ذئاب القطيع الأبيض، ونظرته الثاقبة تعلو زمجرة قوية من فك اعتاد الفتك بلا رحمة.

رغم جرحه حاول الوقوف وعرض حجمه الضخم، يظن أنه مايزال قادرًا على التحدي. والتحدي معناه معركة غير متكافئة على أرض غريبة. لست جبانًا ولا أخشى الموت خشية البشر له، موتنا هو توازن للحياة،

www.ibtesama.com/vb

وحياتنا كذلك توازن. والحفاظ على الأنفاس في الصدور لآخر فرصة هو اعتزاز لذلك التوازن الذي خُلق الجميع من أجله.

أحاول تهدئة الذئب الأبيض المسيطر، أخفض جسدي وأدلي بذيلي بين فخذي.. أُقوّس ظهري وأرفع خطمي نحوه..

خضوع كامل..

عار لم أختره..

يلتفت إليّ أبي ويُزمجر، يُطبق فكّيه على عنقي ويُطوّحني برفق، بإحساس الهوان، بعيدًا عن الزمرة الهائجة. أفيق من ارتطامي بفوّهة أرضية حارة وأقف على أربع، لأجد الذئب الأبيض المسيطر يهاجم عنق أبي والآخرون من حوله ينتظرون أمرًا بالتمزيق.

صوت نيران أسلحة أبناء البشر من بعيد وصراخ يتعالى، عواء مذعور لقيوطين أو ثلاثة.. يجثم الذئب المسيطر بقائمتيه الأماميتين على كتفي أبي ويجبره على الخضوع، أبي فراء خالٍ منهك يجاهد كي يلتقط شهيقًا من كرامة.

زال خطر أبي بالنسبة للقطيع الأبيض وجاء دوري، خضوعي السابق لم يُقنع الذئب المسيطر. ارتفع بقائمتيه يعتلي كتفيّ. أنخفض أكثر.. أستلقي على ظهري وأكشف عنقي وكبريائي الجريحين له.. أنين خاضع يُخفي تمزق قلبي من وطأة الاستسلام.

يعوي المسيطر فيعوي الجميع خلفه.. يتراجع عن جسدي فأقوم محني الرأس، خفيض الذيل منكسره..

يحتك بجسدي أفراد القطيع لوقت طال كأنه الدهر، مضفين على فرائي رائحتهم المميزة. اليوم أنسلخ عن جسد حياتي السابقة وتُصفّى من عروقي دماء أبي المهدرة.

www.ibtesama.com/vb

أسير معهم في أرض لم أطأها من قبل، أخشى الالتفات إلى الوراء خزيًا. ياليته يموت فلا يلقى ذلك الذي اعتاد حياة الافتراس، مصير طريدة ضعيفة وحيدة وسط الثلوج.

لم يبدُ القطيع في حاجة للصيد فهم يحمون ما تبقى من ثور عملاق، لذا يتسكعون حوله بلا هدف. بعضهم ينام وبعضهم يقف حارسًا للحمى، يعوون عواءً مختلف النبرات، يوحون للسامع بعدد أكبر من عددهم الحقيقي حماية لحوزهم وصيدهم.

مستلقيًا لا أدري ما تحمله لي إشراقة أخي الشمس الجديدة، ترتفع أذني مستشعرة جوادين يقتربان. يبدأ القطيع في التحفز لوهلة، ثم لا يلبثوا أن يعودوا إلى ما كان كلٌ منهم يفعله.

رائحة بشري يقترب، يبدو من ردة فعل القطيع تجاهه أنه مألوف هنا، لا ينفث حوله رائحة العداء والمكر.

يمر في سرعة خاطفة من أمامنا، رجل أسود اللون يرتدي فراء الوعل البني وعلى رأسه فراء سنجاب مخطط، يسحب وراءه جوادًا آخر بلا راكب يحمل مؤنه وعتاده. رجل جبال آخر، جوَّال.. صيّاد.. محارب.. أو كل هذا في جسد واحد، لا يهم.

لا نحمل ذاكرة خاصة تجاه بشر بعينهم مثل الكلاب، يبدو لنا دائمًا الشخص جديدًا بنوايا جديدة في كل مرة. لكننا نتعرف على من إرتبط مصيره بمصائرنا بشكل لا أعرف وصفًا له.. فقط يقودني قلبي وأتبعه.

وأرجو ألا أضلّ، فقد أعتمت حياتي وهجرها الضياء..

www.ibtesama.com/vb

- ١١ -

ليو كوتنوار

مرت الطلقة الثانية بجوار كتفي لتنغرس في الجدار خلفي. أتعثر في لزوجة دمائي التي تُغرق الأرضية تحتي فلا أستطيع حتىٰ الوقوف والتشبث بإفريز النافذة لأحاول فتحها من جديد.

تطل فتاة أخرىٰ شقراء من فرجة الباب وتتسع عيناها عن آخرهما صارخة، ثم تجري مختفية عن عينيّ الغائمتين ألمًا. تمرّ الثواني كدهر، أستعيد فيها رائحة البارود والحريق الذي أسال الثلوج أنهارًا مدممة في معسكرنا.

تعود السيدة ذات الوجه المستدير فزعة، اختفىٰ اللون من وجهها ومن شفتيها الممتلئتين منسكبًا في دمي المهدر علىٰ الأرض. أعرف الآن من كلمات الفتاة المذعورة أن منقذتي تُدعىٰ ماري آن، بينما الأولىٰ إيزابيللا. لها عينا ثعلب، ضيقتان، مسحوبتان بميل إلىٰ أعلىٰ.

جدال طويل دار بينهما في همس متوتر، تتعلّق عينا ماري آن بالزجاج من خلفي فترتبك وتفقد منطق كلامها مما يُظهر انتصارًا لئيمًا علىٰ وجه إيزابيللا.

www.ibtesama.com/vb

صهيل حصانين يأتي من صوب النافذة، يبدو وكأنهما سيُهشّمان الزجاج خلفي. تدفع ماري آن إيزابيللا خارج الغرفة بينما تعقد الأخيرة حاجبيها عند وقوع نظرها على ما تبدّى من خلف الزجاج. ماذا يدور بالخارج؟

تُسارع ماري آن بفتح النافذة وحملي مع انزلاق قدميها الصغيرتين في دمائي. كفان أسودان يلتفّان حول صدري ويسحباني للخارج.. دوار أسمع فيه صوتها العزيز الباكي "إنه مجرد طفل بحق الله!

صهيل والمزيد من الطلقات.. ثلاثة قيوطات قتيلة يحملها الرجال ويصرخون فيّ بغضب..

ثم انقطعت عني الدنيا..

www.ibtesama.com/vb

- ١٢ -
ذئب

الابتعاد عن القطيع متاح للجميع إذا لم ينوِ المبتعد الصيد أو الإغارة على قطيع آخر، أكره البقاء مع قتلة أبي حتى وإن كانت الريح تحمل رائحتهم إلى أنفي، تلك الرائحة التي أمست رائحتي أنا نفسي من يومها فصاعدًا.

ثلاثة إشراقات لأخي الشمس ومازال الفتى الهندي راقدًا، مربوط الساق. مازال صراخه المكتوم ورجل الجبال يكوي جرحه في أذناي. صرخة ذئب من حلق بشري.

أراقب من خلف الأشجار، يبدو أن رجل الجبال لا ينام.. يغلي حبات خضراء نافذة الرائحة ويحشو الطِباق في أداة خشبية خاصة. ما أثار حيرتي هو كلامه المتواصل مع من ليس له وجود، كأنّ أحدهم يُثير حفيظته ويجعله يغلي ويركل في عصبية ثم يجلس في وهن يحتضن ساقيه للحظات. ثم يعود لطبيعته فجأة كما بدأ.

لمحني اليوم فتحاشى النظر إلى عينيّ مباشرة لكنّه ثبّت اتجاه رأسه

www.ibtesama.com/vb

نحوي. هذا بشري يعرف كيف يتعامل مع ذئب كذئب مثله. اقتطع بسكينه قطعة لحم من رَحلِه ألقاها لي فلم أقربها. مايزال تراثي العامر من الذكريات يُحذّرني من أكل اللحوم التي لم أصطدها بنفسي، فقد تكون مسممة، خاصة وإن كانت من يد بشري.

أقترب أكثر من الفتىٰ وأعرف أنه يحلم بي الآن. في الأحلام والموت نتلاقىٰ، روحان في مملكة أمنا الأرض.

انهض يا ابن العم نانابوتزهو، ابن تشيبيابوس[1] *قد وجدك في أرضه وأنت بعد لم تتمّ مهمتك في عالم المحسوس.. انهض يا ابن العم نانابوتزهو واضرب جذورك في الأرض، منها تنبت ومن مائها تتكاثر ومن هواء أرض الصخور الصفراء تتنشَّق أنفاس إخوتك في هذا العالم وفي العالم الآخر العظيم..*

يُكرّر رجل الجبال "ماري آن.. ماري آن" بصوته الأجش في رتابة، كأنه يُذكّر نفسه بشيء لا يريد نسيانه. يقترب من الفتىٰ النائم فأتراجع أنا خطوات آمنة إلىٰ ما خلف الجذع المكسو بالطحلب الأخضر. يُقرّب سائلاً حارًا من شفتي الصبي فيستيقظ الأخير فزعًا، ساكبًا السائل علىٰ صدره. يتلفت حوله كأنما يبحث عن شيء، تلتقي أعيننا فيمسك رجل الجبال بفك الصبي قاطعًا تواصلاً بيننا.

ـ لا تنظر للذئب في عينيه أبدًا.. احترم تواجد أخيك حتىٰ وإن كُتِبَ أن يكون طريدتك يومًا.

ثم التفت ليجدني ألعق ساق الفتىٰ الجريحة وأتذوّق فيها كبرياء مسفوك الدماء..

---

(١) الذئب أبو الذئاب وأخو نانبوتزهو أبو البشر.

www.ibtesama.com/vb

- ١٣ -

برادلي جولدنج

متدحرجًا ككرة جبن منزلية الصنع، خرج مأمور حصن واشاكي من سيارة الشرطة الشفروليه المطبوع على جانبها رسم لدب عملاق يقف على أربع! يبدو لي رمزًا غريبًا تحمله شارة الشرطة. ذئاب تتكلم وقيوطات ودببة وقنادس.. لقد أوشك اليوم على التحوّل لفصل من فصول رواية البوصلة الذهبية[1]. لم يبد مهتماً كثيرًا بالأمطار، اجتاز الياردات القليلة إلى منزل كوتنوار في تثاقل وطفق يتأمّل الفتى الممدد في الصالة الضيقة ويهز رأسه في أسى..

ـ لطالما كان كارثة تنتظر الحدوث هذا الفتى.. خيرًا فعلتم بربطكم ذراعه.. خيرًا فعلتم.

لم يبد عليه نيّة فعل شيء آخر سوى الإطراء على فعلتنا، سأله جايكوب

---

(١) رواية البوصلة الذهبية Golden compass تأليف فيليب بولمان، واسمها الأصلي Northern lights، صدرت عام ١٩٩٥ في إنجلترا، وشاع اسم البوصلة الذهبية في أميركا الشمالية وامتدّ منها إلى العالم.

www.ibtesama.com/vb

ما العمل الآن فأعرب أن فرص الفتىٰ في النجاة في المشفىٰ هي ذاتها إذا حاولنا إسعافه هنا!

صوت خطوات ولهاث يقترب خلف أستار الماء المسدلة من السماء، قس شاب حليق الرأس يُهرول تحت مظلة الشاب الآخر الذي كان مع بيكوورث. دخل القس ونظر في فزع إلىٰ الذراع الدامية المزرقّة من أثر ضغط حزام الكاميرا عليها. ركع علىٰ ركبتيه إلىٰ جواره وتلا صلاة بصوت خافت وطلب من الفتىٰ الاعتراف حتىٰ يتمكن من إنقاذ روحه، ثم نظر لنا نظرة صامتة كي نخرج ونتركهما وحدهما. لم أحتمل كل هذا الجو الدراماتيكي، من قال إن الفتىٰ سيموت؟ من قال بوجوب موته أصلاً!

ـ فلنتعقل.. الوقت المهدر في الاعتراف هو ذاته الوقت الذي ربما نستغرقه للوصول إلىٰ المشفىٰ في سيارة المأمور!

ـ "الوقت الذي نهدره في الاعتراف؟!"رد بيكوورث مستنكرًا "نحن نتحدث عن إنقاذ روحه وما يهمك هو إنقاذ جسده فقط؟!

قام كوتنوار وفتح ذراعيه مشيرًا للجميع بالخروج، وهتف:

ـ فلنفعل كلاهما معًا، يركب الأب أنطوان مع الفتىٰ في سيارة المأمور وأنا معهم، إن خرج الأمر عن أيدينا ووجب علىٰ الفتىٰ الاعتراف توقفنا بالسيارة ونزلنا منها وتركناه مع الأب، يمكننا أن نجد سيارة أخرىٰ تُقلّ من أراد الذهاب.

ـ لكن مازلت أظن أن الحال في المشفىٰ القريب لن يكون أفضل من هنا.. فلنحاول كيّ الجرح بالـ....

لا أكترث كثيرًا بإنقاذ الفتىٰ من عدمه، فاللاشيء المنتظر خلف ستار الموت أفضل من الحياة مع تلك الكائنات. تلكؤ لا أدرىٰ مفاده، كان

www.ibtesama.com/vb

بإمكانهم نقل الفتىٰ لأقرب وحدة طوارئ وملاقاة المأمور هناك بدلاً من الانتظار كل هذا الوقت. ميول انتحارية لديهم تُعزّز إحساسهم بالاستشهاد وأنهم هم المظلومون في الأرض. أكره التخاذل والغباء، وكرهي هو ما دفعني إلىٰ الصياح..

ـ فلنذهب، وإن لم نجد من المشفىٰ فائدة أعدكم أن أقتله بنفسي.. هيا!

مال جايكوب علىٰ أذني وفي كلامه نبرة تهكم:

ـ فلنذهب؟ نذهب؟ أراك بدأت في التعاطف معهم فعليًا.. هيا لا تخجل، قلها، هم يستحقّون تعاطفًا منا..

ـ كفىٰ سخفًا، أنا ذاهب معكم لأنني لن أبقىٰ وحدي هنا مع أولئك المجرمين بلا سيارة ولا وسيلة دفاع.. حتىٰ رجل شرطتهم معهم!

لا لا.. لم يكن تعاطفًا.. ولا فضولاً لحكاية كوتنوار الخبيثة، ولا توقًا لمعرفة ما وراء فتىٰ البيرة الذي توقّع الجميع انتحاره.. لقد ابتعدت عن ذكريات ثيران البيسون إلىٰ الأبد ولن يرغمني أحد علىٰ إعادة النظر فيها.. أبدًا!

www.ibtesama.com/vb

-١٤-

ليو كوتنوار

هكذا استمر الوضع لمدة أسبوعين مع صديقي الأسود تشارليز كرو- المنتسب اسمًا إلى قبيلة الغراب- بعد أن يئست تمامًا من أن أجد ما تبقى من قبيلتي..

يبدو أن تشارلي -هكذا طلب مني أن أدعوه- يعرف ماري آن بشكل ما، وقد ساعدتني على الهرب معه. لا أعرف ماذا حل بها بعد ذلك، ولم يخبرني تشارلي ما صلته بها، لكنه قد أدى واجبه نحوي على أكمل وجه، فقد داوى جرح ساقي ووضعها في جبيرة من قطعتي خشب في محاولة منه لتقويم كسر نتج عن الطلقة. بحث معي عن أثر قبيلتي حول نهر الدب فلم يجد إلا ما يشي بمعركة دامية أخرى أظل أحمل أنا وزرها على رأسي. وجودي في الكنيسة ربما أثار حفيظة ما تبقى من جيش الرجل الأبيض فمشطوا المنطقة ووجدوا مخبأهم وأبادوهم.

اعتزلتُ الطعام والشراب لعدة أيام حتى غبت عن الوعي فكان تشارلي

www.ibtesama.com/vb

يطعمني ويسقيني قسرًا.. يتركني في كوخه الخشبي الصغير ويختفي كل ليلة بضع ساعات ثم يعود مكسورًا. يجلس القرفصاء لدقائق يُهمهم فيها باسم ماري آن ويتوعد ويسبّ.. أحيانًا بالإنجليزية وأحيانًا بلغة سيوان التي نتشاركها مع قبائل الغراب.

ما حثّني على البقاء والمقاومة شيئان، أولهما الباز الأحمر المحلّق فوق رأسي أينما حللت، وثانيهما الذئب ذهبي اللون في قطيع الذئاب البيضاء الشمالية. أراه في أحلامي، صامتًا، يلعق جرحي. يدور بيننا صمت هو أبلغ من أي كلمات.

صديقي تشارلي هو ذاته الرجل الأسود الذي يطلي وجهه بالأحمر ويتظاهر بكونه هنديًا، والذي رأيته ورآني يوم السوق.

فكرت كثيرًا عما يجب أن أفعله بنفسي، فلن أظل عالة على الرجل طيلة حياتي. أخشى أن أطلب الصيد معه. فشاب أعرج ضعيف البنية هو آخر ما يتوقعه رجل في شدّة تشارلي كرفيق له في الصيد.

أمضيت أيامًا لا تُحصى أتذكّر أخي رأس القندس، أتذكّر كل كلمة قالها، ضحكته البكماء ونظرة عينيه الخاوية لي قبل أن أفارقه.

جاء الفرج من حيث لم أتوقع، وإن كنت لا أعلم أكان فرجًا أم عسرًا. دخل عليّ تشارلي الكوخ واجمًا وأخبرني أن رجال قبيلة الغراب يعرفون مكان أخي، فهم يذكرون ما حدث يوم السوق ويعرفون رأس القندس.

ـ ليو.. هل أنت واثق من أنك تُريد أن تذهب إليه؟

سؤال تشارلي وتلك النظرة في عينيه أنبآني بأن فعلتي الحمقاء أتت على ما تبقى من أمل في أن أستعيد الثقة في ذاتي الكريهة مرة أخرى.. رأس القندس على قيد الحياة لكنه لم يفقد أسنانه فقط، بل فقد كل ما كانه من قبل.. فقد عقله....

www.ibtesama.com/vb

- ١٥ -

برادلي جولدنج

بدا لي أن الفتىٰ سيركل الدلو قريبًا[1]، فقد توقّف المأمورعلىٰ جانب الطريق الزلق، فحذىٰ سائقنا بيكوورث حذوه. مازالت الأمطار تنهمر بنفس المعدل كأنهم قد نسوا غلق الصنبور في الأعلىٰ.

أخرج كوتنوار جسده من المقعد الخلفي منحنيًا محاذرًا ألا يُسقط ذراع الفتىٰ المرفوعة إلىٰ أعلىٰ في محاولة لتقليل النزف، استلم القس الذراع منه وركب في المقعد الخلفي مكانه. عبر كوتنوار والمأمور الطريق إلينا كي يتركا الفتىٰ والقس في عزلة الاعتراف.

أغلق جايكوب مذكرات كوتنوار واضعًا إبهامه في المكان الذي توقف فيه عن القراءة لنا.. فقد فَقَد رأس القندس عقله، وفتىٰ هنا يفقد حياته.

دمعة مالحة نبتت من عين كوتنوار الضيقة اختلطت بالذخات الباردة العذبة. اندسّ في المقعد الخلفي بجانبي يجاوره المأمور البدين.

---

(١) تعبير أمريكي معناه "سوف يموت قريبًا".

www.ibtesama.com/vb

ـ لم أكمل له الحكاية بعد.. أتمنى أن يعرف الحقيقة حينها، فلم أزعم قط أنني أملكها.

يواسي جايكوب الرجل العجوز، فينخرط بيكوورث في عواء صادق بلا دموع. يبدو الفتى غاليًا عندهم.

أسترِق النظر إلى الشيفروليه ذات نقش الدب لأجد القس منحنيًا على الفتى لا يبدو منه سوى كتفاه.. لابد وأن الفتى يعترف الآن.

غمغم كوتنوار بصوت حزين مرتجف فلم يجرؤ أحد على مقاطعته..

ـ في السابعة عشرة هو، يبدو أصغر من ذلك.. في قلبه الفتيّ نما حب الحياة البيضاء على الجانب الآخر من الولايات.. أذكر منذ ستة عشر عاما جاءني بيكوورث حاملاً طفلاً رضيعًا وقال لي إنه قرر تبنيه. أمه فتاة فقيرة يعرفها من قبائل الأراباهو الذين يعيشون معنا في ذات المستعمرة. الفتاة طموحة جدًا، تعمل في ريفرتون ساقية في كازينو شوشوني روز. تبرأت منها قبيلتها لشبهتهم في سمعتها.

تعدى الوضع سوء السمعة، فقد عرفنا بعد ذلك أن الفتاة تبيع أطفالها من البغاء للمقتدرين، وأحيانًا تُمارس تلك العلاقة مع رجل متزوج وتلد لزوجته طفلاً مقابل مال. القذرون أصحاب الأموال يُفضّلون دومًا الفتيات الملونات، فهن الأرخص ثمنًا والأسهل في الضغط على طموحهن غير المحمود.

لم تعطِ الفتاة الطفل لبيكوورث، أبوه الذي اشتراه أعاده إلى الحانة حيث تعرَّف بأمه. فقد تُوفيت زوجته وما عاد في حاجة إلى عبء إضافي. الفتاة نفسها هجرت عملها في الحانة إلى مكان غير معلوم. كان بيكوورث هناك وقرر أن يحتفظ بالطفل، فقد كان في قلبه شيء تجاه أمه، منعه من طلب يدها نظرتها المتعالية لأبناء قومها.

www.ibtesama.com/vb

صمت كوتنوار وربت على كتف بيكوورث الذي كفّ عن عويله. من بين أنفاس متقطعة أكمل الأخير القصة الحزينة..

ـ انتهيت من الإجراءات المعقدة لتبنيه ثم أدخلته المدرسة المحلية، و قد كان هو الدنيا بالنسبة لي. حتى فوجئت بعودة أمه للسؤال عن عمل في الحانة! مرتدية ملابس فاخرة بلا حقيبة ولا متاع، يبدو أن أحدهم طردها من جنته البيضاء. أخذتها منزلي وتحملت كلمات كالسياط من الجيرة. تحملت طلباتها وعصبيتها وهروبها المتكرر من المنزل والعودة إليه في حال أسوأ في كل مرة. كانت تدفع من جسدها ثمن البقاء لدقائق أخرى في عالم البيض، عالم يلفظها كقطعة لادن زال طعمها حتى أمست مطاطا مرًا..

عندما بلغ الولد الثانية عشرة، لم أجده ولم أجدها.. قلبت الولاية رأسًا على عقب فلم أجد لهما أثرًا..

استلم خيط القصة المأمور بصوته العالي الأجش ورائحة الدخان النفّاذه تفوح من كلماته..

ـ لم أكن المأمور وقتها بالطبع، لكن معرفتي بكوتنوار وبيكوورث جعلاني الموكل بإبلاغهما الخبر.. لقد وجدنا الصبي ضمن بلاغ عن استغلال الأطفال جنسيًا. لقد باعته أمه مرة أخرى! عاد الولد مراهقًا منكسرًا، مشوهًا.. لا يكفّ عن مشاهدة المسلسلات والأفلام ولا يُعلّق إلا على ما شاهده من حياة البيض.. لقد كانوا يرتدون كذا، لقد كانوا ينامون على كذا.. كأنما تسلّل عفن أمه إلى قلبه..

لم يمكث شهورًا معنا حتى هرب، يفعل أي شيء مقابل أن يخرج من أسوار المستعمرة وينسلخ عن جلده. كنت أتبعه أو يتبعه زملائي ويعيدونه دون شوشرة، وفي كل مرة يهرب..

لم يفهم أبدًا أي معنى للانتماء، فقد كان يطمح فقط لتغيير الذات

www.ibtesama.com/vb

لا تحقيقها.. كل شيء حوله يُشوّش على تفكيره.. بالفعل لا أحد يحيا على هذه الأرض سوى البيض. ولا يسمحون لأحد غيرهم بالاختلاط بهم إلا كما تختلط الحيوانات الأليفة بالبشر..

سدد لي المأمور نظرة جانبية ذات معنى، إلا أن جايكوب عاجله برده بدلاً مني..

ـ سيدي، أتفهم تمامًا ما حدث للفتى وما يحدث لكم يوميًا، لكنه ليس خطأنا وحدنا، فنحن البيض -كما تسموننا- قد أعطينا حرية الوصول لأي منصب لكل مواطني الولايات، وإعطاؤنا لهم هذا الحق ليس لأننا من نملكه، لكن القوة الفعلية كانت هي من جعلنا أحق بإدارة هذه البلاد.. إدارة وليس امتلاك.. كل ما توصلنا إليه هو بمعونة منكم، سواء كانت معونة إيجابية، أو اعذرني.. معونة سلبية كما حدث في قصتكم. أنتم من تركتم لأجدادنا الإدارة. اسمح لي ياسيدي، فتاريخ المواطنين الأصليين مليء بمواقف متخاذلة، أو ربما أقول مواقف سلمية بشكل زائد.. ما الذي دفع قبائل الشوشوني والغراب إلى هجر مواطنهم أمام الزحف الأوروبي؟ لِمَ توقّف تطوير أسلحتكم إلى مجرد أسلحة بدائية للصيد؟ مئات الأعوام قد مرت منذ قدوم الأوروبيين إلى أراضيكم فلِمَ يحاول السيد كوتنوار في مذكراته أن يقنعنا أنكم فوجئتم بالبيض على رؤوسكم!

ـ أنا لا أحاول أن أقنع أحدًا بشيء، هذه مذكراتي الخاصة يا فتى!

ـ فلترد يا سيد جولدينج.. أريد سماع رأيك أنت تحديدًا في هذا الذي يدّعيه!

انتفخت أوداج المأمور واستعدّ لتكييل الكلمات لجايكوب ولي، إلا أن صوت القس يهتف بنا أجبر الجميع على الالتفات إليه..

ـ الفتى لا يريد الاعتراف.. كل ما قاله لي هو رغبته في استكمال حديث

www.ibtesama.com/vb

السيد كوتنوار.. ربما لو تحركنا أسرع، خصوصًا وأن الأمطار قد خفّت، ربما استطعنا إنقاذه.

عاد كوتنوار والمأمور إلى سيارة الثاني وتحرك موكبنا الصغير، يرافقنا جو مشحون، يزداد كلما تكرر صوت دوران العجلات الرتيب على الأرض المبتلة.. وصوت كوتنوار يطلّ من خلف قراءة جايكوب الخفيضة للمذكرات..

www.ibtesama.com/vb

- ١٦ -
ذئب

ساد الهرج قوم الغراب، فالبعض يجري صوب السياج الخشبي يغلقه، والبعض يتحضر لاستخدام أسلحته وسهامه. وقف أخي ليو وصديقه رجل الجبال وسطهم لا يدرون ما الواجب فعله ولا ما نوع الخطر القادم. فقط ألقىٰ رجل الجبال ببلطة توماهوك وسكين السلخ لأخي ليو بينما حمل هو سلاحه الناري متأهبًا.

حتىٰ من المسافة الآمنة التي تُبعدني عنهم، أسمع صوت الدببة الغاضبة تقترب. لا تُعتبر الدببة عدوًا مباشرًا لإخوتي البشر، إلا أن قوم الغراب قد استوطنوا مجرىٰ نهر الصخر الأصفر[١] هربًا من جنود الأبيض الذين يحتلون كل الأراضي الصالحة لحياتهم، لكن النهر هو مطعم الدببة من الأسماك وموردها الذي خصصه لها الخالق، الذي يخلق بالمشيئة[٢]. لا تقدر الدببة الضخمة علىٰ درء الخطر عن صغارها كما تفعل الدببة السوداء بالهرب فوق

---

(١) Yellowstone river.

(٢) The creator who creates by will- the creator who creates by thinking
بحسب عقيدة السكان الأصليين للولايات المتحدة قبل دخول المسيحية.

www.ibtesama.com/vb

الأشجار، حجمها الضخم يمنعها، فلا تجد لها مفرًا سوى مهاجمة البشر لإبعادهم لا لقتلهم.

يقتل أبناء الأرض منا لدرء خطر الموت عنهم، بخلاف أبناء نانابوزهو فيقتلون لأي سبب، ولكل سبب.

صوت أسلحتهم باصقات اللهب أبعدت الدببة خوفًا، لكنهم لن يأمنوا أبدًا في هذا المكان. تتلاقى عيناي وعينا الدبة الأم، فتتحاشى النظرة وأتحاشاها. فلا مسبب الآن لعداوة لا تنبغي.

بدا لي زعيمهم شابا قويًا، لكنه بلا خبرة. والتوتر يفوح من رائحته المحمولة على أكتاف الريح لي. يُبصر أخي ليو وصديقه واقفين فيهز رأسه لهم ويدخل مسرعًا إلى خيمته.

تسير مصائر ثلاثتنا -أنا وليو ورجل الجبل- جنبًا إلى جنب، ولسوف يحتاجونني وأحتاجهم.

أسمع عواء قطيعي يبحثون عني، يُذكّرونني بحملي الثقيل، هجري لهم وانضمامي لغيرهم سيجلب الوبال على من سأنضم إليهم، وعودتي لما كنته كذئب متفرد يزيد من خطر مقتلي قبل أن أُتمّ ما خُلقت لأجله. مجبر أنا على الانضمام إليهم في صيدهم وإلا سيستشعرون غدرًا أكاد أخفيه..

www.ibtesama.com/vb

- ١٧ -
ليو كوتنوار

انتظرنا في شمس الشتاء الدافئة خارج التيبي[١] الخاص بالزعيم (المندفع)، زعيم قبيلة الغراب. تتسرب الأدخنة البيضاء من القمة المخروطية المفتوحة للخيمة وتتحد في رؤيتي بسحب السماء القطنية، متخذة أشكالاً أقرب للخيول الحرة من قيود الماضي وعواقب المستقبل.

تمت ضيافتنا كما يجب حتىٰ مع حالة الهرج العامة التي كانت تسود القبيلة، فهمنا من الرجال قضية هجوم الدببة المتكرر في غير أوانه، فأوائل الربيع فترة غير مألوفة لخروج الدببة الرمادية من بياتها الشتوي. والآن هي تُغير علىٰ ما يرعونه من أبقار وخراف.

ـ ارتحلنا خلال هذا العام فقط أكثر من سبع مرات بسبب دفع ميلشيات الجنرال كونور لنا. لن يهدأوا حتىٰ يُبيدونا تمامًا. لقد أُنهكت القبيلة ولا نقدر علىٰ المقاومة خصوصًا مع الشتاء القارص وقلة الموارد. الأوروبيون

---

(١) التيبي Tipi هي خيمة مخروطية الشكل من جلد الإلك أو الأيائل، تقطنها قبائل الغراب وجذورها وفروعها. تُستخدم تلك الخيمة حتىٰ اليوم في الاحتفالات والتجمعات.

www.ibtesama.com/vb

يُضيّقون علينا في سوق الفراء ولا يسمحون لنا بشراء الأسلحة..

ـ سأفعل ما أقدر عليه يا صديقي لجلب أسلحة لكم، تعلم أن التعامل مع الزنوج قاسٍ أيضًا، فأضطر لبيع جلودي بنصف ثمنها، لكن على الأقل لي طرق في تبادل الفراء بالأسلحة.. أدعو الرب أن يوفّقني لشيء أقدر على مساعدتكم به أيها القوم الكرام.

خرج لنا الزعيم في كامل هيئته، شعره الممتد حتى الأرض مضفر في ريش مصطف على جانبي انسدال الشلال الأسود.. وعلى صدره تتدلى ضفيرتين مجدولتين مع الخرز أنبوبي الشكل، يلتف جسده بفراء البيسون المقلوب وفي قدميه حذاء موكاسين بديع الصنع يحمل زخرفة زهرتين زرقاوين على ضفة نهر.

شعره الأسود المدهَّن بدهن الدببة يتألق في نور الشمس. بدا لي في عامه الأربعين على الأكثر، وهو الزعيم بعد وفاة والده في الحرب الأخيرة كما عرفت من تشارلي. هو بالمثل يتفحصني متيحًا لنفسه وقتًا يستحضر فيه كلمات ثقيلات الوطء يود الخلاص منها.

ـ أخوك رأس القندس عندنا.. هممنا بدفنه أثناء مرورنا على نهر الدب مع من تبقى من.. من القبيلة. لكن أحد الرجال وجد جسده طريًا دافئًا عن الباقين وتأكدنا من كونه حيًا. نحن نعرفه من لقاءاتنا في الأسواق ونذكر أباكما.. كان محاربًا مخلصًا. لقد قام الشامان[1] بكل ما يعرفه ليعيده إلى وعيه، وقد عاد فعلاً، لكن نوبات شروده تطول في أحيان كثيرة حتى إن معظم ما يقوله لا يتعدى كونه قصصًا من تراث الأجداد. قم معي..

---

(١) الشامان أو الكاهن هو الرجل المختص بعلاج المرضى، إما عن طريق الاعشاب الطبية أو حمامات البخار المغلقة أو عن طريق التحدث مع أرواح الأجداد طلبًا للشفاء. مايزال الشامان موجودًا حتى اليوم وإن اقتصر عمله على حمامات البخار الجماعية في الأعياد الخاصة بالسكّان الأصليين، أو إقامة المراسم القديمة كرقصة الشمس وغيرها.

www.ibtesama.com/vb

تؤلمني ساقي المصابة في المشي إلا أنها الآن تتخاذل عن حملي تمامًا. يربت تشارلي على كتفي مشجعًا متكئًا على سلاحة الناري الضخم. لقد خذلت الجميع ولا يحق لي الحياة من الأساس.. وجود أخي في حد ذاته عقاب لا أتحمله. وحيد أنا لا أعلم ما الحكمة السماوية من حياتي وموت من كانوا أحق بالحياة.

في ظلمة خيمة تيبي مجاورة لخيمة الشامان يجلس أخي شاردًا تضيء وجهه نيران خافتة. رفع عينيه التعيستين إليّ ببطء وانفرجت شفتاه عن ابتسامة لا يظهر عبرها بياض أسنان القندس، وهمس "أخي!"

www.ibtesama.com/vb

-١٨-
برادلي جولدنج

بدا لي أن كل هذا سخيف إلى حد لا يُصدّق. لم لا يحكي كوتنوار للفتى خلاصة الحكاية في بضع عبارات وينتهي كل هذا فيموت الفتى سعيدًا أو يعود سليمًا. جايكوب اندمج تمامًا في الأجواء وأخبرني متجهمًا أن بذور الصنوبر تحتاج إلى أن تحترق كي تتفتح وتنغرس في الأرض منبتة شجرة جديدة! لو انتظرت يومين آخرين لأطل عليّ بتاج من ريش الغراب وصدر عار مزدان بأطواق الخرز!

الجميع مستمتع لدرجة الولع بما يحدث. المأمور يشعر بالخطورة، بيكوورث ينعي حياة بذلها في سبيل تربية ابن حرام من الأساس. كوتنوار يُذلّنا بقطرات قصته التي لا ذيل لها ولا رأس. القس يؤدي عمله في إجبار الفتى على الاعتراف لرب يؤمن وحده بوجوده.

لم نتوجه إلى المستشفى الجامعي في لارامي، فالمسافة كفيلة بإزهاق أرواحنا جميعًا، فتوجهنا إلى مستوصف قديم يُطابق هيئة مباني سانت

www.ibtesama.com/vb

ستيفنز إلا أن واجهته الزجاجية المبقّعة ببصمات الأكف كفيلة بإبعاد كل ذي عقل عنه.

بقعة دماء جافة على المدخل الخارجي تجاوزها المأمور بلا اكتراث متوجهًا إلى ممرضة الاستقبال الهندية ذات النظارة السميكة. تأخر جايكوب للحظات قبل اللحاق به، فإن لم يكن هذا أوان التصوير فمتى إذن؟

خرجت الممرضة متثاقلة وألقت نظرة على الفتى الممد ثم طلبت منا محضرًا من الشرطة يفيد أن الفتى من قطع شراينه ولا شبهة جنائية في الوضع، فصاح بها بيكوورث أن المأمور شخصيًا معنا..

ـ ذلك هو القانون يا سيدي.. بالإضافة إلى أن طبيب الطوارئ غير موجود.. لا يوجد أحد غيري هنا..

كيف يعطون ترخيصًا لمكان قذر كهذا؟ فرصتنا في وجود طبيب في حانة أكبر بكثير من فرصة تواجده هنا. هتف بها المأمور أن تعطيه مطهرًا وخيطًا جراحيًا وسوف يقوم هو بالمهمة، فرفضت بدعوى عدم جواز طلب كهذا، ثم اعترفت أخيرًا أن المريض يشتري مستلزماته من أي صيدلية، فلا توجد أية مستلزمات في المستشفى سوى منضدة كشف وسماعة الطبيب وتلفاز صغير تُشاهد عليه حلقات عتيقة من مسلسل العملاق الأخضر يبثونه في قناة محلية.

ـ معي صحافة هنا وسوف يبلغون عما رأوه، ولسوف نغلق هذا المكان ونحبسكم جميعًا!

أشاحت له الممرضة بكفها ثم مالت تُتابع التلفاز وتلتهم البسكوت المملح على هيئة أسماك والمتناثر على الكاونتر حول وعائه البلاستيكي الخالي.

خرج جايكوب والمأمور حانقين عاجزين عن الحديث. فتح كوتنوار بابه بجوار الفتى هامسًا في جزع "نحن نفقده"..

www.ibtesama.com/vb

لا أرى مسؤولية لأحد على تدهور الوضع سواهم، ذلك المستوصف في مكانه منذ أكثر من عشر سنوات ولم يهتم أحد بتقديم شكوى جادة. الآن فقط بما أن المريض يخص المأمور بشكل ما فتراءى له فجأة الإهمال الذين يبرعون فقط في إلصاقه بالبيض.

ـ لن نجد خيطًا وإبرة جراحية في أي صيدلية هنا.. تعال معي يا بيكوورث نوقد نارًا.

لم أتوقع أن يحدث كل هذا بتلك السرعة، الفتى ممد في المدخل الخارجي للمستشفى والمأمور يُحمي مطواة بيكوورث، ثم يطلب مني ومن الأخير الإمساك بالفتى وتثبيت ذراعه المجروحة إلى الأرض. جايكوب يتصبب عرقًا في ذلك الجو البارد ولا يكف عن التقاط الصور التي تُظهر لافتة المستشفى في خلفيتنا. القس وكوتنوار غارقان في الدماء يُصلّيان، كل بمعتقده، والممرضة متسعة العينين لا تُصدّق ما تراه من خلف الزجاج..

في الطريق المقفر الواسع تردد عواء ذئب شارد فلم أسمع شيئًا سواه..

www.ibtesama.com/vb

الفصل الثاني

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb

"ومع ذلك، قد أُعطي لأمله بهاء الطبيعة،
خلف قمم الجبال المتوّجة بالسحاب، تقبع جنته..
عالمٌ آمن في قلبِ الغاباتِ مَكمنه،
جزيرةٌ أسعد في وسط مياهه المقفرة.."[1]

(١) من قصيدة للشاعر أليكساندر بوب بعنوان "مقال عن الإنسان".

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

-١-

ليو كوتنوار

العام ١٨٢٨..

شهور قليلة وأُتمّ الخامسة عشرة.. روح جديدة تُبعث فيّ مع كل يوم هنا مع أخويّ، رأس القندس وتشارلي..

تحسنت حالة أخي بشكل كبير وقلّ شروده، إلا إنه لم يعد في نصف حالته الذهنية التي كان عليها قبل المذبحة المشؤومة. أحيانًا يختلّ تحكمه في عضلات جسده مما يسبب له حرجًا دائمًا وسط القوم، فكانت معيشته معي ومع تشارلي في أحضان غابات يلوستون هي الجنة الصغيرة التي وُعد بها على صبره وشجاعته.

رجل نبيل أسود مصاب بعقدة ماري آن الغامضة.. شاب مكسور الأسنان، شارد، لا يكفّ عن الغناء بصوته الأجش مشوّه الحروف، وتدخين الطِباق بيد مرتجفة.. مراهق أعرج نحيل يصل شعره الأسود إلى أعلى ردفيه في عزم منه على إطالته كعادة زعماء قبائل الغراب..

www.ibtesama.com/vb

وذئب ذهبي اللون يعلو سماءه باز أحمر ضخم، هما الطوطم الإلهي الحارس لثلاثتنا..

أتأكد من فعالية الفخاخ الجديدة التي ابتكرتها بناء على ما علمه لي أخي بيفز وصديقي الكريم تشارلي.. لن أحكي لأحد عن الرؤيا التي تتكرر بإلحاح عليّ منذ فتحت عيناي على مرأى عيني ذئبي العسليتين. رؤيا عن قطيع شمالي أبيض يقتل ذئبًا يُشبه ذئبي تمامًا. كل ما أراه في منامي أراه عبر ألوان وصور لم ترها عيني كبشري قط. يبدو أن هذا ما يحلم به ذئبي الذي يطلق عليه الصيادون -بما فيهم تشارلي- الجرو الحفّار.

يتعلم الذئب مني أساليب صيد الذئاب غير المألوفة لدى قومنا، فأطمئِن إلى أنه لن يقع في أحدها بالخطأ.

من خلف تفحّصي للحواف الحادة لفخ مسنن، يلفت نظري هيئة بيفز القوية وجسده المتين. أعلم أن أخي مايزال رجلاً، مايزال يحتاج إلى النساء ويشتاق إلى همس إحداهن في أذنه ليلاً حتى ينام. أعلم أن زوجته الراحلة جميلة قبيلتنا لن تُنسى أبدًا. ربما كان سبب فقدانه عقله هو رؤيتها منتهكة العرض ملقاة عارية على الثلوج. لم أنسَ تصرف جنود البيض يومها في الانتهاك لمجرد الانتهاك إمعانًا في الإذلال والتشفي. إلا أن احتياجه لأنثى لا يُقلّل من شأن ذكراها أبدًا.

لزعيمنا -الزعيم المندفع- ابنتان، الكبرى ويدونجي، لم أرَ في جمالها مخلوقًا على وجه الأرض، تكبرني بثمانية أعوام ولم تتزوج بعد. تريد هي أشجع الرجال وأقواهم. مهرها الذي حددته هي، فراء أنثى الدب وصغيريها الذين يتابعون الهجمات على القبيلة. وهو كما عرفت مهر يتغير على حسب مزاجها الشخصي كل بضعة أعوام.

لسبب أجهله لم يحاول أحد محاربي القبيلة صيد الدببة للفوز بها.. ربما

www.ibtesama.com/vb

كان الأمر عسيرًا، ربما يظنون أن في طلبها تقديرًا زائدًا لذاتها.. لا أعرف. بشكل عام لم تعد الدببة تُكرر هجماتها طيلة العام الماضي، فلابد وأنها وجدت مصدر رزق آخر بعيدًا عنا.

سألت تشارلي عن السر في ذلك، فتحاشى الإجابة. لم أجد منه حماسًا من الأساس لفكرة زواجي من ويدونجي، فأعفيته من ذكر السبب. أعرف السبب جيدًا وأعرف خوفه عليّ من الإحراج.

الابنة الثانية لم أرَ وجهها قط، تُغطيه بفراء أو نسيج قطني ولا تخرج وحدها أبدًا. من قامتها وصوتها تبدو أصغر من أختها. لا تحتك بأحد ولا تمارس أنشطة باقي نساء القبيلة أو زوجات الزعيم. تدعى تيساياك[1] على اسم الروح الحارسة لأراضي يوسميت في الأساطير القديمة.

قلبي معلق بتيساياك، ربما لغموضها، بينما جسدي يشتهي الكبرى بشكل لا يمكن تجاهله. لا يمكنني طلب يدها من دون مهرها، وأخشى رفضها لصغر سني وضآلة جسدي وعاهتي المستديمة. أسباب الرفض تكاد تكسر كفّة ميزان القبول.

الفجر يلملم عباءته الخفيفة الربيعية وتبدأ خيوط شمس النهار في التسلل عبر أوراق أشجار الصنوبر السامقة مغطية الموجودات بخطوط دقيقة لامعة من ألعاب الضوء والظل.

يلملم تشارلي ما تبقّى من إفطارنا ويُلقي للجرو الحفّار بقطعة من اللحم يتلقّفها الأخير في الهواء ككلب مطيع. ثم يُطوّح بقطعة أخرى للباز الأحمر فيهبط ممسكًا إياها في منقاره.

ـ لا تصلح غابات الصنوبر للتخفي، سأصحب بيفز إلى الخندق وأُخفي

---

(١) Tisayac هي أحد الأرواح الحارسة لأرض يوسميت المقدّسة، وهي كيان شفاف شديد الجمال فاتح لون البشرة والشعر على خلاف السكان الأصليين.

www.ibtesama.com/vb

الجوادين بعيدًا وأعود لك ريثما تضع أنت الطعم في المصائد، ثم نعود معًا لنستعد للعبتنا![1]

لأيام سبقت، قضيت وبيفز ساعات نقتفي أثر أقدام الدب ونقارنها بمثيلتها على أماكن هجومهم علينا -ذلك الهجوم الذي توقف منذ أكثر من عام- ونتتبع خمشات مخالبها على الأشجار. فلكل دب سمات مميزة ومساحات لا يدخلها غيره.

مشكلة اصطياد الدب بالسلاح الناري هي أن الدب فراؤه سميك جدًا، في الغالب لا تؤثر فيه الأعيرة النارية العادية، وكان أسلوب الصيد المحبب لدى تشارلي هي الأنشوطات التي تعرقل أقدام الدببة المارين وتشل حركتهم، حينها يستطيع الاقتراب وغرس رمح الصيد المخصص لذلك في مقتلها. لكن تلك طريقة غير انتقائية وربما تتسبب في صيد حيوانات غير مرغوب فيها.

تبقى اللحم المسموم وهو طريقة لا تُناسب الدببة، حيث إن قوة تحملها للسموم عالية وتستطيع تفادي اللحوم المسممة بحاسة شمها العجيبة. استخدام عدد كبير من كلاب الصيد أسلوب غير مجدٍ في حالتنا أيضًا، لأننا لا نملك العدد الكافي من الكلاب المدربة لإسقاط أنثى وزنها يفوق وزن أربعة رجال وطولها يتجاوز الأقدام الستة مقتربة من السبعة.

أما فكرتي أنا فبسيطة، مكونة من عدد من الفخاخ التي تعتمد على استدراج الدببة بحيوان جريح نستدرجه نحن بدورنا إلى نقطة حددناها مسبقًا، سوف أستغل ذئبي في إغواء الدب أكثر حتى يهم بمهاجمة الذئب الوحيد، فيتحاشى ذئبي الفخاخ، والتي راعيت فيها أن تتأثر فقط بالأوزان الثقيلة، فأتحاشى بذلك أن أؤذي الذئب. المفترض أن يسقط الدب عند

---

(١) يسمون الصيد THE GAME.

www.ibtesama.com/vb

معادلة وزن الصخرة الضخمة في الطرف الآخرمن اللوح الخشبي المغطي لحفرة الصيد، والمربوطة إليه قطع من اللحم خفيفة الوزن، عند سقوطه في الحفرة المتسعة تنغرس فيه فروع دقيقة حادة من أخشاب الأشجار، ويختفي الدب عن النظر في الحفرة ريثما نستدرج بنفس الحيلة الدببين الآخرين.

صيد الدببة بالبنادق دون فخاخ أشبه بانتحار في أحضان الدببة. لن يريد أحد مواجهة دب جريح بلا حفرة على الأقل تُقيّد هياجه.

إن لم تمت الدببة في الفخ فسيكون تشارلي هناك لقتلها برمح صيد الدببة[1] في الحفرة، وجرها مع بيفز إلى الخارج وسلخها.

يؤلمني أن أترك العمل اليدوي الثقيل لهما، فلا استطيع النزول في حفرة خطرة كهذه فضلاً عن الصعود منها. إلا أن نظرة الحماس في عيني بيفز عند سماع دوره في الصيد واقتفاء الأثر أنستني أي ألم خطر على قلبي.

لكن يظل السؤال الأكبر.. هل ترضى ويدونجي -بعد كل هذا العناء- بي زوجًا؟

---

(١) للدببة والحيوانات الضخمة رماح خاصة ذات حافة عريضة قوية في قاعدة السن الطويل تمنع الرمح من الانغراس لمسافات كبيرة داخل جسد الحيوان، مما قد يتسبب في خطر لمستخدم الرمح نتيجة اقترابه بشكل زائد عن اللازم من الحيوان الجريح.

www.ibtesama.com/vb

- ٢ -

ذئب

عامدًا، أفسدت كل محاولات الصيد التي قام بها قطيعي طيلة الفترة السابقة. الجوع يُشتّت تركيزهم بشكل كبير ويُتيح لشهيتهم أن تتحكّم في غريزتهم تجاه الخطر.

فهمت خطة أخي ليو من تكرارها أمامي واختبارها عدة مرات، لكن لي إضافة أخرىٰ آمل ألا تخلع قلوبهم الصغيرة مفاجأةً..

لا تحب الدببة مواجهة الذئاب بلا سبب قوي، فقمت بإثارة ذعر أي دب قريب من منطقة صيدنا حتىٰ لا تنجذب دببة غير مرغوب فيها إلىٰ فخاخنا.

أرىٰ أصدقائي أبناء نانبوتزهو العظيم يختبئون في خندقهم ويراقبون مطاردتي غير الجادة لحيوان الإلك الجريح حتىٰ يقترب من المكان المحدد له ويُصدر أصواتًا تُغري الدب بالاقتراب. أنظر في عيني أخي ليو للحظة آملاً أن يفهم أنني أفعل ما أفعله عامدًا.

www.ibtesama.com/vb

أعود مناديًا قطيعي، أتلقى إجابتهم الجائعة وأسمع خطى الخمسة ذئاب البيضاء تهوي فوق الأعشاب الجديدة الخضراء تمزيقًا.. أُطبق فكي حول مكان جرح الإلك فيتوهمون أنني من اصطدته. نظرة الذئب المسيطر لا تُريحني كثيرًا.. يقترب مني رافعًا ذيله في تؤدة فأخفض ذيلي وأخضع له تاركًا مكاني على جسد الطريدة. يتجاهلني متشممًا الهواء حوله بينما صوت النهش والتقطيع من خلفنا يُغطي على خطوات أنثى الدب المقتربة في حذر.

لا أفهم، هل خافت من عددنا؟ ربما.. هذا يعني أنني أفسدت خطة أخي ليو. فقط أتمنى ألا يكتشف المسيطر الفخاخ، والأسوأ أن يكتشف مخبأ إخوتي..

يُرجع الذئب الأبيض الضخم أذنيه للخلف شكًا، ويوازي ذيله مع الأرض ويُضيّق عينيه.. يقترب من الفخ ويعبث فيه بقدمه.. لقد شمّ رائحة الخيانة في دمي!

يستدير لي مزمجرًا، منتصبًا فراؤه يجثم على الأرض في استعداد مفزع للانقضاض، من خلفه تبدّى أخي بيفز كاملاً ممسكًا بقوسه، بينما يحاول تشارلي منع ليو من كشف نفسه هو أيضًا.

درت حول الذئب المسيطر مرجعًا أذني إلى الخلف لأجعل نفسي بينه وبين أصدقائي، الذي لمح منهم المسيطر بيفز في آخر لحظة.

ينبح من بين أسنانه ككلب مسعور منبّهًا باقي القطيع، فيتركون على الفور وجبتهم ويهرعون نحونا. على بعد مسافة قصيرة خلفي يقبع الفخ الكبير الخاص بالدببة، يمكنني استدراجهم إليه وتحاشي السقوط فيه.. لكن إن عبر أحدهم إلى إخوتي فماذا أنا فاعل؟

انطلق السهم في الهواء ليرشق في كتف أنثى الدب التي كادت تضع

www.ibtesama.com/vb

مخلبها على الحيوان الممزق، منتهزة فرصة صراعنا لسرقته كعادة جنسها. إلا أن السهم أثارها فأطلقت زمجرة وحشية ووقفت على قائمتيها الخلفيتين، فبدت شديدة الضخامة يُكلّل أخي الشمس رأسها بتاج من ضيائه الناري.

التوازن.. هو القانون الأوحد الذي خُلقنا من أجله. الدببة أعداء الذئاب إن أُثيرت العداوة على طريدة وتكافأت القوى. مُذعنًا للقانون العلوي، هرع القطيع يقف بين الأنثى المهتاجة والطريدة. يكشفون عن أنيابهم ويُطوّقون الجسد الضخم للدب الجريح. من حناجرهم ينطلق النباح الكلبي متبوعًا بعواء قصير يُثير الذعر في النفوس.

أعدو أنا إلى إخوتي البشر فأجد بيفز القوي ملقى أرضا يتشنج جسده كحيوان في النزع الأخير. تشارلي يحاول جره إلى مكان آمن بعيدًا عن المخبأ، بينما أمل ليو -في عينيه المتسعتين عن آخرهما في عمق المخبأ- معلق بي، كالأمل الأخير الذي رأيته معلقًا في عيني أبي الذهبيتين قبل أن يتحوّل الصياد إلى طريدة..

www.ibtesama.com/vb

- ٣ -

ليو كوتنوار

أمي وإخوتي الكبار.. لماذا تذكّرتهم الآن فجأة وأنا أنظر إلى أعلى، في عيني الذئب الذهبيتين؟ الأعجب أنني لم أتذكّرهم قط منذ مقتلهم يوم مذبحة نهر الدب. لِمَ لم أتذكّرهم ولِمَ أتذكّرهم الآن؟

منذ عامين أو يزيد، أذكر أمي تهرع خلف إخوتي في أنفاس الفجر الأولى، تأبى إلا أن تحمل سلاح أبي كالرجال، فهي زوجة المحارب العظيم وأم الشجعان.

أرمقها من خلف شباك صيد البيزان، منهمكٌ أنا في صيدي المحرم بينما عرفت هي دورها وإن تأخّر عليها. دائمًا ما كنت أراها تغسل الملابس في النهر، وتصطاد الأسماك ثم تجلس في وهن مهموم تخيط الثياب أو تُساعد في نصب الخيام الجديدة. كان ذلك ملخص وجودها عندي، فكنت أحمد الخالق على أنني لست امرأة ضعيفة بلا دور في الحياة.

مَزْق ضخم لن يلتئم أحدثه مشهد ضفيرتيها نصف المحترقتين وهي تُطوّح الفأس يمنة ويسرة في وجه البيض فينتابهم الفزع للحظات من

www.ibtesama.com/vb

المفاجأة. تحتمي خلف طولها الفارع -الذي أورثته لرأس القندس- أربع فتيات صغيرات باكيات مزرقّات البشرة من الزمهرير.

عندما أيقنت من تمام حصار الثلاثة جنود لها، أرخت جسدها فوق الصغار حامية لهم من الأيدي الممتدة إلى أجسادهن. فلما تمزّقت ملابسها عنوة، انفلتت الفتيات من تحتها يغطينها بأجسادهن الدقيقة ويصرخن مغمضات الأعين.

بدا لأحد الجنود أن الوضع غير مجدٍ، وأنهن -بشكل ما- أيقظن ما غفا داخله من إنسانية في غير موعد استيقاظها، فقرر أن يُنهي كل شيء سريعًا. لفّ ما تبقى من ضفيرتي أمي حول يسراه وجذب رأسها، وباليمنى نحرها ممطرًا برد الموجودات حولها بدفء آخر قطرات الأمومة المراقة.

لا.. لم تكن هناك فترات غياب وعي لي في شباك صيد البيزان، ولم يكن الباز يخمشني طلبًا لحرّيته. فقط، كان يعاقب في داخلي ذرات الكبر المتمردة وغرور الصبية الصغار.

أمد يدي إلى ذئبي فيهبط إلى الخندق الضحل، ويحاول دفعي بجسده معينًا ساقي السليمة. أما أول ما وقعت عليه عيناي في الأعلى هو أنثى الدب تدور حول نفسها في محاولة للهرب ودرء هجوم الذئاب عنها.

الآن أفهم ما فعله ذئبي، فقد أراد الانتقام من قطيعه والخلاص منه ومن الدببة في ضربة واحدة. إلا أن خطة كذه من المستحيل الجزم بدقة توقيتاتها أبدًا.

الذئاب صبورة إلى حد غير عادي، يمكنها محاصرة أنثى الدب ساعات طويلة حتى تستسلم. لكن الوضع اختلف مع انضمام الدببن الذكرين. من مكاني أرى حدبتي ظهريهما المميزتين للدببة الرمادية عن غيرها. هم ولداها على الأرجح، وقد خرج الجميع جائعون من بياتهم

www.ibtesama.com/vb

الشتوي -المنتهي بحلول أواخر الربيع- على تلك الكارثة.

الذكران لم يبدوا لي بالغين، فأعمارهما لم تكن تتعدى السنوات الأربعة تقريبًا، وهذا يتناسب مع أقوال الشهود في القرية وآثار أقدامهما.

صوت رصاصة تشارلي في الهواء أوقفت العراك لثوانٍ أعاد فيها كل طرف حساباته. استدارت الأنثى وألقت بجسدها فوق صغيريها مانعة إياهما من الصدام مع قطيع الذئاب، فهي بكل الأحوال معركة غير متكافئة خصوصًا مع إصابتها. صرختُ في تشارلي أن أطلق عليها النيران ولننهِ ما جئنا من أجله، لكنه رفض حفاظًا على حياتنا..

ـ لا يمكننا فعل شيء الآن. إصابة الدَبة بجروح غير مميتة سيجعلها طعامًا للذئاب ولن ننال من فرائها شيئًا. يجب حمايتك أنت وبيفز أولاً.. فلنتراجع الآن ولنترك كل شيء كما هو..

مع تراجع الدببة استدار أضخم ذئاب القطيع لذئبي.. لن أتركه في معركته وحده. سللت رمح الصيد من جعبة تشارلي وأخذت أُلوّح به محاولاً إبعاد الذئب الأبيض. استدار تشارلي لي ورأيت ضياء عينيه البيضاوين في سمار وجهه.. نظرة غاضبة تلتها صفعة على وجهي، ثم جذبني من ملابسي وجرّني جرًّا مسافة مأمونة، ثم أمسك سلاحه الناري مصوبًا إياه نحو الذئب الأبيض الذي انقض على ذئبي في مواجهة ربما كانت الأخيرة بالنسبة لهما. فكلاهما قوي عنيد، ولن يموت أحدهما دون أن يترك الآخر جريحًا غير صالح للحياة وسط أي قطيع.

زمجر تشارلي من بين أسنانه:

ـ لن ينال القيادة إلا إذا استحقها.. تلك معركته الخاصة ولا دخل لنا بها.. دعه، فسيجد طريقه وحده.

إلا أنه استمر في التصويب نحوهما..

www.ibtesama.com/vb

- ٤ -

برادلي جولدنج

أمطار الصباح بدت مزحة مقارنة بذلك الذي يحدث الآن.. من الأحمق ابن الغانية الذي قال إن المنطقة ذات جو جاف؟!

في نقطة ما من جلستنا في السيارات في الخارج شعرت الممرضة بالشفقة نحونا فأدخلتنا الاستقبال، ثم شرعت تُعدّ القهوة وتتجاذب أطراف الحديث مع المأمور..

ـ صدّقني ليس هذا ذنبي فأنا مجرد موظفة تعسة.. أجلسوني هنا وأفهموني أن كل وظيفتي تتلخص في إدخال المرضى للأطباء حسب تخصصاتهم والتأكد من دفع المرضى للرسوم. بعد أيام اكتشفت أن المرضى يُفضّلون الموت في بيوتهم عن الكشف هنا، وأن الأطباء يُفضّلون الموت في بيوتهم عن العمل هنا. يحضر بعض الأطباء صباحًا تحسبًا للتفتيش، أما وقد تجاوزت الساعة الخامسة، فإن الجميع يظن نفسه سندريللا ويتركونني وحدي كحارس أمن وممرضة وموظفة استقبال.

www.ibtesama.com/vb

مدّدنا فتىٰ البيرة علىٰ سرير متحرك في رواق جانبي، وجلسنا مصطفّين، أنا وجايكوب يسارًا والآخرون في قبالتنا يمينًا. اقتربت الممرضة من الفتىٰ ومسحت بكفها جبينه وهمست:

ـ يا إلهي.. إنه ضعيف جدًا!

ـ كذلك حالنا جميعًا...

بلا دعوة جلست الممرضة جوار بيكوورث وأخذت تُربّت علىٰ ركبته، فقد كان في حال يُرثىٰ لها من النشيج والاهتزاز. ضغط نفسي طال كتمانه فتركه الرجال يُسرّي عن نفسه كما يشاء.

طلب كوتنوار من جايكوب أن يقرأ علينا الجزء التالي من المذكرات، بينما جلس هو أرضًا مريحًا رأسه علىٰ الحائط. بدا لي أنه غفا إلا أنه أخرج من طيات ملابسه قلادة محلية من الخرز المجدول يتوسطها مخلب طائر ضخم وأخذ يفركها بين أصابعه..

فتح جايكوب المذكرات ثم ناولها لي وقال بصوت مشروخ:

ـ فلتفعل ذلك بدلاً مني.. أحتاج أن أُفرغ شحنة اليوم في رسوم سريعة، هذا أكبر من قدرة عقلي علىٰ التذكّر..

أخرج دفتر صغير من جيبه وأخذ يبحث عن صفحات خالية من الرسومات أو أرقام الهواتف أو الملاحظات غير المفهومة، ثم بخفة بدأ يرسم بقلمه الحبر خطوطًا سريعة متوترة لامرأة محترقة الضفائر تُطوّح فأسًا في الهواء..

مهمة ثقيلة هي مع كل النظرات النارية التي يسددها لي بيكوورث والمأمور..

لم يتجاوز ما قرأناه من حكاية كوتنوار ربع عدد صفحات المذكرات.

www.ibtesama.com/vb

لا أدري جدوى القراءة بصوت عالٍ، لكن أعتقد أنهم مؤمنون بأن الفتى يسمع بشكل ما في إغماءته.

رفع القس الجالس على كرسي جوار المدخل رأسه لي ثم ابتسم وهزّ رأسه مشجعا..

ـ حكي لي السيد كوتنوار الكثير مما ورد في تلك المذكرات وطلب مني أن أُصلّي من أجل روحه. وفي كل مرة أُصلّي من أجله فيها، أجد نفسي أُصلّي من أجل المئات ممن أعرفهم وكادت أن تكون حيواتهم متطابقة مع جوهر حكاية رجلنا العجوز. أجد نفسي أُصلّي من أجل خطاياي أنا نفسي.. تلك الخطايا التي لا نراها إلا منعكسة في مرايا غيرنا.. اقرأ!

ستة أزواج من الأعين تُحدّق في وجهي، وروحين من خلف أعين مغمضة يرتحلان معي عبر سطور لا أعلم إلى أين ستُلقي بي..

www.ibtesama.com/vb

- ٥ -

ذئب

هي معركتي أنا، لذا لم يقترب أخي تشارلي.. لذا لم يقترب أحد من القطيع. هي معركة تنتهي بمسيطر واحد وقتيل، أو بذئبين قتيلين..

لا ينفصل الذئب عن قطيعه انفصالاً شرعيًا إلا عندما يختار أنثىٰ يُكوِّن معها قطيعًا منفردًا، ذلك وإلا يظلّ مع قطيعه الذي من المفترض أن يكون أسرته الحقيقية وإخوته. لا يُطالب الذئب بالسيطرة إذا كان كبيره والده فقط، غير ذلك فإن السيطرة دومًا للأقوىٰ.

لن أتخذ وليفة قبل أن أُسوّي ثأر أبي وأسترد كرامتي.. الآن!

حلقي يكاد يتمزّق من صوت زمجرتي العالية. أُبصر الخوف في عيني خصمي، فهو ذئب عجوز وأنا شاب، مهما كان الفارق بين خبرتينا، فأنا أفوقه حجمًا وأفوقه بخبرة أبناء نانابوتزهو، رفقاء المصير..

ما بين تشابك بين فكينا وانفصالهما، أشعر برائحتي القديمة تعود لي.. يتمزّق فراؤه بين أنيابي وتسيل دمائي في فمه. نندمج في عراكنا كأننا القيوط

www.ibtesama.com/vb

والقندس المتوحش "ويشبووش" في حكايا أبناء نانابوتزهو عن خلق الأراضي والبشر(١)..

في معركة القيوط والقندس المتوحش، تمخّض الموت عن حياة جديدة. تلك هي الحكمة من الصراع فالموت، من دونه تقف حركة الأكوان وتسكن الحياة.

ألمح أنثى الدب متكورة حول نفسها خلف الأشجار مبطئة من دقات قلبها كي لا تنزف أكثر، وقد انصرف انتباه الذئاب البيضاء عنها إلى مايحدث الآن بيني وبين زعيمهم. تشارلي مايزال يُصوّب سلاحه نحونا، على استعداد لقتل من يتبقى منا جريحًا. فهي الرحمة منه إذن، فلا شيء يؤلم الذئب أكثر من جرح الكبرياء.

يدور الباز الأحمر على مقربة شديدة منا، وفي كل دورة يخدش وجه المسيطر أو جسده حتى استحال بياض فرائه إلى حمرة قانية.. ومازال يقاتل..

ارتدّ المسيطر بضع خطوات إلى الوراء يلتقط أنفاسه، أستعرض أمامه صدري العريض.. أذناي متوجهتان إلى الأمام، ألوي ذيلي لأعلى وأكافح كي لا ألهث أمامه. أسعى لإخضاعه كما فعل بي ولو لثوانٍ قليلة قبل موته.

أذناه ملتصقتان برأسه وظهره مقوّس، يجاهد في إخفاء خوفه.. من تحته تتسرب الدماء إلى الأرض العشبية ببطء. يقترب تشارلي بضع خطوات ليتمكن من إصابته في حال استسلامه.

---

(١) في معركة القيوط والقندس ويشبووش، يتسبب صراعهما في البحيرة انتقال الماء من مكان إلى مكان فكانت البحار السبع، ويرتطمان بالأراضي والأحجار مكوّنان القارات. ثم يُحوّل القيوط نفسه إلى فرع شجرة فيبتلعه القندس. يمزق القيوط القندس من الداخل وينتصر. فيمزق جسد القندس ويلقي بكل جزء في أرض، فمن أجزاء القندس وُلدت قبائل الهنود الحمر، وكل قبيلة أخذت من صفات الجزء الذي نبتت منه.

www.ibtesama.com/vb

لم أعرف أنني تسرعت في حكمي على لغة جسده ورائحته إلا حين صارت المسافة بيننا غير آمنة تمامًا. في لحظة أطبق فكيه على رقبتي وبدأ الهواء في الاحتباس في صدري.

ليو يتراجع بنظرة نارية من عيني تشارلي. لا يجوز لبشري أن يتدخل في صراع كهذا..

لن أتركه ينتصر حتى وإن كانت النتيجة موتي معه. لففت أطرافي حول جسده وتدحرجت نحو فخ الدب معه.. ارتطمنا باللحم المربوط فوق الفخ مباشرة، فأغمضت عينيّ منتظرًا السقوط المميت، لكنّ شيئًا لم يحدث.

رغم تحذير تشارلي الحاد لليو بعدم الاقتراب منا، وجدته يندفع مقدمًا الرمح الطويل نحو المسيطر. ينغرس الرمح في ظهره فأسمع صوت تهشم العظام وينفك ضغطه على حلقي. لم يترك ليو الرمح في اللحظة المناسبة فانهار الفخ بثلاثتنا.. ذئبين وبشري..

www.ibtesama.com/vb

- ٦ -

ليو كوتنوار

اختلّت الأرض من تحتي، ما منعني من السقوط مباشرة هو تمسكي بالعصا الطويلة للرمح، والتي بدأت في التكسّر تحت ثقل وزني. أما ذئبي فقد خُيّل إليّ أنه نمت له أجنحة حمراء. كان ذلك هو الباز الأحمر يُحاول أن يرفع أخاه أو يخفف عنه السقطة. لم يترك الجسد الثقيل حتىٰ تكسّرت مخالبه فأطلق صوت غقغقة حادة وطار محلقًا في السماء يملأ الأجواء ألمًا.

سقط ذئبي من مسافة قريبة فوق الجسد المحتضر للذئب الأبيض. وانزلقت أنا -بكفّين داميين من تكسر أخشاب الرمح- لتنغرس إحدىٰ الحواف الحادة المشهرة من تحتي في باطن قدمي المصابة، لا يمنعها من الغوص أكثر سوىٰ نعل حذائي.

وقف ذئبي محاذرًا أن يصاب هو الآخر واعتلىٰ بقائمتيه كتفي الذئب الأبيض.. طلقة من سلاح تشارلي أنهت حياة الأخير بعد أن تجرع من ذات كأس الإذلال.

www.ibtesama.com/vb

مرّ وقت انتظار عودة تشارلي بالعون وأنا أخلع مخالب الباز من ظهر ذئبي، بينما يلعق هو جرحي. أُمسّد فراءه كجرو أليف، وأتأمل عن قرب أي مخلوق مخيف كانه الذئب الأبيض. وأي مخلوق نبيل هو الذئب بشكل عام. لم يفهم هذا المخلوق بشرٌ قدر ما فهمناه نحن، سكان يلوستون البكر. من عاش على تلك الأراضي وعى جيدًا ما تعنيه الطبيعة الوحشية وما تحويه من تناقضات تدفق الحياة في العروق.

كل عناصر الكون مرتبطة بشبكة واحدة، تسري طاقة الحياة من عنصر إلى آخر في تناسق تام.. الهواء، الماء، الصخور، المعادن، النباتات، الحيوانات، كلٌ في نسيج واحد..

فأتفكّر، إلى ما تؤدي تلك الشبكة من علاقاتي بذئب وباز ورجل جبال غامض؟!

لم نعد إلى القرية في المساء، بل مكثنا في كوخ تشارلي جوار أخي بيفز. يبدو أن التوتر هو ما أصابه بتلك التشنجات فانطلق السهم رغمًا عنه. دخل في طور من الهلاوس مرة أخرى لا أعلم متى يفيق منها.

ـ لم أستأذن الدب في صيده.. تخيل لقد نسيت! إن لم تستأذن الحيوان قبل صيده فلن يعطيك جنسه أنفسهم مرة أخرى.. هكذا أخبرونا ونحن أطفال.. كانت أمي تقول لي فكّر قبل أن تُحوّل شيئًا من صورة إلى أخرى لنفعك الخاص.. ليو.. هل تذكر أمنا؟ هه؟!

ذكراها كانت شديدة الوطء على نفسي.. ذكراها قد تتسبب في تلف عقلي كما حدث مع أخي. لا أريد التفكير فيها ولا في أخينا الأكبر.. لن أتذكّره ولن أتذكّر صوت صلواته في أذن صيدنا قبل سلخه. لا أريد الخوض في ماضٍ دامٍ قاسٍ.

قمت أبغي هواءً نقيًا، متحاملاً على ألم قدمي، زحفت بجسدي إلى باب

www.ibtesama.com/vb

الكوخ وجلست أتأمل مخلب الباز في كفي.. أعتصره، يغوص في ضمادة جرحي، فينفتح وينز دمًا حارًا.

لقد فشلت مرة أخرىٰ.. وأخرىٰ.. وأخرىٰ..

مرة كانت ضحيتها أمي وأخي، ومرة ضحيتها البائسة ماري آن وما تبقىٰ من قبيلتي.. بل إنني كدت أقتل ذئبي اليوم. لِمَ أعيش إذن إن كانت حياتي سلسلة من الفشل والقرارات الهوجاء؟

من بعيد ألمح ذئبي قادمًا، خلفه الذئاب الأربعة من القطيع الأبيض يجرّون بين أنيابهم الجسد الضخم لأنثىٰ دب، منغرس في كتفها سهم أعرفه جيدًا..

لقد ردّ لي صديقي ما اعتبره جميل إنقاذي لحياته.. الواقع هو أنه هو من ردّ الحياة لي..

لم يكن علىٰ الأرض لحظتها أجمل من وقوفه منتصرًا، تُداعب نسمات الليل فراءه الكثيف.. يعوي عواءً قويًا طويلاً يعلن زعامته وحدود حوزه.

يتقدّم ويجلس أمامي.. يرفع وجهه المُغطّىٰ بالخدوش نحوي، فأبتسم راكعًا.. يأتي الهواء من خلفي فيُغطّي شعري كلانا، فلا يدري من يبصرنا من منا ابن تشيبيابوس، ومن منا ابن نانابوتزهو..

www.ibtesama.com/vb

-٧-

برادلي جولدنج

ـ هل هذا هو مخلب الباز؟ نفس الباز الذي تتحدّث عنه في المذكرات؟

ـ هو ذاته.. مازلت أرىٰ آثار جرح كفّي أيضًا.

ثم مدّ كفيه أمامي في بؤس، فلم أجد أي أثر لأي جراح. الرجل ببساطة يمتلك موهبة جيدة في الكتابة لا أكثر ولا أقل. أو ربما يعاني مرضًا ما، هلاوس أو ماشابه تجعله يتخيل نفسه صبيًا من مائتي عام مضت.

ـ حسنًا.. هل تظن أن الفتىٰ يسمع ما أحكيه؟ أعني.. أكره أن ألعب دور المذياع هنا!

ـ هو غائب عن الوعي، وهذا ما نفعله كي يسترد وعيه يا سيد جولدنج..

أتبع كوتنوار كلامه بابتسامة مشفقة، لا أعرف علىٰ من يُشفق تحديدًا. قام بيكوورث ووضع كفّه علىٰ رأس الفتىٰ الممد وظل يُردّد "يا ولدي" متحسرًا آسيًا..

www.ibtesama.com/vb

استأذنت الجمع في التدخين بالخارج. إن لم يكن هذا هو وقت العودة للتدخين، فمتىٰ وقته؟ أشعلت سيجارتي ثم أخرجت هاتفي وشرعت أتأمل قائمة الأرقام الصادرة من خلف بقعة ملح سببَّها عرق بيكوورث علىٰ الشاشة حين استعمله طالبًا المأمور.

لم تكن قائمة طويلة، فما عدا رقم طوارئ حصن واشاكي، فقط أرقام الجريدة هي كل ما تحويه قائمتا الصادر والوارد.

ألهذا الحد أنا وحيد؟ شجرة مقطوعة الجذور والأفرع؟!

أبحث في الأرقام المحفوظة فتتسابق في الانحدار إلىٰ أسفل الشاشة كقطار رأسي من أرقام وأسماء يتخذ سبيلاً نحو مركز الأرض. اخترت رقمًا مهجورًا ودست زر الاتصال.

صوته العميق المسجل علىٰ جهاز الرد الآلي يخبرني أن: "هذا هو منزل آرون جولدنج وأنا غير موجود الآن. يمكنك ترك رسالة بعد....."

أغلقت الخط وأغرقت سيجارتي في بركة ماء الأمطار تحتي، فأصدرَت هسيسًا معترضًا وأسلمت روحها دخانًا سرعان ما تلاشىٰ في الهواء..

www.ibtesama.com/vb

- ٨ -

ذئب

الطائر الحر والطوطم الحامي.. الباز الأحمر يحلق في السموات المفتوحة، المتبدية لي من مكاني على الأرض كبقع ضوء زرقاء من بين تشابك الأغصان الخضراء وظلالها.

السماء والأرض، حياة مقسومة إلى نصفين، مجدولتين معًا بخيوط النسيم الشفافة، تحمل همسات الليل وبوح النهار.

يدور فاردًا جناحية العملاقين، تمر أشعة أخي الشمس من بين ريشه البراق الهفهاف فتبدو كألف نجم سطعت في كون جسده. تدور أنثى باز مغوية في مدارات شموسه في انتظار لفحة اللهيب السحرية ولحظة التقاء الروح بالروح في فردوس العشق.

تتشابك مخالبهما في الهواء ليدورا معًا كطائر أسطوري بأربعة أجنحة، وقلبين..

نقصانه لمخالبه في نظري زيادة في العظمة والبهاء، لكنه في عرف تزاوج

www.ibtesama.com/vb

ذوي الجناحين نقص. لا يستطيع التماسك في رقصته الولهة فينخلع القلب من القلب، وتطير الأنثى مولية وجهها شطر الكمال، ويهوي هو من حالق، مندفعًا، تتكسر الأغصان في تلاقيها معه. كشهاب مشتعل، ينطفئ وهجه في تحطم أحلامه على الأرض.

راقدًا، منزويًا في منبت قوس قزح أمام الشلال العظيم، تذوب في أذنيّ أصوات أنينه وخرير الماء.

تلتمع قطرات الرذاذ على ظهره فأمسحها بوجهي. يقوم واقفًا، غارسًا ما تبقى من مخالبه في الأرض. رجفة سرت في جسده لدقائق أسكنها كبرياؤه.

لا تحزن أخي الباز الأحمر.. فمثلك لا يبقى له خَلَف.. تفرُّدك هو القوة الكامنة فيك. وخَلَفك هو خيط قوي تركته في حياتي وفي حياة ليو، وفي ألف حياة نُسِجت من ذات الخيط، وإلى الأبد.

الموت أسطورة، لا شيء يفنى في هذه الحياة سوى الأجساد. أما ما نتركه خلفنا من أثر هو دليل على وجودنا إلى الأبد في نبض كل ذي فؤاد.

مازالت في جديلتنا بقية يا صديقي.. اجدُل ما دمت قد أُعطِيتَ أنفاسًا ودقات قلب.. اجدل.

www.ibtesama.com/vb

- ٩ -

ليو كوتنوار

ألقيتُ بفراء الدب الضخم أمام مجلس الزعيم "المندفع"، فمدّ عنقه يتفحص هديتي غير المفسّرة. نظر عن يمينه إلى رجل كبير كان متربعًا بجواره فهزّ الأخير رأسه وقام خارجًا من التيبي..

طاقة النور العلوي في أعلى الخيمة تُنير الفراء بشكل خاص. شردتُ للحظات في شعيراته البنية والفضية. تساؤل غريب عَنَّ لبالي.. هل لتلك الأنثى دياسم رُضَّع تركتهم وحدهم للأبد بلا راعٍ؟!

تأمل الزعيم كفيّ المزدانة بالجروح وعرجي الذي ساءت حالته ثم قال بصوت خافت..

ـ هل هذا هو فراء الأنثى التي...؟

ـ نعم يا سيدي.. هو..

ـ لقد مرّ وقت طويل منذ أن كفّت عن مهاجمتنا. يبدو أنك اصطدتها لغرض محدد.

www.ibtesama.com/vb

ـ لم أصطدها.. أخي رأس القندس هو من فعلها وقد أرسلني في طلب الزواج من عالية النسب ويدونجي ابنتكم.

اتسعت عيناه وتألق بياضها في ظلمة التيبي. نقل عصاه من يمناه إلى يسراه وشرع يفرك ريش البوم المعلق بطرفها في شرود. أردف دون أن ينظر إليّ:

ـ لِمَ لم يأتني بنفسه؟

ـ هو متوعك من الصيد، قضينا أسابيع طويلة في الجبل..

ـ مع تشارلي كرو؟

ـ نعم يا سيدي

ـ هلا أمهلتني حتى الليل وسأخبرك بالردّ؟

تركت الفراء عند قدميه وخرجت متكئًا على عصاي التي غدت ساقي البديلة. وجدت بيفز يهش على غنم ترعى بعيدًا. آمل أن الزعيم لم يره في وقت سابق فيدرك كذبي.

ثقيل على النفس أن أُصارح الزعيم أنني أتيت بدلاً منه خشية الرفض. بل أتيت دون علمه من الأساس، فإن رفض الزعيم أخبرت أخي أن الزعيم لم يوافق على زواجي أنا من ويدونجي وانتهى الأمر. أما لو وافق بمعجزة ما، أكون قد أصلحت ما أفسدته في حياة أخي بزوجة جميلة ذات حسب ونسب. الزواج من ابنة الزعيم سيرفع رأس بيفيز عاليًا، وسيحدّ بالتأكيد من شعوره بالانكسار.

أما أنا فأعلم جيدًا أنني سأُرفَض. سأُرفَض من ابنة الزعيم ومن غيرها. فهزيل أنا، أعرج، غريب.. لا أُجيد شيئًا إلا إفساد حياة الناس.

www.ibtesama.com/vb

تشاغلت بتنظيف الخيل وتمشيطه حتىٰ قرب الليل، ثم ذهبت إلىٰ النهر أُجدّد ماء شربنا، فوجدت ابنة الزعيم الصغرىٰ تيسانياك، تقف في منتصف الجسر الخشبي وتُحدّق بوجهها نحوي. لا أعرف بالطبع إن كانت تنظر لي، أو صادف أن يكون وضع وجهها تجاهي.

وحدها لأول مرة منذ وطئت أرض قبائل الغراب، فتحتان ضيقتان في غطاء وجهها هما كل نافذتها علىٰ العالم الخارجي.

هل هي مشوّهة، أو محترقة الوجه؟ لِمَ يتحاشىٰ الجميع الكلام عنها؟

تجمّدتُ مكاني بنصف دلو مغموس في المياه، ثم قررت أن أهزّ رأسي لها محييًا وأنصرف لسبيلي. لدهشتي هزّت رأسها الذي تحرّك تجاهي.

درت برأسي حولي متسائلاً إن كانت هزّة الرأس لي أم لأحد خلفي، فلم أجد أحدًا علىٰ مرمىٰ بصري. فقد تأخّر الوقت علىٰ ورود الماء لأي غرض.

متكئًا علىٰ عصاي، فردت قامتي في مواجهتها وأطرقت برأسي تأدبًا. وقفت أمامي فأبصرت قدميها في حذاء موكاسين أحمر، مزدان بأحجار لامعة صغيرة من صخور نهر يلوستون الصفراء الشفافة.

ظلت واقفة أمامي في صمت، ثم سقط حجاب وجهها أمامي علىٰ الأرض!

رفعت وجهي في وجل وتردّد لتلتقي عيناي بعينيها الزمرديتين المسحوبتين لأعلىٰ، في وجه في لون الحليب وشفاة في حمره الأزهار، يُتوّج رأسها شعر من ذهب.. ابنة الزعيم أوروبية!

www.ibtesama.com/vb

- ١٠ -

برادلي جولدنج

ـ بيضاء؟! كيف هذا؟!

توقف جايكوب عن الرسم متفاجئًا وانطلق السؤال من فمه كالطلقة. تبادل كوتنوار النظرات مع من حوله ثم انخرطوا في ضحكات عصبية. قطب جايكوب ولم يفهم سرّ الضحكات.

أغلق كوتنوار المذكرات التي كان يقرأ منها علينا بصوته وقام واقفًا يفرد ظهره الذي تيبس من جلسته على الأرض.

ـ لا يا بني، نحن لا نضحك على ردة فعلك.. نضحك على أن ما قلته أنت هو عين ما قلته أنا، مع التراجع للخلف والتعثر في طين ضفة النهر.. كان موقفًا كوميديًا للغاية، وكأنني قد رأيت شبحًا! إلا أن ابتسامتها العذبة هي ما أنساني مهانة السقوط!

أتت الممرضة بأكواب القهوة الساخنة، وشرعت تُفرّق البسكويت المملح من علبة جديدة في كف كل واحد منا. رائحة القهوة وصوت

www.ibtesama.com/vb

القرمشة بددا الكثير من القلق والوجوم الذي بدأنا به جلستنا. مع انهمار الأمطار في الخارج، تأكّد في نفسي شعور أجازة الأعياد الذي لم أحتفل بها مع رفقاء منذ سنين طوال. كل عام أبحث قبل الموسم عن امرأة يائسة، ترضى بعلاقة قصيرة الأمد بلا أي التزام من أي نوع. امرأة لا تتعشم أن تتصل بها مرة أخرىٰ ولا تأبه بأن تستيقظ فلا تجدك جوارها بعد ليلة حافلة. امرأة تدمن قانون التيك أواي.. اطلب، التهم، ألقِ وراء ظهرك.

جرع كوتنوار من القهوة ثم بدأ في تغميس البسكويت فيها وأكله مبتلاً كالدجاج..

ـ فهمت يومها لِمَ اختاروا لها اسم تيسانياك، تيسانياك هي الروح الشقراء الشفافة التي أُغرم بها توتوكانولا، زعيم أراضي يوسميت الأسطورية. فقد الرجل عقله عند مرآها فهام علىٰ وجهه يبحث عنها وترك أرضه ورعيته. فقامت تيسانياك برعاية قومه وجلب ما يحتاجونه حتىٰ يعود.. كانت تصنع له تماثيل كي يتذكّره الناس بها. جلب الحب المحرّم الوبال علىٰ رأسه والخير علىٰ القبيلة.

سمعنا أنينًا ضعيفًا، فتوجّهت أعيننا صوب الفتىٰ الممدّد. فتح عينيه الحمراوين، فهرع إليه بيكوورث يمسد شعره الكثيف اللامع الشبيه بشعر القنافذ بيده مسودّة الأظفار..

ـ نحمد الرب علىٰ سلامتك يا بني..

ـ لقد أحب الشقراء فجلب الخير علىٰ قبيلته.. أليس كذلك؟

لقد سمع الفتىٰ كل ما دار في غيبوبته القصيرة، إلا أن وجهه وصوته وطريقة كلامه دفعتني للظن بأنه يُهلوس.

استيقظ القس الذي غفا جالسًا بجوار البوابة وقطع المسافة إلينا مسرعًا.

www.ibtesama.com/vb

أخذ يُصلّي ويُربّت على صدر الفتى فعاجله المأمور بكوب من القهوة تُبعد عنه شبح النعاس.

فتح كوتنوار المذكرات ووقف بجوار الفتى في زحام الواقفين وشرد في الصفحات، ثم أجاب إجابة لا تمتّ لسؤال الفتى بشكل مباشر.. ربما كانت إجابة متأخرة عن سؤال جايكوب الأول.. بيضاء؟ كيف؟!

ـ الزعيم "المندفع" هو الابن الذكر الوحيد لوالده ووريث زعامته، كل جرمه في الحياة هو أنه وقع في حب فتاة إنجليزية شقراء. هدّده والده بالطرد عندما صمّم على الزواج منها. هربا وتزوجا وعاشا بالقرب من حوض ينبوع أولد فيثفول الساخن[1].. لم يكن له اسم آنذاك، فقط كنا نسميه الينبوع الساخن العظيم. اكتفيا بحياة بسيطة خشنة في قلب يلوستون الوحشي. ناسبتهم الأرض القلقة المتدفقة والحياة البرية الحميمة. عرف والدها السير كوبريك مكانها وقتلها بطلقة واحدة في الجبهة. ثم دخل الخيمة يبحث عن ابنتها ذات الأربعة أعوام ففوجئ بزوجها خلفه.

رنّ جهاز التنبيه حول خصر المأمور، فاستأذن في استخدام الهاتف القابع في الاستقبال. يبدو أنهم يحتاجونه في العمل. جلس كوتنوار أرضًا مرة أخرى منحيًا كوب القهوة جانبًا وأردف:

ـ اكتفى الزوج بقطع أوتار عقب الرجل بضربة واحدة غاضبة، ثم جرَّه خارج الخيمة وترك الباقي للذئاب والقيوطات. كانت غلطة من والدها أن جاء وحيدًا، لكنها مهمة رجل واحد كما يقولون. محتضنًا ابنته الجميلة، بات "المندفع" ينعي زوجته بكاءً وغناءً، ثم دفنها بالقرب من عين الينبوع الساخن العظيم. يذكرها كلما تدفق الماء الحار منها كعين بشرية لا تكف عن ذرف الدموع. عاش وحيدًا مع ابنته الصغيرة والتي لم تأخذ من ملامحه

---

(١) Old Faithful geyser.

www.ibtesama.com/vb

إلا رسمة العين الضيقة المسحوبة. احتفظ في عينيها بفيروزتي أمها وجمالها البريء المنطلق في قسمات وجهها الدقيقة. في المعركة الأخيرة مع البيض، أصيب أبوه بجرح غائر فأدرك أن موته محقق. أرسل الرجال في إحضار ابنه الوحيد، وهمس في أذنيه أنه قد ظلمه كثيرًا وطلب منه أن يعود ليحكم القبيلة من بعده.. ثم أسلم الروح. عاد "المندفع" مع ابنته، واختار أن يُغطّي ما يعتبره الجميع عارًا.. غطّى وجه الحب والجمال ليتمكن من العيش وسطهم في سلام.

ـ ولم يكن أحد يعرف أن ابنتَه شقراء؟ وكيف أن ويدونجي أكبر من تيسانياك؟

ـ لذلك قصة أحكيها لكم يا جايكوب.. كلٌّ في أوانه.

www.ibtesama.com/vb

- ١١ -

ليو كوتنوار

لم أعرف يومها على النهر ما كان يخفيه أبيها من حكاية حزينة، كل ما قالته لي همسًا وهي تركع جواري في سقطتي الفزعة منها هو "لا تُزوّج أخاك لأختي".. ثم هرولت مغطية وجهها عائدة للقرية.

عدت بعدها مشوّش الفكر، أحاول أن أعيد تنظيم تفكيري. إلا أن رسول من الزعيم أخبرني أن أحضر لخيمته. لثاني مرة في يوم واحد أقطع المسافة إلى خيمة الزعيم، لكن شتّان ما بين أمنيتي أول مرة أن يوافق على الزواج وبين أمنيتي الآن أن يرفض أو يطلب مهلة أحاول أنا التملص فيها من طلبي.

دلفت إلى الخيمة، فوجدته وجدة ويدونجي متربعان، ينظران لي في ابتسامة تُخفي الكثير. تكلّمت الجدة أولاً وهي سيدة محنّكة لا أرتاح لها كثيرًا، لكنّ الزعيم يستشيرها في كل الأمور..

ـ أتعلم أن والدة ويدونجي ماتت والأخيرة مازالت صغيرة؟ وقع

www.ibtesama.com/vb

الحِمل كاملاً عليّ في تربيتها. بعد.. بعد سفر الزعيم المندفع في مهمة طالت، تزوج خلالها أم تيسالك وماتت هي الأخرىٰ قتيلة، فربيتهما معًا. ويدونجي عنيدة، كفرسة ترفض الترويض إلا علىٰ يد مروض بعينه يجيد همس الخيل وإغواءها. كانت ترفض الزواج من أي من أبناء القبيلة وتزعم أنهم ليسوا محاربين أشداء وأنهم مجرد مروضي خيل لا أكثر. تعرف بالطبع شرطها وهو فراء الدببة المُغيرة، وهو طلب شديد الوطء. فنحن لا نصطاد الدببة بلا غرض حياتي لنا في لحمها أو فرائها أو دفاعًا عن الممتلكات. لذا لم يجرؤ أحد علىٰ فعل ذلك، خصوصًا أن الدببة لم تعد تُغير علىٰ المكان. لكنها مازالت تلك العنيدة التي ألفتها، مازالت مصممة علىٰ طلبها الغريب.

أخذ الزعيم نفسًا عميقًا وتكلّم دون أن ينظر لوجهي مباشرة، متشاغلاً في فرك ريشات البوم علىٰ عصاه.

ـ لن أُجبر بناتي علىٰ الزواج دون رغبتهن أبدًا. ولن أُعارض إحداهن في رجل اختارته.. لذا..

قاطعته مخففًا قدر الإمكان من حرجه:

ـ أتفهم يا سيدي أسباب رفضها جيدًا وأعلم أن....

ـ من قال إنها رفضت؟ لقد وافقت ويدونجي علىٰ الزواج من أخينا المحارب والصياد الماهر رأس القندس! اطلب منه أن يقابلني غدًا صباحًا لنتفق علىٰ ميعاد الزواج.

ترتعش عصاي في يدي توترًا، أُمزّق ابتسامة في نسيج شفتيّ الملتحمتين مفاجأةً، وأقوم من مجلسي مغمغمًا بعبارة تُفيد أنني سأخبر بيفز حالاً.

وافقت؟! وافقت! كيف؟! وما الذي تُحذّرني منه تيسالك في تلك الزيجة؟ أتراها غيرة أختين من أمّين مختلفتين؟ الكثير من قبائلنا أبناء زوجات مختلفات ولم يكن هذا أبدًا داعٍ للكره أو الغيرة.

www.ibtesama.com/vb

بدلاً من أن أعود إلى خيمتي يممت وجهي شطر الجبال طلبًا لسماع رأي تشارلي في كل هذا، لن أنتظر حتى الصباح. حين وصلت قرب كوخ تشارلي كان الليل قد توغّل، وأبصرت في ظلمته دخانًا كثيفًا وسمعت عواءً مستمرًا مخيفًا من ذئاب القطيع الشمالي على رأسهم ذئبي. اندفع من بين الأشجار الباز الأحمر وحطّ على كتفي ثم أخذ يغقغق ويضرب الهواء بجناحيه. أبعدته عن رأسي وربطت حصاني ونزلت بحذر متكئًا على ساقي السليمة. قدر ما أمكنني كتمت صوت خطواتي ورُحتُ أتسلل من بين الأشجار الكثيفة.

لم تكن تلك هيئة حريق غابات معتاد، الصيف لم يدخل بعد، والدخان ينبعث من نقطة واحدة. مع اقترابي سمعت أصواتًا غاضبة تتحدث بالإنجليزية. ما رأيته من خلف الاشجار هو مجموعة من الرجال البيض يمسكون المشاعل ويُطوّحون كرات لهب نحو كوخ تشارلي. لم أُبصر خيوله في المكان.. أعتقد أنه ليس هناك.

حول الكوخ يقف ذئبي قائدًا لقطيعه، يحاولون طرد المعتدين، بينما ثلاثة رجال يهشون الذئاب بالمشاعل في أيديهم.

تراجع البيض بعدما أتموا فعلتهم، تبعهم الباز الأحمر محلقًا غاضبًا. الذئاب تعوي بلا انقطاع وتلوي ذيولها بين أفخاذها خوفًا من تساقط أخشاب الكوخ المحترق عليهم. عدت مهرولاً قدر إمكاني إلى الحصان وربطت ساقي الجريحة إليه حتى لا أسقط عندما أزيد من سرعتي. ربما استطعت أن أجلب عونًا من القبيلة.

حين عدت إلى القرية وجدت النيران في خيام الزعيم مازالت موقدة، الرجال يدخلون ويخرجون متوتّرين. لدهشتي وجدت أحد الرجال يقتاد جوادي تشارلي متوجهًا إلى الإسطبلات. رآني فأشار لي أن آتي معه سريعًا.

www.ibtesama.com/vb

ـ أين كنت؟ رأس القندس بحث عنك كثيرًا.. هلم يا ليو خبّأ معي الجوادين وسط خيولنا. فكّ عنهما السروج.. هيا.

ـ ماذا يحدث؟ أين تشارلي؟ لقد رأيت البيض يحرقون كوخه في الجبل..

نظر لي في ذعر ثم تركني وهرع يُخبر الزعيم. في عجل نفّذت ما أمرني به، ثم توجّهت إلى خيمة الزعيم. قدمي مربوطة إلى جمر موقد.. أريد أن أجلس بأي شكل.

دلفت إلى التيبي مفتوح المدخل وارتميت على الأرض ألهث، رفعت عيني للزعيم أرجوه معذرة على دخولي المفاجئ فوجدت تشارلي جالسًا ممزق الثياب، يلف ذراعه الغليظة حول ماري آن الباكية!

اندفع شاب صغير إلى الخيمة وصاح فينا بصوت متهدج:

ـ رجال البيض آتون بالمشاعل والسلاح يا زعيمنا!

www.ibtesama.com/vb

- ١٢ -

برادلي جولدنج

ليس مرة أخرىٰ.. لا تقل إن البيض سيذبحونكم مرة أخرىٰ أرجوك!

توقفت الأمطار أخيرًا وصار من الممكن أن أعود إلىٰ لاندر وأمضي ليلتي هناك، وفي الصباح أعود إليهم لأجلب سيارة الصحيفة.

بهدوء مد بيكوورث يده معطيًا إياي مفتاح سيارته:

ـ خذها.. سأظل هنا حتىٰ الصباح وإن احتجنا التنقل فسيارة المأمور معنا.

ـ أو اقبل دعوتي لقضاء الليلة في منزلي المتواضع يا سيد جولدنج.

العرض الأخير كان من كوتنوار.. نظرت إلىٰ جايكوب فهزّ كتفيه بمعنىٰ أن الخيارات متساوية لديه، لكنني موقن أنه قد افتُتن بالحكاية، ويودّ أن يعرف المزيد منها.

خمن كوتنوار كراهيتي للعودة إلىٰ المستعمرة، فقام مادًا يده مصافحًا

www.ibtesama.com/vb

كفّي، ثم وضع مذكراته فيه وأطبق أصابعي حولها.

ـ خذها معك واقرأها، مسجلك وسيارتك في أمان حتىٰ نراك في الصباح. سيوصلنا المأمور أنا والأب أنطوان للمستعمرة، وسيمكث بيكوورث مع الفتىٰ حتىٰ يحضر الطبيب في الصباح. لا لزوم لتواجدنا جميعًا هنا والتسبب في مشاكل للآنسة.

حين ركبنا سيارة بيكوورث وانطلقنا، غفا جايكوب علىٰ الفور محتضنًا كاميرته كدب محشو، بينما ظلت المذكرات أمامي في التابلوه، تتبادل معي النظرات الصامتة طيلة الطريق المظلم الزلق.

لقد أوقعني ليو كوتنوار في فخ، وهو الأدرىٰ بالفخاخ. مذكراته قطعة لحم أغرت الدب بالتقدم ليسقط في الفخ، ومازال يسقط في فخ بلا قرار..

شِبه متيقظ، جلس جايكوب بقميصه الخفيف الذي ابتلّ وجفّ عليه عدّة مرات اليوم، بينما أتابع أنا البحث عن موظف الاستقبال في نُزُل "فرونتير لودج". وهو بحث قد يطول بناءً علىٰ خبرتي السابقة مع هذا المكان. لكن فرونتير لودج هو أول نزل تقابله في الطريق ٢٨٧ إن كنت متوجهًا من مستعمرة ويندريفر إلىٰ مدينة لاندر.

أخيرًا ظهر شاب هندي هزيل من حجرة جانبية بدت لي مخزنًا أكثر منها حجرة استراحة. شرع يرد عليّ ويأخذ مني بطاقتي هويتنا وهو يُثبّت عينيه علىٰ جايكوب. لطخات دماء فتىٰ البيرة واضحة جلية علىٰ قميصه وسرواله الجينز، بالإضافة إلىٰ ركبتين موحلتين جراء ركوعه جوار المنتحر في مياه الأمطار.

أعلم أن هذا المكان لن يعبأ كثيرًا بمظهرنا البائس، أشار لنا الشاب أن

www.ibtesama.com/vb

نتبعه ففعلنا. صعد إلى الطابق الثاني -والأخي- ووقف ينقل ناظريه بيننا وبين الأربعة حجرات المتراصة عن اليمين وعن اليسار. الإضاءة خافتة بشدّة وصوت الموسيقى ينبعث من سماعات الطابق الأرضي ويمر بشكل ما عبر الجسد الخشبي للنزل، فيبدو لمسامعنا معظَّمًا، يحمل صدىً مرعب كأنه ينبعث من العالم الآخر.

حسم الشاب أمره وأعطانا أقرب الحجرات للسلّم، ناولني مفتاحي وتمنى لنا ليلة سعيدة وهو بعد لا يرفع عينيه عن مُرافقي.

سبقني جايكوب وارتمى على ظهره فوق الفراش الهابط من المنتصف، مروحة السقف تعمل بشكل من أشكال القصور الذاتي. حاولت فصل الكهرباء عنها إلا أنها أبت إلا أن تدور وتدور كراقص صوفي.

لا يوجد قفل داخلي على باب الحجرة، شيء آخر لم يتغيّر منذ زمن. ألقيت مذكرة كوتنوار على سريري وسألت جايكوب إن كان يبغي طعامًا فلم يرد. كان يغط في نوم عميق.

أعرف أن تكييف الهواء والتدفئة لا يعملان، أعرف أن صنبور الماء الساخن يدور حول محوره فقط دون أن يكون له دور سوى الزينة. أعلم أن تصريف حوض الاستحمام يتم في دلو منفصل يستوجب عليك تفريغه في المرحاض كلما امتلأ.. لا شيء يتغير في وايومنج.. لا شيء..

من نافذة حجرتي أستطيع رؤية لافتة النزل، على اليسار مكتوب بخط بدائي "فرونتير لودج"، وفوقها في لوحة أحدث وإن لم تكن أفضل، مكتوب "مافريك- مطعم وبار" وهو امتداد للنزل حديث بعض الشيء.

بدت سيارة بيكوورث التي أتينا بها متناغمة تمامًا مع السيارات الطويلة كالأبد من طراز السبعينات والثمانينات. سيارات مغطاة بجوانب خشبية تُذكّرني بتوابيت الموتى.

www.ibtesama.com/vb

إضاءة الحجرة خافتة للغاية، أخذت مذكرات ذئب يلوستون وتربعت على أرضية الشرفة الرطبة من جراء الأمطار. أحاول القراءة قدر المتيسر من إضاءة الشارع الخالي.

صوت المغني جوني كاش يصدح عبر الأخشاب العتيقة..

ـ مازلت في سجن فولسوم، والوقت مازال يتقدم بي..

وذاك القطار مستمر في طريقه، متوجه إلى سان أنطون..

عندما جئت لأول مرة هنا، أخبرني أبي أننا قدمنا إلى لاندر للاستمتاع بركوب الروديو في أول بلدة مارست تلك الرياضة بأجر مدفوع في الولايات. ركبت الحصان الخشبي المخصص للأطفال وسقطت عدة مرات وفي كل مرة يزداد تصميمي على الركوب.

في اليوم التالي ذهبنا لمشاهدة أبي في مباراة روديو المحترفين، كان يرتدي زي راعي البقر الشهير ووجهه مغطى بظلال القبعة. كان بارعًا وظلّ متمسكًا بصهوة الجواد الهائج حتى كلَّ الجواد نفسه. تلقى أبي نصيبه من أموال المراهنات عليه، ثم قرر أن يستزيد فطلب ثورًا يمتطيه. لم تستطع أمي المشاهدة، فتركتني وجلست في نهاية المدرجات تجرع علبة البيرة تلو الأخرى.

أبي راعي أبقار أمريكي، تُغطي قبعته ملامحه المنحوتة وتعكس الشمس ظله والثور على الأرض، فيبدو كأيقونة صُنعت خصيصًا لتُضاهي أيقونة ولاية وايومنج الشهيرة للراعي على جواده.

حلمت ساعتها أن أكون راعٍ للأبقار، حتى وإن كُتب عليَّ أن أكون ممثلاً للدور فقط في حلبة روديو.

الأمريكي الذي صرع الثور..

www.ibtesama.com/vb

ـ عندما كنت صغيرًا، قالت لي أمي يا بني..

كن صبيًا طيبًا، ولا تعبث بالسلاح..

لكنني قتلت رجلاً في رينو، فقط لأُشاهده وهو يموت..

وعندما سمعت صافرة الشرطة، أمسكتُ برأسي وبكيت

سقط أبي من فوق الثور في مرة من المرات وأُصيب ظهره إصابة أقعدته عن ممارسة أي عمل يتطلب مجهودًا عضليًا. لا شيء سوىٰ التذمّر طيلة النهار ومتابعة مباريات البيسبول في التلفاز. لا أموال إضافية من المراهنات.. لا أموال من أي نوع ولا تأمين صحي يُغطّي علاج أمي.

لا شيء يتغير في وايومنج.. لا شيء يتغير سوىٰ البشر..

ـ أراهن علىٰ أن هنالك أغنياء يأكلون في عربات القطار المترفة..

لا بد وأنهم يحتسون القهوة ويدخنون السيجار الضخم..

لكنني أعلم ان القطار آتٍ، وأنني لن أكون حرًا..

وأعلم أن هؤلاء القوم مستمرّون في متعتهم، وهذا فعلاً ما يُعذّبي..[1]

---

(١) من أغنية جوني كاش I shot a man in Reno.

www.ibtesama.com/vb

-١٣-

ليو كوتنوار

وقف الزعيم "المندفع" ملطخًا بالدماء من جراء الحصانين المذبوحين على يد المغيرين البيض. الجو مشحون بالغضب. أقف والرجال خلف الزعيم، نحمي ماري آن وتشارلي في التيبي خلفنا.

يبدو زعيم البيض واثقًا من وجود تشارلي هنا، فقد توجّه مباشرة ورجاله إلى مربط الخيول وأخرج الجوادين وذبحهما أما الزعيم. والآن يُطالب بماري آن وتشارلي..

ـ أعطنا العبد الأسود والزانية فنترك قبيلتك في سلام، وإلا أحرقنا خيامكم الآن..

ـ لن نُسلِّم من جاءنا مستجيرًا، فلنجلس ونتحدّث.. هناك سوء فهم خطير جدًا..

يتحدّث الزعيم الإنجليزية بطلاقة وقوة أثارت حفيظة الأوروبي، خرج تشارلي وشقّ صفوفنا، وقف بين الأوروبي على فرسه الأسود وبين

www.ibtesama.com/vb

زعيمنا. فتح ذراعيه وعرض صدره العاري أمامهم..

ـ ماري آن وينستون هي أختي، أنا تشارلز وينستون من ذات الأب وذات الأم.. إما أن تستمعوا لنا أو تأخذوا ثأر جهلكم مني.. لكن اتركوا ماري آن والقبيلة لحالهم..

طفق الأوروبي يُصفّق ويضحك، تبعه رجاله، يضحكون في عصبية وهم يُطوّحون المشاعل المرفوعة. أضواء النيران على وجوههم تجعلهم يبدون كشياطين من أسفل طبقات العالم الثلاث.

بلا أي مقدمات، احتقن وجه القائد الأوروبي وصوّب سلاحه إلى صدر تشارلي وصاح:

ـ أحضر العاهرة الآن..

أزاح الزعيم "المندفع" فوّهة البندقية جانبًا برفق وحاول أن يجعل صوته متعقلاً قدر المستطاع:

ـ سيدي، نحن نعرف تشارلي منذ أعوام طويلة، جاءنا وهو في الخامسة عشرة وكنت أنا في سنّه تقريبًا.. والد تشارلز وماري آن هو السيد تروفيان وينستون الأبيض، أنجب سبعة أطفال من عبدته الزنجية المختطفة من أفريقيا السيدة بوبيلو، تُوفيت السيدة في مخاضها الأخير جراء ضعف بنيتها وتعذيبها على يد سيدها. السيد وينستون أساء معاملة أبنائه، وكان يستغل كثرتهم في توفير عمالة مجانية لحقول التبغ الخاصة به. الجميع يعرف أنه كان رجلاً سيء الطباع، بل يزعم البعض أنه كان مريضًا في عقله.. السيدة ماري آن هي الابنة الوحيدة له التي أخذت الكثير من ملامحه الأوروبية، فكانت مُقرّبة لديه ولم تكن تعمل في زراعة أرضه كباقي إخوتها.. إلا إنه....

ـ من يشهد مع الحيوان الزنجي إلا ثور هندي متخلّف.. تلك حكايات

www.ibtesama.com/vb

تضحكون بها على أبنائكم عديمي العقل.. حكايات عن الأوروبي القذر والأفريقي النبيل، هه؟ كفى!

ترجّل الأوروبي وكذلك فعل رجاله، اتخذوا بين الواقفين سبيلاً، يدفعون هذا ويلسعون بشعلاتهم ذاك. ما يقرب من العشرين رجلاً يخترقون صفوفنا.. أرى الخوف من المواجهة في أعين أغلب الرجال. يُترجم لي المحادثة الإنجليزية رفيقي من مرابط الخيول، إلا أنه يتراجع ويختفي خلف الخيام عند ذلك التطور الأخير للموقف. أصبحت أصمّ الآن أُحاول أن أُتابع ما يحدث من خلال النظرات والإيماءات.

يغرس تشارلي قدميه في الأرض ويمسك قائد الأوروبيون من كتفيه، يخفض رأسه ويُثبّت عينيه الصفراوين في العينين الشرستين للمعتدي.. يبتسم الأخير في تهكّم ويشير لرجاله بالهجوم على خيمة الزعيم.

يتراجع تشارلي بسرعة ويقف مشهرًا سكين السلخ العملاق، يمنع المتقدّمين من تقدّمهم. يقف بجانبه الزعيم المندفع يصوب سلاحًا عتيقا.. أمشي مشيتي العرجاء وأقف جوار أخي بيفز ذي القوس المشدود. أرى ساقه وقد بدأت في الاهتزاز اللاإرادي جراء التوتر الزائد.

صيحة واحدة من زعيم البيض وانطلقت الرصاصات نحونا. دخلت التيبي في محاولة مني لحماية ماري آن، إلا أنني وجدت تيسایاك تحتضنها وتبكي. ألقيت بجسدي على المرأتين بينما يُزيل الرجال البيض الخيمة من جذورها ويطأون النار يطفئونها بأحذيتهم. أخشى التفكير حتى في احتمالات أن يكون أحد الرجال الثلاثة العظماء في الخارج على قيد الحياة..

سلخني أحدهم من فوق الشابتين وجذب ماري آن من شعرها فسقطت فوق الرماد الساخن لنيران التيبي المنطفئة.

www.ibtesama.com/vb

قطب قائدهم جبينه وهو ينظر لفيروزتي عيني تيسایاك ويهمّ أن يمد يده إلى ضفيرتها. من خلفه يزحف الزعيم المندفع على بطنه، يمسك أحشاءه أن تنفرط خارجة منه، ضربة واحدة لكاحلي الأوروبي قطعتا عرقوبيه فسقط على وجهه يعوي ألمًا..

ـ لن تنالها كما نلت أمها...

كانت تلك آخر كلمات لزعيمنا قبل أن ترشق رصاصات رجال البيض في جسده المحتضر.

في تلك اللحظة تحوّل الثأر إلى ثأر قبيلة مع قاتل زعيمها. الجميع رأى ما حدث، فانهالت الضربات البدائية، وتعالت الصيحات المدوية لحناجر تنحدر من حناجر الذئاب الشهباء.

رأيت رجلان أبيضان يحملان ماري آن على حصان مبتعدين. الرجال لا يسمعون استغاثتي فقد انخرطوا في طقس دموي لم أرَه من قبل وإن سمعت عنه كثيرًا.. سلخ فروة رأس الأعداء.

انتصر الذئب الأسود، انتصر الذي ظلّ البيض يطعمونه لسنوات وسنوات..

قطرات الماء قد تحفر أقسى الصخور.. لا أحد يلحظ القطرات أبدًا، إلا أن الجميع يفجعون لمرأى حجر ينشق من تلقاء ذاته..

الباز الأحمر يدور في السماء الحالكة.. فقط يدور ويغقغق فيضيع صوته وسط الجحيم المستعر حولي.. وحيدًا أقف شاخصًا إلى السماء.. أخفض رأسي فلا أرى إلا جسد زعيم البيض المشلول. أجذبه خارجًا من بقعة الضوء، كذئب يجر طريدته إلى ظلماته..

www.ibtesama.com/vb

- ١٤ -

ذئب

يحملون جسد الزعيم المندفع ويرفعونه عاليًا عن مستوى الأرض، هناك بجوار الينبوع الساخن العظيم، حيث مدفن زوجته. يرتاح بجواره جواده وعصاه وتاج الريش الأسود. يضع الرجال طعامًا وشرابًا في المدفن، زادًا للزعيم الراحل في حياته السعيدة المقبلة.

يتركون سقف قبره مفتوحًا للسماء، من هنا معراجه لملاقاة الخالق. يدور سكين حاد على النساء اللاتي من دمه، تقطع كل امرأة خصلات شعرها المجدولة وتضعها في كومه أمامهن، تُزين الكومة أخيرًا جديلة ذهبية وحيدة حزينة.

يحتفل تشيبيابوس العظيم بصعود روح الزعيم المحب إلى مملكته، يذوب في ملكوت الذئاب ويعود لنا في أمطار السموات ونبتتات الأرض البهيجة.

يدور الدخان في مرجله الخشبي من اليمين إلى اليسار على الرجال المتحلّقين حول المدفن في دائرة تُماثل دائرة الحياة الأبدية الأزلية. يمتصّون

www.ibtesama.com/vb

الدخان ويزفرونه حارًا حزينًا.. في حلقة خاصة بنا، خمسة ذئاب بيض وذئب ذهبي، نطوّق جمعهم المهيب، يدور الباز في دورته الخاصة حاملاً بذور الصنوبر المحترقة، ينثرها حول القبر العالي..

يفور الينبوع، فيصيح رجل الطقوس تحية للأم العظيمة، أرض يلوستون..[1]

تشارلي في حالة أفضل بعد أن شاهدنا في الصباح الباكر ننهش جسد المعتدي الأبيض حيًا، هكذا العدالة التي نفّذها أخي ليو قبل أن يعرف ما فعله الزعيم الباسل مع قاتل زوجته الحبيبة.

في الموت حياة معشَّقةٌ، كجديلة طفلة تتبادل خصلاتها الحياة مع موت ريشات غراب مقدس.

بعد الانتهاء من دفن الزعيم المحب، تنحى رجل الطقوس الخاص بقبيلة الغراب جانبًا، واصطفّ واقفًا مع الرجال، خاشعًا، ينتظر الدخول المهيب لتشارلي حاملاً الجسد المرجوم بالأحجار لأخته الطاهرة.

أقترب أنا أكثر فلا يمنعني أحد.. بجوار قبري الزعيم وزوجته، يضع تشارلي جسد أخته ويُعدّل وضع ملابسها. دمعة ساخنة تهبط على وجهها..

أعوي معلنًا منطقة القبور الثلاثة حوزًا لي، فلن يقدر على نبش القبور أي حيوان آخر. يضع تشارلي الرمز المعدني المتقاطع على صدر أخته، ثم يعتدل واقفًا.. يحلق شعر رأسه ووجهه تمامًا حزنًا وحدادًا.

يُهيل التراب فوقها بينما ينثر أفراد من قبيلة الغراب الأشواك في المسار الذي اتخذه تشارلي حاملاً جسد المتوفاة. يذبح ثورًا عظيمًا لإطعام الجالسين،

---

(١) من طقوس قبائل الغراب الحقيقية، وهم يعتقدون في استمرار الحياة بعد الموت.

www.ibtesama.com/vb

فهكذا يعتقد أبناء الأرض السوداء وهكذا يحترم أبناء نانابوزهو العظيم جميع صلات البشر بإلههم الواحد(١).

ينهار الأسمر الأصيل جالسًا، فمازالت جروحه من يوم أمس تنزّ الألم والغضب.

وفي الليل يرحل الجميع، كل يحمل جراحه.. كل يدور في فلكه، وكل يسبح في ذات الملكوت.

(١) من طقوس الأفارقة لدفن الموتى وضمان راحة روح المتوفى وعدم عودة الروح لمكان الوفاة مرة أخرى. ويظنون أن ذبح الثيران وإطعام الحاضرين منه يجعلهم يتذكّرون المتوفى فترة أطول، وبذلك يظل حيًا في ذاكرتهم.

www.ibtesama.com/vb

- ١٥ -

برادلي جولدنج

منتفخ العينين، يرتشف جايكوب القهوة في المقهى المرفق بالنزل، يقدمون إفطارًا ضخمًا يُمكنك أن تجد فيه كل شيء، بداية من البيض المسلوق إلى لحم العجل المشوي. كنا جائعين فأكلنا حتى امتلأنا، وختمنا وجبتنا بدور تلو الآخر من القهوة المركّزة.

يقلب مرافقي الصغير في مفكرة كوتنوار التي لم يتركها منذ استيقظ صباحًا وسمع مني ملخصًا لما قرأته ليلاً. الشمس تأتي من خلفي وتنعكس مباشرة على عينيه الزجاجيتين الصافيتين، عيني طفل كبيرتين يرمق بهما السماء من النافذة وهو يحاول استيعاب ما قرأه على الإفطار توًا.

ـ يا إلهي! والد تشالرز هام بابنته حبًا فشرع يتودد إليها حتى.. لقد أنقذها تشارلي من الاغتصاب على يد والدهما وهرب بها من العبودية إلى جبال يلوستون.. فضّلت هي حياة الراهبات طمعًا في التقرب إلى الرب والزهد في كل ما يمس الحياة الجسدية بصلة.. رد فعل عنيف لحادث صادم..

www.ibtesama.com/vb

ـ تلك الأشياء تحدث.. لا تقل لي إنك لم تسمع عن اغتصاب الأبناء من قبل؟!

ـ بالطبع سمعت.. لكن في كل مرة أسمع فيها شيئًا منافيًا للطبيعة البشرية كزنا الأب مع ابنته أو العلاقات المثلية أشعر بالرغبة في إفراغ معدتي..

ـ شعور طبيعي مع كل ما أكلته على الإفطار! جايكوب، العلاقات المثلية حرّية شخصية، فلا تخلط العنف مع الأطفال بتلك الممارسات. كرجل سوي، لا أقبلها على نفسي. لكن كل شخص حر فيما يقبله على جسده.

ـ مازلت أعادي تلك العلاقة الغريبة.. لا يد لي في ذلك! حتى إن الله يصبّ غضبه على من يمارسون تلك العلاقة.. لك في سدوم وعمورية مثلاً في....

ـ جايكوب.. صديقي.. هنا نفترق.. لا أؤمن بما تُحاول إقناعي به. تلك حكايات يُخوّفون بها الأطفال لا أكثر. حتى وإن صدّقت قولك، فما حدث مع ماري آن هو عنف مبني على تلك الخرافات التي تؤمن بها.

ـ ما حدث مع ماري آن هو أن تشارلي الأسمر استمر في مراقبة أخته من بعيد لحمايتها من القلاقل السياسية وقتها، صديقة لها شاهدت أكثر من مرة تلك العلاقة ووشت بها في الكنيسة، لكنّهم لم يكترثوا لكلام بلا تأكيد. إلا أن الخبر تسرب عمدًا على يد إيزابيللا الحاقدة إلى أهل البلدة، فراقبوا ماري آن وتأكدوا من وجود علاقة بين راهبة بيضاء وشاب أسود. بالطبع لم يصدق أحد ما قيل عن إنها أخته، فاستعادوا ماري آن ورجموها بأنفسهم ردعًا لأي امرأة تُسوّل لها نفسها التعامل مع السود أو الهنود حتى.. موقف سياسي عنصري أكثر منه ديني. موقف سياسي تم كساؤه بكسوة الدين البيضاء لإسكات الجميع.. يتشدقون بمقولة: نحن هنا

www.ibtesama.com/vb

لا نضطهد السود ولا الهنود، نحن نعاقب راهبة على خيانتها لعهدها مع الرب.. هل تظنهم كانوا ليهتموا لو أن الشائعة سرت أن ماري آن على علاقة برجل أبيض؟!

ـ كل ما أعرفه أن وجود تلك التعاليم التي تزعمونها هي ما شجعت هؤلاء المتعصبين على فعلتهم بل والإفلات منها.. لم تذهب ماري آن وحدها ضحية، بل عدد من الرجال من الطرفين ومذبحة أثارت العداء مع الهنود.. تخيل الدعاية السيئة لقضيتهم مع كل تلك الرؤوس مسلوخة الرأس!

ـ المشكلة دومًا في فهمك الملتوي للحقائق يا براد.. لن تفهمني أبدًا..

ـ ولا أنت ستفهمني..

نهاية طبيعية متكررة لكل محادثاتي مع جايكوب. لا يعني هذا خلافًا بيننا أو ضغينة، هي فقط نقطة لنبدأ فقرة جديدة من أول السطر..

ـ أعجبني احترام قوم الغراب لطقوس تشارلي الأفريقية.. لقد وجد الرجل أهله وحياته الحقيقية مع هؤلاء القوم.. وجد حريته وإنتماءه مع ذئاب يلوستون، بشرًا كانوا أو حيوانات..

ـ مازلت أعتقد أن كوتنوار يُضفي صبغة مثالية على قومه.. لكنها قصة جيدة على أية حال. فقد تسبب موت الزعيم المندفع لي في قشعريرة لم أشعر بها منذ سنوات جراء شيء قرأته.

ـ غريبة أن ليو لم يكن يعرف كيف انتقم المندفع من والد زوجته، لكنه انتقم من قاتل المندفع بذات الطريقة.. إن أخذنا في الاعتبار أن الحياة حلقات متشابهة متشابكة، فلابد وأن ذلك التصرف هو تكرار لتشابك حلقة لم يدركها ليو وقتها..

www.ibtesama.com/vb

ـ أو أن كوتنوار روائي جيد وأجاد التلاعب بمشاعرنا.

ـ المفكرة قديمة يا براد، كيف له أن يعرف أن أحدهم سيقرؤها؟ ولِمَ لم يسعَ لنشرها إذن إن كان راغبًا في قرّاء يتفاعلون مع كلماته؟

تركت ورقة نقدية تحت الكوب وقمنا نبحث عن متجر ثياب نبتاع منه ملابس لكلانا، ففي النهار أصبحنا فرجة لكل ذي عينين.

ابتعت لنفسي قميصًا من الجينز الأزرق بينما ابتاع جايكوب قميصًا قطنيًا مطبوعًا على ظهره Lucky no.1 ومن تحت هناك رسم دائري يبدو كمطفأة سجائر، بينما يبدو جايكوب نفسه كمراهق هارب من مدرسة حكومية.

لم ننم جيدًا، كل ساعتين كان موظف الاستقبال يفتح باب الحجرة علينا ويُطلّ برأسه ثم يخرج في صمت. بالإضافة إلى السعال المتكرر لجايكوب وكوابيسي ذات الطابع الهندي.

قررنا أن نعود للنزل وننام قليلاً بما تبقى لنا من ثمن حجز يوم شامل الإفطار. دخل جايكوب الحمام ليكتشف الكارثة تلو الأخرى إلا أنه لم يعترض. يُجيد جايكوب التعامل بقوانين أي أرض يوضع عليها. سمعته يلقي بدلو ماء الاستحمام في المرحاض ثم يخرج مطوّقًا خصره بالمنشفة، يندس في الفراش مرة أخرى، يتبادل النظرات معي ويؤرجح عينيه بيني وبين المفكرة..

ـ ماذا الآن يا جايكوب؟! أحتاج أن أنام أنا أيضًا.. لن أقرأ لك كجدة عجوز حتى تنام!

ابتسم ولم يُعلّق، أغمض عينيه وخفتت ابتسامته تدريجيًا. مرت دقائق دارت فيها عيناي مع لفات مروحة السقف. جذبت المفكرة وفتحتها حيث توقف جايكوب.

قراءة بضعة أسطر أخرى لن تضر...

www.ibtesama.com/vb

- ١٦ -

ليو كوتنوار

انهمكنا في اليوم التالي في بناء تيبي جديد لأسرة الزعيم. فخيمة الراحل يجب أن تُحرق بعد دفنه ولا يجوز لأحد استخدامها ولا أي شيء من أغراضه بعد الآن.

من لم يعرف من رجال القبيلة بشأن تيسایاك وكونها شقراء قد عرف الآن. البعض يرمقها بشفقة، البعض يكره وجود بيضاء بينهم.. والأكثرية ينتظرون زعيمًا جديدًا يُقرّر ما إن كانوا مضطرين لاضطهادها.

تركت الجمع العامل الحزين ودلفت خيمة الشامان أطمئن على أخي بيفز. حكى لي الرجال ما كان له من بطولة في الذود عن الزعيم الراحل وقتله لخيل البيض منعًا لهم من الفرار. حكوا لي كيف كان يسيطر على رجفات جسده، تلك الرجفات التي صعبت أمر قنصه من رجال البيض. كان مخيفًا كأنما تلبسته الأرواح، يرافقه باز أحمر يُشتّت عنه الضربات ويخيف الأعداء.

www.ibtesama.com/vb

ربتت على شعره الأسود الممتد بجواره وقبّلت جبينه، ففتح عينيه وابتسم. في قلبي مازلت أرى أسنان القندس البيضاء في تبسّمِه.

ـ مازال لأخيك نصيب في الحياة رغم كل شيء. أنا سعيد بما أبليته يا أخي.. سعيد بك..

انفتح غطاء مدخل الخيمة مرة أخرى، لتبزغ منه شمس ويندوجي الحارقة. تحمل بين يديها وعاءً من الحليب الطازج. ضفيرتها الطويلة تمسح الأرض في ركوعها جوار أخي.

أين كانت يوم المعركة؟ ولِمَ لم تحضر الدفن وتقصّ شعرها حدادًا كما فعلت أختها ونساء بيت الزعيم؟!

ـ أحمد الإله على سلامة زوجي.. هذا الحليب من بقرتنا المباركة..

اتسعت عينا أخي ونظر لي في دهشة وتساؤل. بالفعل لم أجد وقتًا لأخبره بأمر موافقة الزعيم الراحل على زواجه من ويدونجي، فضلاً عن ظنه لآخر وقت أن صيد الدببة كان لزواجي أنا منها. استأذنتها شاكرًا أن تترك الحليب وتنصرف، فأخي مشوّش الذهن متعب. هزت رأسها وابتسمت ابتسامة ماكرة ثم خرجت متلكئة.

تابعها بيفز حتى ابتعدت، ثم أطبق على ذراعي وهمس في غضب:

ـ ماذا يحدث؟! أريد أن أفهم الآن.. !

حكيت له مطرقًا ما فعلته مع الزعيم الراحل وكيف أنني وجدته أحق بالزواج منها، أخبرته أيضًا أنني أحب أختها الصغرى منذ أن وقعت عيناي على وجهها. مضطرًا، لم أخبره بتحذير تيسایاك، فكيف أطلب ويدونجي للزواج من أخي ثم أخبر أخي أنها غير مناسبة له؟ كيف أتحدث في أمر لا أملك عنه معلومات كافية؟!

www.ibtesama.com/vb

أمسك بيفز رأسه بكفيه وأخذت ساقه في الاهتزاز مرة أخرىٰ، ثم قام معتدلاً في جلسته وأطبق علىٰ كتفي. أهتز باهتزاز جسده العنيف، أُحاول أن أفهم ما يقوله دون أن يقتلني إحساس بالذنب والعار مرة أخرىٰ.

ـ أحمق أنت ومندفع.. أحمق.. كيف أتزوج أنا من أي امرأة؟ كيف تفعل ذلك بابنة الزعيم الذي أكرمنا واعتبرنا من قبيلته؟ اخرج.. اخرج ولا تريني وجهك مرة أخرىٰ!

تسمّرت مكاني، مثبّتًا بثقل قبضتيه وجسده المهتز. انزلقت عيناه إلىٰ أعلىٰ فبدا بياضهما، ثم ارتمىٰ علىٰ ظهرة متشنجًا يخرج الزَّبَد من شدقيه.

دخل الشامان فزعًا، فأراح أخي علىٰ جانبه وفتح فمه عنوة محاولاً إبعاد لسانه عن حلقه كي لا يختنق. تتراجع صورة أخي والقوم المتحلّقين في فزع حوله وأنا أبتعد في مشيتي العرجاء.. أبتعد ولا آبه بمن ينادي عليّ. ويدونجي ترمق الجمع وتُخفي ابتسامة تفضحها عيناها.

أقف وسط إسطبل الخيل، لا تُطاوعني ساقي علىٰ الابتعاد أكثر. مازلت الأبرع في إفساد حياة من أحب. هذا خطأ آخر لا علاج له إلا أن نغادر القبيلة مغضوبًا علينا.

يتمسّح حصاني في وجهي فأحتضنه وأريح ثقل وزني عن ساقي المريضة علىٰ كتفيه. يصهل مخفيًا صوت نشيجي المكتوم. لا حلّ لي سوىٰ أن أتردىٰ من الجبل وأُنهي مأساة من حولي وابتلائهم بي. أمتطي صهوة جوادي متوجهًا إلىٰ أعلىٰ نقطة في جبال يلوستون، فمثلي لا مكان له إلا القاع السحيق..

ـ فلتغفر لي يا إلهي، جحودي نعمة الحياة الموهوبة منك لي إلىٰ الأبد.. فلتغفر جهلي بمشيئتك ولتغفر صممي عن تعاليم الأجداد.. ارحم روحي

www.ibtesama.com/vb

المعذّبة المستحوذ عليها بروح سفلية شريرة، انثر جسدي في مملكة نانبوزهو واجعلني نسيًا منسيًا، حرّم روحي على مملكة تشيبيابوس الذئب العظيم، فمثلي لا يُغفر لشَّره أبدًا..

لآخر مرة أرى غابات وتلال وشلالات الأرض الأم يلوستون.. البخار المتصاعد من فتحات الأرض يزفر غضبًا في وجهي.. أنا المطرود من رحمة الخالق ومن قلوب مخلوقاته.

أربط شعري في عقدة خلف ظهري وأخلع عني ما يزيد عن ستر عورتي. أخي الشمس في أوج سطوعه الصيفي يُلقي عليّ نظرة أخيرة. لحظات وأُحرم الضياء إلى الأبد.

ينبض قلبي فيحجب عني الأصوات.. أغمض عينيّ وأحاول أن أترك جسدي يهوي من حالق.. دون جدوى..

مازلت مراهقًا جبانًا يرعى على حدود الموت والحياة، لا يجرؤ على الاختيار. خطر لي أن أهجر الجميع وأعيش في الجبال كما فعل تشارلي. لكن ما أنا إلا عاجز أعرج..

أجمع أغراضي وأجلس جوار الجواد بلا هدف.. تغرب الشمس عني في جلستي ذاتها، فأركب متوجهًا إلى اللامكان..

أمر على ما تبقى من كوخ تشارلي فأجده هناك، منغمسًا في الرماد، يحاول أن يحصل على ما تبقى من حاجياته. التفت لي فوجدت الحياة منسحبة من عينيه. ميت ذو قلب نابض لا أكثر.

تربع ودعاني إلى جواره فامتثلتُ.

ـ الجو جاف جدًا يا ليو.. حريق غابات الصنوبر آتٍ لا محالة.. ما كان الكوخ لينجو بأية حال.. خلال أسابيع ستتكوّن غابة محترقة من الموتى

www.ibtesama.com/vb

الواقفين، يرقبون أرواح الأحفاد تشقّ التربة إلى حياة جديدة أبدية..

ـ أريد أن أُنهي تلك الحياة الأبدية يا تشارلي، فما أنا إلا نيران تلتهم ما حولها.

ـ مازالت نيرانك صغيرة يا بني كي تعرف ما خُلقت له.. الصبر..

ـ ماذا ستفعل الآن؟ هل ستبني كوخًا آخر؟!

ـ تمّ حظر التعامل معي نهائيًا من قبل شركات تجارة الجلود. الشائعة تسري في الأنحاء منذ وقت طويل عن علاقتي غير الشرعية ببيضاء ومساعدتي للهنود.. هناك من يوصل جميع تحركاتي للبيض.. لا عليك يا بني.. كل هذا مقدّر عند الخالق..

ـ إذن؟!

ـ تركت ماري آن الحياة بحثًا عن حرية في عقيدة الثالوث المقدّس.. استكثر القوم حرّيتها عليها، وباتوا يدبّرون لها سجنًا مظلمًا عنصريًا.. تركتُ أنا الحياة بحثًا عن حرية في أرض يلوستون الطاهرة. الأرض التي عوضتني حنان أرضي السوداء التي اختُطفت أمي من أحضانها.. هل تعرف أن معنى اسم أمي (كبرياء)؟! كبرياء تمرغت أنفه في طين العبودية.. الآن يجبرونني على حياة العبودية التي أحرقتها خلفي.. لن أكون عبدًا لأحد بعد الآن، كما حصلت ماري آن على حرّيتها سأحصل عليها أنا أيضًا..

ـ ستقتل نفسك يا تشارلي؟!

ـ كيف أُلقي هدية الرب التي أعطاها لي في التراب؟ لا.. لن أبخع نفسي.. فأنا حرّ وسأجد حرّيتي في مكان ما في قلب تلك الأرض..

شرد قليلاً في القمر البازغ، ثم احتضن ركبتيه مترنحًا أمامًا وخلفًا،

www.ibtesama.com/vb

يُحدّث صغيرته ماري آن ويهدهدها.. يصف مكانها في السماء جوار العذراء المقدّسة ويترنم بأهازيج بلهجة لم أسمعها من قبل.

كانت تلك المرة الأخيرة التي رأيت فيها تشارلي المنتسب قلبًا وروحًا إلى قبيلة الغراب وأرض يلوستون.. الرجل الحرّ إلى الأبد، الذي اختار السلام والذي انتصر ذئبه الأبيض حتى النهاية..

توفي تشارلي كرو بعدها بعامين في قلب يلوستون، حيث سقط فوقه -هو والعشرات- منجم للذهب اختار أن يعمل فيه مبتعدًا عن صيد مخلوقات الله الكريمة وبيعها للبيض. كان الانهيار مدويًا وكان سببه الرئيسي إهمال المشرفين من الأوروبيين على المنجم لأعمال الصيانة.

بحث رجال قبيلة الغراب عن جسد تشارلي ولم يجدوه.. ذاب الحرّ في قلب الأم العظمى إلى الأبد.

www.ibtesama.com/vb

-١٧-

برادلي جولدينج

أغلقت المفكرة ورمقت جايكوب فوجدته ينظر لي من تحت جفنيه المغلقين. ضحك واعتدل جالسًا وعقد ذراعيه على صدره العاري أشقر الشعر.

ـ ضبطتك! لم تستطع النوم هه؟ كذلك أنا.. هناك شيء خفي في تلك الحكاية يجعلني أفكّر فيها مرارًا وتكرارًا.. على الأقل مراهقتي كانت قريبة ولأكثر من مرة أحسست فيها بالفشل وبأنني لعنة على من حولي وفكّرت في الانتحار. لكن العبء الملقى على كاهل مراهق في ذلك الزمن من صيد وحرب وزواج، يجعل مراهقتنا نحن نوع من لعب الرضّع لا أكثر.

ـ إن لم تكن تنوي النوم فلتقم وترتدي ملابسك ولنرحل الآن. لابد لنا من استرداد سيارة الجريدة والمسجّل الصوتي ثم العودة إلى دينفر قبل أن...

من بعيد عوى ذئب ردّ عليه ذئب آخر، تبع عواءهما صوت بعيد لرعد، خرجت إلى الشرفة لأبصر غيمة رمادية مرصعة بالبروق الزرقاء، لا أعرف

www.ibtesama.com/vb

إن كانت تبتعد عنا أم تقترب. جو سيء لم يمر بهذه المنطقة منذ وعيت على الدنيا سوى مرة واحدة.

كنت في الصف السادس، تلازمني نظارتي وتلة من الكتب تحت إبطي. لم أكن أحب أن أستخدم الحقيبة القماشية السخيفة التي تُصرّ أمي على أن أستخدمها، حقيبة مطرزة برسومات تُمثّل أزهارًا وأنهارًا تتوسطها زخرفة لحصان، كانت أقرب للذوق النسائي بينما تُصرّ هي على أن الرجال يستخدمونها.

حالتنا المادية صارت في تدهور مستمر، أمي تحيك السجاد ليلاً من أصواف الغنم والثيران وتبيعها للسائحين الذين يمرّون على المطعم الذي تعمل فيه نهارًا. لا أملك سوى ثوبًا شتويًا واحدًا وثوبين صيفيين. أُصفّف شعري متدرجًا طويلاً يغطي مؤخرة عنقي. حالة باردة من اللا أصدقاء واللا أعداء. مراهق لا منتمي لأي من التصنيفات الماسخة لمن حولي.

المدرسة جحيم غير المصنّفين.. يركلونك بلا سبب.. يُمزّقون كتبك ويرمونها في مياه الأمطار، أو مياه المجاري المتدفقة خلف الفصول.. سخرية من طول شعرك ونظارتك وملامح وجهك.

مراهق مبتل مُهان ينظر إلى السماء بسحبها وبروقها ويتساءل عن حكمة مَن في الأعلى مِن خلقه الناس مصنّفين، متفرّقين، كأجناد شطرنج من لونين متعاديين.

أدخل إلى الحجرة وأفتح محفظتي، لا يوجد مال كافٍ لمبيت يوم آخر هنا مع تمويل السيارة ببنزين يكفي لتوصيلنا إلى المستعمرة. جايكوب أنفق أكثر ما معه في شراء ملابس له. حُسم الأمر إذن.

أمسك جايكوب بالمفكرة في فضول وانهمك في قراءة سريعة، رفع عينين مندهشتين لي وهتف:

www.ibtesama.com/vb

ـ لو كنت مكان تشارلي لأحرقت قرية فرانكلين بأكملها انتقامًا لأختي. كما قلت للمأمور من قبل، هناك تاريخ كامل من السلمية والتخاذل يُحمِّلونه على أكتاف الغير.

ـ أراك تخلّيت عن إيمانك بهم؟

ـ لم أتخلّ عن الإيمان بقضيتهم، لكني لم أؤمن لحظة بالطريقة التي يتعاملون بها معها.. انظر، في الصفحات التالية أرى أن هناك كشفًا لسر ويدونجي.. آمل ألا أكون محقًا بشأن استنتاجي نحوها..

نصف ساعة لن تضرنا في شيء، على الأقل نكون قد تحقّقنا من اتجاه العاصفة القادمة. بدأ جايكوب في القراءة المتقطعة بالسعال، مندسًا تحت الغطاء. درجة الحرارة منخفضة، التدفئة لا تعمل. الجيوب شبه خاوية..

فلتحكِ يا جايكوب.. احكِ..

www.ibtesama.com/vb

-١٨-

ذئب

دورتان كاملتان لأمنا الأرض حول أخي الشمس. يغرس ليو عصاه في الأرض وينتظر ولادة وليفتي لابني الخامس. تلعق أنثاي كفّه وتئن. أتأمل ليو الجديد وأفخر بما فعله الزمن به. مستقلاً، قويًا، لُقّب بالصياد الأعرج. يصطاد بفخاخ ذكية ويبيع صيده في سوق الفراء لأبناء جنسه فقط. لم يتعامل قط مع أوروربي مهما كانت مغرياتهم للتعامل معهم.

شعره يمسّ الأرض كزعيم من قبيلة الغراب، يجدل فيه ريشات الغراب السوداء، ومن حجارة نهر الصخور الصفراء يجدل ضفيرتين يزينان وجهه القسيم.

لم يطء ليو أراضي قبائل الغراب من يوم غادرها حزينًا، محبطًا.

أنقل له في رؤاه ما أراه من أخبار أخيه رأس القندس، وزوجته ابنة الزعيم الراحل. مازلت أرى فيروزية العينين في أحلامه.. يخشى الاقتراب منها حتى لا تطولها لعنته.

www.ibtesama.com/vb

تتمخض أنثاي عن جروين، رماديين مثلها.. تلعقهم وتنادي إخوتهم الكبار، يلتفّون حولها ويلعقونها، يحتكّون بجسديها الغضين، يَسِمونها برائحة قطيعي الجديد المستقلّ، قطيع الينبوع الساخن العظيم، حرّاس قبور الأحرار الثلاثة.

يفتح ليو جعبته ويخرج الباز الأحمر الجريح.. امتدّ به العمر وما عاد قادرًا على الصيد أو مصارعة الذكور على الطرائد.

الباز الأحمر يحبو عند رأس وليفتي، تُلامس رأسه بخطمها. باز وُلد في الأسر لصياد محترف، فضّل الهرب والحياة الحرّة حتى تشابكت حلقات حياته وحياة ليو وحياتي. اتخذ سبيله في الدنيا وحان وقت الوداع إلى حياة أخرى قريبة.

تُطبق وليفتي على رقبته مانعة عنه الهواء، لحظات انتفض فيها جناحاه اللامعان ثم خمد تمامًا. ستجري روحه في دماء أبنائي، في غذائهم من لبن أمهم. سيتّحد في كياننا إلى أن نذوب جميعًا في تراب أمنا ونعود إلى أصل واحد.

www.ibtesama.com/vb

-١٩-

ليو كوتنوار

متلصص، مثلما كان يفعل تشارلي مع أخته ماري آن، أشاهد حياة أخي بيفز بعد عامين من الفراق. لا أجرؤ على الاقتراب، لا أجرؤ على إنزال العار من فوق كتفي..

ويدونجي تُهمله تمامًا، بيفز مجرد شبح يقبع في ظلام التيبي. العجوز الشمطاء جدّتها تضع له الطعام والشراب، ثم تعود لتُوزّع الأوامر على العائلة.

مازالت تيساياك مغطاة الوجه، تعمل بيديها على غير عادتها في حياة أبيها. الزعيم الجديد هو محارب سمين كبير البطن من محاربي القبيلة، تم تعيينه من قبل مجلس الزعماء، ولابد أنه تمّ إثبات كفاءته وولائه عن طريق الإغارة على معسكر قبيلة معادية وسرقة مواشيها وربما أسلحتها وخيولها. تلك طقوس لا تُغضب أحدًا، حتى القبائل المعادية تُمارس ذات الطقوس معنا.

وضع محزن ألا تتم طقوس الزعامة على معسكرات البيض مثلاً. أحيانًا

www.ibtesama.com/vb

أتساءل، تُرانا نخشاهم فعلاً؟! تُرانا تركنا أراضينا لهم جبنًا وإذعانًا؟

في حياتي بعيدًا عنهم بدأت أُدرك بعض الحقائق الغائبة عني، بدأت أُدرك أن البيض على حق. لابد لهذه الأراضي من حاكم قوي، ونحن لسنا بالقوة التي نُصدّر صورتها للجميع.

أستعيد قصة بيفز عن الذئب الأبيض الذي لا يثور إلا إذا انتُهك توازن عالمه، ولا أجد لها معنىً فيما نفعله نحن. أين ثورتنا حين دنّس البيض أراضينا ونساءنا وساقونا إلى رقعة خالية مسوَّرة كالمواشي؟ كيف رضينا بأن نترك أراضي أجدادنا ليقيموا عليها مستعمرات وأسواق بينما نقطن نحن الجبال والوديان المقفرة؟ ماذا فعلنا حين قتلوا نساءنا وكل من احتموا بنا؟! بل أين كرامتنا حين نبيع لهم صيدنا ونقبل بدولاراتهم المسمومة القليلة؟

أين التوزان في أن نتركهم يصطادون الذئاب والدببة للتسلية والترويح عن النفس؟!

لابد أن حكايات الأجداد هي مجرد حكايات لا أكثر، أبطالها ذئاب وقيوطات وغربان لا بشرًا..

أذكر حكاية حكاها لي بيفز وأنا بعد طفل، أرمق نيران الشتاء وألتهم سنجابًا مشويًا اصطاده لي. قال لي أن النار كانت يومًا حكرًا على الدببة. وفي يوم تركها الدببة في الغابة وذهبوا للصيد، أحرقت النيران حولها واستعرت وصارت تصرخ "إليّ بالمزيد".. مرّ عليها بشري وسمع طلبها، فسألها ماذا تريدين أن تأكلي؟ قالت الأخشاب. شرع يجمع لها من أخشاب الشمال، فأكلتها وطلبت المزيد. جمع لها من أخشاب الجنوب والشرق والغرب وهي بعد تطلب المزيد والمزيد. حتى عادت الدببة ولامت البشري على تلبيته لجشع النيران. من يومها والنيران تُرافق الإنسان، فهو الوحيد الذي يقدر على إشباع سعيرها.

www.ibtesama.com/vb

كانوا هم من يغذّون طمع البيض ويجمعون لهم من الأراضي شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، فما ذنب النار في كونها نارًا؟!

مرّت سبعة أيام وأنا أراقب أخي وحياته البائسة ليلاً. أخاف أن أقترب فيسوء الحال أكثر. لاحظت في اليوم الثامن أن ويدونجي تتسلّل من خيمة العائلة ليلاً وتُجدّ السير نحو بلدة فرانكلين. راقبتها فوجدتها تصعد على متن عربة تجرها الخيول وتختفي في الظلام. تسللت خلفها على جوادي، محافظًا على مسافة مأمونة بيننا. لم تدخل البلدة نفسها، لكن العربة توقفت عند بيت متواضع مضاء بمصابيح الزيت.

دخلت البيت فربطت جوادي وتسللت مقتربًا، عامين من التخفي عن الحيوانات أفاداني اليوم، فلم يلحظني أحد.

لم تكن هناك بيوت أخرى حوله على امتداد البصر، فقط حقول ذرة خضراء ممتدة إلى ما لا نهاية. ألصقت أذني بأخشاب المنزل فهالني ما سمعت. زوجة أخي ابنة الزعيم البطل، تُعطي جسدها لرجل آخر! سمحت لنفسي أن أعرف وجه هذا الذي تُفضّله على أخي، يُغلق حيائي عيناي بينما يفتحهما غضبي. شعره البني الطويل ينسدل على وجهها، ويظلّلها بجسده الأبيض الشمعي..

أوروبي.. لمضاعفة جرمها، الرجل أوروبي..

أوروبي كقتلة أبيها، أوروبي كقتلة ماري آن.. كقتلة أمي وإخوتي..

أوروبي كأبي تشارلي..

أوروبي كسارقي سكّيني الأولى، هدية أخي بيفز..

أنحني احترامًا لكم يا من جئتم من خلف البحار لتحتلوا سماءنا وأرضنا، نساءنا ورجالنا، أنفاسنا وأنفسنا..

www.ibtesama.com/vb

لم أعرف كيف قطعت المسافة الشاسعة إلى كوخي المتواضع في سفح الجبل بالقرب من الينبوع الساخن العظيم. انقطع بي الأصدقاء والصحبة، لم يبقَ لي إلا ذئبي وذكريات أليمة.

هل أعود وأكشف خيانتها؟ أم أترك كل شيء كما هو؟ أم أصطحب أخي لعيش معي بعيدًا عن كل هذا؟ وتيسایاك؟ هل أنا قادر فعلاً على حمايتها وإسعادها؟ أم ستطولها لعنتي المدمِّرة؟

نمت جالسًا في مكاني واستيقظت على لمسة خفيفة في ضوء الفجر الشحيح. التفتُّ فزعًا فوجدتها تيسایاك العزيزة. قمت مرتبكًا ألملم ما انكشف مني أثناء نومي، فتُعاجلني هي ببسمتها الساحرة.

ـ كيف عرفتِ مكاني؟"

ـ تنسى دومًا أنني من قبيلة الغراب وأُجيد اقتفاء الأثر.. دماء أبي مازالت تسري في عروقي

أجلستها في مأمن من الأعين وسمعت منها قصة أبيها مع والد أمها وكيف أنها لم تُصدّق ما فعلته أنا ثأرًا لقاتل أبيها، حكت لي ما خفي عليّ من أمر ويدونجي وما مرّ عليهم في عامين كاملين..

ـ بعد رحيلك أتممنا زيجة أخيك بويدونجي باعتبار أنها مشيئة الزعيم الراحل الأخيرة. لم أشأ أن أفضح سرّ أختي وأخبر أخاك، كذا فعل هو بإخفائه سرّها بعد زواجهما، فقد علم بعدم عذريتها وفضّل الصمت إكرامًا لأبيها. اختارت ويدونجي أخاك لأنها عرفت أن شهادته عن عدم عذريتها لن يؤخذ بها، فهو دائم الشرود والتشنّج والنسيان. كذلك هو غير قادر على ملاحظة غيابها أو الاعتراض عليه، دائمًا ما كانت تُذكّره بأنه عاجز وأنها رضيت به إكرامًا لأبيها ليس أكثر..

www.ibtesama.com/vb

ـ اللعينة! لا تؤاخذيني يا تيسایاك.. فهذا أكبر من إحتمالي.. وأين كانت يوم دفن والدك

– حين عدنا من مراسم دفن أبي لم أجدها، سمحت لنفسي بتتبع خطوات جوادها و تأكدت أنها كانت تلهو مع رفيقها احتفالاً بموت الزعيم!

ـ ويدونجي لم تزل تحمل ضغينة هجر أبيها لها وزواجه من الأوروبية، مازالت تعتبرها عدوًا لها. كبرت وعرفت بأمر جمالها الساحر وعرفت أيضًا بأمر عقلها الخبيث، أدركت مبكرًا أن القوة الحقيقية في أيدي الأوروبيين وهو أمر لم أدركه أنا إلا متأخرًا. في فورة شبابها وغياب الأب تركت العنان لرغباتها بلا حساب ولا رادع. لم تقدر العجوز الشمطاء جدتها على الاعتراض خشية لومها على سوء تربيتها.

لم تترك ويدونجي رجلاً خارج قبيلتها إلا وأغوته، واعتبرت رفض تشارلي لها عداءً واضحًا وإهانة لأنوثتها، فقد كانت دومًا ما تتباهى بأفعالها القذرة أمامي، عالمة أنني لن أستطيع فتح فمي بشيء من أسرارها، لن أقدر على كسر فؤاد أبي و كرامته، فوشت بأمره وأخته لرجلها من بلدة فرانكلين، هكذا حكت لي ماري آن البائسة وهي ترتجف بين ذراعيّ قبل أن يأخذوها، وتطوّر الأمر حتى دمّرت حياة الجميع وأنهت حياة أبيها على يد أوروبي معتدٍ.

لم أجد الوقت لتحذيرك إلا كما قلت لك، لا تُزوّج ويدونجي لأخيك. ولم أجد الشجاعة لتغيير ما يحدث معه الآن. مازالوا يعاملونني على أنني وصمة العار في حياة الزعيم الراحل، ولم يكرمني أحد كما كان يفعل أبي معي.. كنت أميرته وكان هو كل شيء بالنسبة لي.. أكره ويدونجي وجدتي.. وحيدة أنا من بعده.. أرمق العالم من خلف سجن قماشي. كنت أدعو الخالق كل ليلة كي يجد لي مخرجًا، فوجدتك أمامي، تُراقب أخاك و.. وتراقبني..

www.ibtesama.com/vb

احمرت وجنتاها خجلاً، وجرىٰ علىٰ سطحيهما الأملسين دمعتين تنعيان أبًا عظيمًا.

ـ هل كان أبوكِ يعرف بأمر ويدونجي؟

ـ بالطبع لا! لكان قتلها أو علىٰ الأقل لم يكن ليسمح لأخيك بالزواج منها.. كل مايعرفه أبي أن ويدونجي نزقة، مغرورة، تعرف قدر جمالها بشكل مبالغ فيه. لكنه سعد جدًا عندما وافقت علىٰ الزواج من أخيك.. لقد كان يحبكما بشكل خاص.. ليو.. أنا خائفة ووحيدة..

أمسكت يدها وقبّلتها، جسدي يشتعل وضربات قلبي تكاد تُسمع من أعلىٰ قمم الجبال. سحبَت يدها وغطّت وجهها. قمتُ أرافقها لفرستها الصغيرة وأنا أحاول أن أجد كلمات تصف ما أشعر به..

ـ تيسایاك.. خلال أيام سأعود للقبيلة، وسأعيد لك ولأخي كرامتيكما المهدرة، بعدها لن أتركك أبدًا..

ودعتها ثم عدت أرمق الدفقات المنتظمة للينبوع العظيم. ركعت تحت قبر الزعيم المندفع العالي واستحضرت وجهه القوي.

ـ أيها الزعيم، لعلّ حياتي هي فقط أداة لإسعاد تيسایاك، ربما سمع الإله الخالق مناجاتي وأنقذني من قتل نفسي هباءً. قف بجانبي أيها الزعيم ولا تجعلني أفشل ككل مرة. لن أهتك سترًا أردته في حياتك فكن بجانبي.

www.ibtesama.com/vb

- ٢٠ -
برادلي جولدنج

العاصفة قادمة لا محالة، لن أستطيع القيادة في هذا الجو، ولن أستطيع أن أُمضي ليلة أخرىٰ في النُّزُل وأُضحّي بثمن البنزين لرحلة العودة. اتصلت بالجريدة فأخبروني أنه من الصعب إرسال سيارة لاصطحابي من لاندر.. اتصلت ببيت كوتنوار فلم أجد ردًا.

عدت إلى النزل في محاولة أخيرة لحجز يوم آخر ولنجد حلاً غدًا. نظر موظف الاستقبال الهندي لي ولجايكوب ثم أعاد لي نقودي وهويتينا في اشمئزاز.

ـ آسف.. لا أستطيع..

ـ ولم؟!

ـ إن أردت حجزت لك غرفتين منفصلتين.. ما فعله راميريز ليلة أمس من حجز حجرة واحدة لكلاكما كان تهاونًا منه..

ـ ما التهاون في ذلك؟ الحجرة مزدوجة، ونحن لا نملك إيجار غرفتين مستقلتين

www.ibtesama.com/vb

ـ اعذر كلماتي أيها الغريب، الشاب يبدو صغيرًا، ربما قاصرًا كذلك.. لا نريد مشاكل من تلك النوعية هنا. هذا نزل محترم تؤمّه عائلات.....

ـ ثانية واحدة.. راميريز هذا ظلّ يفتح علينا باب الحجرة ليلة أمس ولم يرَ ما يُشين.. لقد كان ذلك خطأ مني إذ سمحت بذلك التعدّي على خصوصياتي! أنا صحفي محترم وهذا المصور الخاص بالجريدة!

ـ اعذر كلماتي، لكن كل أولاد الزواني الذين يمارسون تلك العلاقات يعملون في وظائف ما،غالبًا ماتكون محترمة! هذا لا يدلّ على شيء!

ـ وسفري مع شاب واضطراري لحجز غرفة واحدة معه لا يدل على شيء أيضًا! لحظة واحدة.. لِمَ أناقش قذري العقول أمثالك من الأساس؟! نادِ مدير هذا الإسطبل فورًا..

تقدّم رجل خمسيني من النزلاء وهو يُطقطق بلسانه، يعتمر قبعة تكساس الشهيرة، لكنه هندي ككل شيء هنا..

ـ اهدأ أيها الشاب.. هذا كلام لا يليق ولا نود لمديرة النُّزُل أن تسمعه.. سامحني يا بني، ربما كانت علاقتك بصديقك علاقة عمل عادية، لكنكما تبدوان غير متآلفين.. حتى فرق السن بينكما غير منطقي. من يراكما في غرفة واحدة ربما يظن أن... أنت تفهمني..

ـ لا.. لا أفهمك ولن أفعل.. سأكتب تقريرًا عن نُزُلكم فور عودتي للجريدة، ولسوف نرى..

سحبت نقودنا وهويتينا ودفعت جايكوب أمامي، قاطعًا اعتذارًا منه لموظف الاستقبال.

صفقتُ باب سيارة بيكوورث خلفي وأخرجتها من ساحة السيارات

www.ibtesama.com/vb

الخاصة بالنُزُل، لكنني راعيت أن أقف في أقرب مكان يُتيح تلاقي عيناي وعينا الموظف اللعين..

ـ براد، فلنبتعد.. لا تبحث عن المشاكل الآن..

ـ اصمت يا جايكوب.. هذا واحد آخر ممن يكرهون المثليين ويظلّ يرمق أي رجلين من خلف منظار مريض مهووس..

صمت جايكوب، بينما مسحت أنا زجاج نظارتي وثبتت عيناي على وجه موظف الاستقبال.. رأيته يشير إلينا ويتحدّث مع رجل قبعة تكساس. انتظرت حتى نظرا إليّ ثم طوّقت كتف جايكوب وقربته مني وأنا أبتسم أسخف ابتسامة عندي. فوجئ جايكوب بفعلتي، فتملّص مني ضاحكًا، هاتفًا "كفى بالله عليك!

مرت دقائق وأنا أُثبّت نظري في نظر موظف الاستقبال، لم أفُق إلا على هاتفي يرن.. رقم منزل كوتنوار..

ـ مساء الخير، لقد اتصل هذا الرقم بي، من تكون؟

ـ سيد كوتنوار، أنا برادلي جولدنج.. معذرة على الإزعاج..

ـ لا عليك يا بني.. كنت سأطلب من المأمور أن يبحث عن رقمك عندهم على أية حال..

ـ هل حدث شيء؟!

ـ هناك خبران سيئان، لا أعتقدك ستعبأ بأولهما، سأنتقل لثانيهما مباشرة.. سيارتك اختفت من مكانها أمام ورشة هومر ليبرسون!

www.ibtesama.com/vb

- ٢١ -

ذئب

كان مهر تيساياك هو ما شغل ليو عن وحدته. لأول مرة يحاول أن يجمع أكبر عدد من الثيران البرية حية. صنع سياجًا وشرع يقضي وقته مابين محاولة جر القطعان إلى داخل محبسها، ومابين ترويضها وإطعامها.

ما يفعله ليو هو فطرة تسري في دمائه كما يسري الصيد، لكنها أقرب لما أفهمه أنا عن التوازن.

لم يكن أحد في القبيلة يعرف مفاجأة ليو سوى صديقه القديم من مرابط الخيل.. مع مغرب الشمس وأفول القوم إلى خيامهم، فتح صديق ليو سياج مواشي القبيلة شبه الخالي، وارتفع الغبار في السماء تحت حوافر الثيران.

خرج الرجال والنساء على الصوت المتصاعد، يُظلّلون أعينهم بأكفّهم ويُدقّقون النظر في مغرب الشمس.

تعالت الشهقات حين أبصروا من مكان القرية العالي عشرات الثيران تعدو تجاههم، يحدّهم قطيع من الذئاب تتراوح ألوانها من الذهبي إلى

www.ibtesama.com/vb

الرمادي الأشهب من ثلاثة جهات، ويتقدّمهم في براعة الصياد الملقب بـ(الأعرج)..

لم يكن تحوّل ليو غريبًا على بعض رجال القبيلة الذين رأوه أكثر من مرة في سوق الفراء واحترموا اختياره لحياة الجبال. لكن ما أثار دهشتهم هو عودته المهيبة المفاجئة.

لم نتعدّ أنا وقطيعي حدود القرية، بينما عبرت الثيران إلى مرعى القبيلة المسيّج. ترجل ليو ومشى نحو الزعيم الجديد، الذي ابتسم له مرحبًا، ثم تابع المشي حتى أخرج أخوه رأس القندس الذاهل من خيمته.

وقف ليو أمام حبيبته تيسایاك وأزال غطاء وجهها، ثم رفع وجهها عاليًا بأطراف أنامله..

كان مهر ويدونجي هو الموت، بينما مهر تيسایاك هو الحياة.

لن يكون لها أن تُغطي وجهها بعد اليوم، ولا أن تستشعر عارًا لا يد لها فيه. تيسایاك هندية الروح، ابنة الزعيم المحب وزوجة الصياد الأعرج الشريف.

تيسایاك هي الروح الشفافة التي أعادت الحياة لقبيلتها ولحبيبها.. حكايا الأجداد لا يُشترط فيها أن تكون قد حدثت، ربما هي نبوءة غير محدودة المكان ولا الزمان.

واحدة فقط لم يرقها ما يحدث، شممت في رائحتها غضبًا وحقدًا لم أعتقد أن البشر قادرين على الشعور بهما. أستشعر خطرًا على أخي ابن نانبوزهو.. خطرًا عظيمًا..

لم أبتعد كثيرًا عن القرية وإن عاد قطيعي إلى حوزنا. عرَّف ليو وليفته إليّ، نظرت تجاهي ولم تُثبّت عيناها في عينيّ. ابنة هندي أصيل تعرف كيف تُعامل أخاها الذئب.

www.ibtesama.com/vb

لسنا كالكلاب، نتواثب ونلعق أيدي البشر، ولا كالأسود والدببة نكره توجدهم حولنا.. نحن، ذئاب يلوستون، فقط من عرفنا الصلة بيننا وبين البشر، وبين البشر والكون. ثلاثة أشياء هي أصل رباط أي مخلوق بكونه.. الشيء الأول هو أصله، والثاني هدفه الذي خُلق من أجله، والثالث هو وسيلة تحقيق مبتغى الإله من حياته.. وكانت تلك الأشياء الثلاثة هي لعنة أبناء نانابوتزهو إلى الأبد.

مابين غياب التعلق بالأصل، وعدم وضوح الهدف، وتخبّط اختيار الوسيلة، يتأرجح كل من مررت بهم في حياتي القصيرة من البشر، أعرف أن البشر جميعهم في أرجحتهم تلك آبدون.

أثناء الإعداد لزفاف ليو طلب من الرجال أن يبنوا معه قبرًا رمزيًا لأخينا تشارلي، زينوه بألوان قوس قزح السماوية وحفر عليه أخي ليو بسكّينه كلمات، أنبتت من أعين الرجال دمعًا متأثرًا.

شيء واحد ظلّ يُعكّر على ليو صفو أيامه السعيدة، علاقة ويدونجي بأخيه وبالأوروبي. تحيَّر كثيرًا في تأويل نظراتها إليه. فتارة هي حقد، وتارة شوق أنثوي، وتارة إغواء خبيث.

حتى اليوم الذي سبق زفافه بعروسه، جاءته ويدونجي في جلسته المعتادة خلف قبر تشارلي الرمزي..

www.ibtesama.com/vb

- ٢٢ -

ليو كوتنوار

.... أتحدّث إليه، فهو حي يسمعنى وإن كنت في عالمي حبيس قدرات جسدي المحدودة. هو الأخ الذي عوّضني غياب أخي، وهو الأب الذي لم تره عينا طفولتي، والأرض التي تتشبث بها جذوري. هو "تشارلي، الغراب الحرّ" كما حفرتُ على قبره.

أهمس أغنية حزينة تتحدث عن البرد والثلوج التي غطت أراضينا منذ زمن بعيد.. ترجَّت الكائنات الغراب أن يطير لملاقاة الخالق في سمائه، فيطلب من فضله أن يلغي وجود البرد من على ظهر الأرض. طار الغراب وقتًا طويلاً حتى وصل للإله وسأله مسألته، فأجاب الإله أنه لا يمكن أن يلغي وجود البرد، فالبرد والثلوج مخلوقات من مخلوقاته، لها روح وحياة ولا يجوز التخلص منها. لكنه أهداه عودًا طويلاً من الخشب، أشعل طرفه من الشمس وحثه على العودة سريعًا للأرض قبل أن تحرقه النار.

طار الغراب، وفي طريقه اشتعل ريشه الملوّن، لكنه تحمّل حتى وصل إلى

www.ibtesama.com/vb

الأرض فأهدىٰ للكائنات النار يستدفئون بها. فانشغلوا في فرحتهم ونسوا الغراب المتفحم.

أوحىٰ الإله للغراب أن ثمن تضحيته لإسعاد المخلوقات هو الحرية الأبدية له، فريشه الأسود جراء احتراقه لن يجعل أبناء البشر يبغون حبسه للزينة، وطعم لحمه المر المتفحم لن يجعل الحيوانات ترغب في أكله. هو الغراب الحر لا يُستعبد من إنسان، ولا يؤكل من حيوان..

أتأمل تاج الريش الخاص بي وأرىٰ باطن ريش الغراب الأسود، يضوي بألوان متداخلة تُذكّر المخلوقات بتضحيته.

تشارلي، هو غراب يلوستون الحر..

ظهر ظل خلفي فأجفلت، كانت ويدونجي في أبهىٰ زينتها تركع بجواري في الظلام. أبعدت جسدي قدر الإمكان عن لهيبها واسترجعت ثأري منها في قلبي، فهدأتُ..

ـ ليو.. مبارك عليك أختي.. تليق بك.. بل تليق بك أي أنثىٰ علىٰ وجه الأرض..

ـ أشكرك، يازوجة أخي..

ـ أخبرك سرًا؟ عندما استدعاني أبي وأراني فراء الدب وحكىٰ لي أنك من أحضرته، دق قلبي فرحًا، ظننت أنك من تريد الزواج بي.. لك سحر خاص لم أره في أعين الرجال الآخرين.. أرجو أن تعذر اندفاعي، فاليوم آخر فرصة لي كي أبوح لك بمشاعري، وأعدك بعدها أن أصمت للأبد. فأنا زوجة رجل تحمل دماءه في عروقك، وهو رجل نبيل طيب.. لا ذنب له في مرضه..

ـ ولا ذنب لك أيضًا يا ويدونجي.. يمكنني أن أتحدث مع جدتك

www.ibtesama.com/vb

والزعيم ونرىٰ طريقة للفصل بينكما، فتتمكنين من الزواج بآخر.. هذا حقك... وحقه.

لا أعرف إن كانت قد فهمت مغزىٰ كلمتي الأخيرة، لكنني كنت صادقًا في عرضي هذا. فلتبتعد عن أخي وتفعل ما تشاء. أخي في حالة يُرثىٰ لها، لا يعرف أحدًا ولا يردّ حديثا. سمعت أن هناك أطباء يعالجون حالات مثل تلك في الولايات التي انضمت للاتحاد علىٰ الساحل الشرقي. مسافة شاسعة هي، لكنني سأفعل كل ما يمكنني كي أسافر به إلىٰ هناك.

أغمضت عيناها وأرجعت رأسها إلىٰ الوراء. جمال مهيب كجمال الأفاعي.

ـ وهل يحق لي الابتعاد عن رجل يحمل جزءًا من روحك؟ أعرف يا ليو ما تعرفه عني، لا تنسَ أنني، كأختي تمامًا، هندية.. وأبرع في اقتفاء الأثر.. أعلم برحلات أختي إليك، وأعلم بمراقبتك لأخيك.. ولي.. أثر مشية شاب أعرج هو شيء ظاهر لكل ذي عينين، ولا أقصد بذلك إهانة لك يا ليو.. أبدًا.. لطالما كنت رجلاً كاملاً في نظري..

ـ سأعتبر صراحتك قبولاً لعرضي.. سأُفرّقك عن أخي وإن أردت أن تتزوجي الأوروبي فهو حقك أيضًا، طالما كانت يداه نظيفتان من دمائنا.

ـ وهل يكون الأوروبي مثل بطل كاد أن يضحي بحياته وسعادته مرات ومرات من أجل من حوله؟!

يا لكلامها! تأثير مدوّخ يجعلني أغوص أكثر في عينيها السوداوين.. أنا؟ بطل؟ لم أرَ وجهة نظرها من قبل، ولم أكن أعلم أن هناك من ينظر لي علىٰ هذا النحو..

تقترب مني وتهمس في أذني.. رغبة أنثوية شبقة تطالبني بكل ما ظننت أنني لا أملكه.

www.ibtesama.com/vb

مرت الليلة معها كحلم، كليلة مع الأرواح السحرية نطوف في ملكوت لا ينتهي من اللذة. هتكت أستار حيائي، فما عاد ما يستر كبتي. لأول مرة أقذف ذئبي بحجر أدمىٰ رأسه، فلا تنقصني عيناه اللائمتين وعواءه المشَتِّت.

فلتتركني، فأنا اليوم أحيا، ويحيا فيّ اكتشاف نفسي من جديد..

ستة أيام في جنتي الملعونة، أحضان ويدونجي الشهية.. ألاعيب الهوىٰ التي تتقنها أبعدتني عن لعبتي البريئة فيروزية العينين.

تم الزواج وأنا بعدُ ذاهل في خبايا الأنثىٰ المحنّكة والأفعىٰ البهية، ويدونجي. لها بهاء الأرواح الشريرة وقوّتها، وقدرتها علىٰ النفاذ والاحتلال الناعم المهين.

في تقلبي في نعيمها تعدني الغنىٰ، والنفوذ والسعادة.. تُقبّل جروح جسدي بشغف وتقديس.. تتعلّق في خصلات شعري الطويلة كطفلة تتأرجح.. أرىٰ في عينيها أنا، الزعيم المهيب صحيح الجسد سديد الرأي.. أرىٰ في عينيها أنا.. فقط..

أهديها قلادتي التي يتوسطها مخلب الباز الأحمر، فتُطوق بها رقبتها وتُقبّلني، أذوب مرات ومرات في عالمها..

في مساء اليوم السابع لم تأتِ، ولم أجدها في القبيلة. في غياب ظلماتها أبصرت تيساياك الذابلة الصامتة. في غياب ظلماتها أبصرت كم أن تيساياك شاحبة، بيضاء.. يغيب عنها الذهب المنسكب في جسد أختها، والليل المنسدل في شعرها، والغموض في حلكة عينيها.

أنام منصتًا لسكون الليل في الخارج، أرىٰ تقلّب النجوم فوقي في السماء البادية من الفتحة العلوية للتيبي. تنسل بجانبي وتضع يدها الصغيرة علىٰ

www.ibtesama.com/vb

صدري، ثم تقترب حثيثًا لتُريح رأسها حيث أشمّ رائحة شعرها الممتزج بزيوت الزهور.

ـ حبيبي.. ما الذي ينقصني كي أوقظ البهجة في أعماقك؟ ما الذي يؤرقك؟ فلتسكبه على مسامعي ونم قرير العين؟

ـ لا شيء.. لا ينقصك أي شيء.. فقط يشغلني حال أخي..

ليست غبية فتُصدّق كذبي الجلي، فمنذ عودتي وأنا أعلم حال أخي، فما الذي جدّ عليّ بعد زواجي منها؟

مدت يدها تتحسس موضعًا بذاته تحت سرّتي، أجفلت لتصرفها، فسحبت يدها مقطبة حاجبيها، تحتهما اغرورقت عيناها بدمع متحجر..

ـ لأول مرة تصدق ويدونجي في شيء..

قامت تعدو خارجة من الخيمة، كشفتُ بطني لأجد جرحًا غائرًا قديمًا في بطني، لم ينكشف جسدي لأحد إلى هذا المدى سوى لويدونجي..

ناديت على تيساياك مرة ولم أكرر النداء. ماذا سأقول لها؟! خرجت مترنحًا فلم أجدها أمامي. أعرف أن ليس لها سواي فتطعنني وحدتها.. لقد عاد لي ليو القديم، النار التي تحرق كل من يقترب منها..

كالمخمور، أترنح حتى أصل إلى خيمة أخي القريبة، أفتحها وأُلقي بنفسي جواره. يفتح عينان محاطتان بالسواد والتجاعيد الكثيفة، عينان زجاجيتان لا تدري من أكون.

أمسكت بفكّه ووجهت وجهه إليّ، كنت غاضبًا، غاضبًا وأود لو أصب لعناتي على البشرية جميعًا.

أخذت أكيل له اللكمات وأضرب صدره، لا أرى ملامحه بل أرى

www.ibtesama.com/vb

ملامحي أنا في وجهه.. مرآة تزهو وتنطفئ في زهوي وانطفائي.. رجل فاقد الأهلية تتلاعب به شيطانة..

ارتميت على صدره، عاجزًا عن البكاء، عاجزًا عن التفكير، عاجزًا عن الكذب على نفسي بأن ما فعلته مع ويدونجي كان على وعد منها أن تجعلني ثريًا، قادرًا على علاج أخي. قادرًا على محو كل ما تسببت فيه برعونتي. وعد منها أن تجعلني سيدًا وسط مجتمع البيض، وسط السادة الحقيقيين للأرض.

ويدونجي وضعت أمامي مرآة رأيت فيها بطولاتي الزائفة، ورأيت فيها ضعفنا وخنوعنا، مرآة سمحت لنفسي من خلالها الانغماس في قاع الملذات عقابًا ومهانةً..

www.ibtesama.com/vb

- ٢٣ -

ذئب

لم أستطع المشي أكثر بسبب نزيف الحزن من قلبي، لا نزيف الدم من رأسي. ارتحت على ضفة نهر الحجارة الصفراء، أغسل دمائي فيه وألعق قائمتي ثم أمسح بها على رأسي مطببًا جراحي.

لم أعد بعدها إلى قرية قبيلة الغراب، فتلك معركة ما كان لي التدخل فيها، معركة ابن نانبوزهو وشيطانه القديم. اللعنة الثلاثية لإجابة أسئلة الحياة للبشر، من أنت، وماذا تريد، وكيف تصل.

زعزعت الشيطانة كينونة ابن نانابوزهو، وغيرت قبلته وطريقه بإغواء واحد خبيث.

غادرت مجرى النهر وسكّانه، وقطعت المسافات الشاسعة حتى وصلت حوزي عند الينبوع العظيم، حيث أشجار الصنوبر الصغيرة تحيط بالقبور الثلاثة كعمل صالح.

مرت إشراقات أخي الشمس الواحدة تلو الأخرى، حتى وجدت

www.ibtesama.com/vb

ليو مع رجال من قبائل الغراب يحملون المشاعل وينادون باسم تيساياك. تحاشيت ملاقاة ليو، إلا أنني وجدت عيناه تبحثان عني في كل مكان. لست غاضبًا، لكنني لا أفهم أحيانًا دوافع البشر وتعقيداتهم. مازال في نفسي يد ممتدة إليه لكنها لا تجد ما تتمسك به.. لا تجد روحًا تتعلق بها.

يبدو التعب وطول المسافة على القوم، فترجلوا وحطّوا رحالهم لقضاء الليلة وتذكّر مآثر زعيمهم الراحل. بعدما نام الجميع وجلس من بقي للحراسة حول النار، اقترب ليو من قبر الزعيم ولم يجد ما يقوله، فمسح على وجهه وانهار راكعًا منكّس الرأس.

بلا مقدمات، امتطى جواده ولم يردّ على نداء رفقائه، لقد حدّد ليو في هوجة غضبه على نفسه مساره الجديد، فانتصر ذئبه الأسود أخيرًا.

www.ibtesama.com/vb

- ٢٤ -

بردالي جولدنج

يقرأ جايكوب لعله ينسيني همّي وثورتي على الجميع، اختفت سيارتي، العاصفة مازالت تدوي في الأفق وتصبّ السماء لعناتها فوق سطحنا الصفيحي، إدارة الفندق تعتبرنا شواذًا يستوجب وجودنا الطرد.

ذكريات لا حصر لها تُغلّف كلمات كوتنوار في مذكراته، أحيانًا أحسبه يتحدث عني وأحيانًا تبتعد به الخطا في عالم سحري لا يمت للواقع بصلة.

ويدونجي تتقمص دور الشيطان المغوي في تلك القصة، لأول مرة يعترف كوتنوار أن هناك هنودًا خبيثين، لأول مرة يعترف بتقصيرهم وتهاونهم.

يرن هاتفي مرة أخرى، رقم أبي الذي حاولت الاتصال به أمس، أمس؟ لِمَ أشعر أن يومًا في وايومنج بعشرات مما نعدّ خارجها؟! شعور مقيت بأنني حييت أكثر من حياة وحلّت روحي في أجساد عدّة خلال ذلك القرن المكون من أربع وعشرين ساعة.

www.ibtesama.com/vb

خرجت من السيارة ووقفت تحت الأمطار أحاول أن أجد مستظلاً، فتحت الخط فأتاني صوت سيدة في خلفية من التشويش بسبب العاصفة..

ـ نعم يا سيدي، هل أنت السيد برادلي؟ وجدت رقمك في الصفحة المفتوحة جوار سجل الهاتف الخاص بـ....

ـ من أنت؟ أنا برادلي جولدنج

ـ آه.. نعم.. أنا صديقة قديمة لآرون، السيدة كورا رافاييل.. لدي خبر سيء أرجو أن تتماسك.. لقد وجدنا والدك ميتًا في شقته أمس.. لا توجد شبهة جنائية في الموضوع فهي أزمة قلبية وكان وحده، فلم نعلم بوفاته إلا بالصدفة.. تقبل تعازيّ لك.

ـ حسنًا.. أشكرك.. هل تمّ دفنه؟

ـ ليس بعد.. يمكننا أن ننتظرك حتىٰ تأتي..

ـ لا أدري.. هلا تركتِ لي رقمك؟ أحتاج بعض الوقت كي أستجمع أمري..

دخلت السيارة وكتبت رقمها في دفتر رسم جايكوب. جلست بعدها مبتلاً محدّقًا في شاشة الهاتف.. (آرون - مدة المكالمة ٥٤ ثانية).. ربما لو سجّلت اسمه علىٰ هاتفي (أبي) لصار لدي ذكرىٰ عن آخر مكالمة وردت إليّ منه، حتىٰ إن لم يكن هو المتصل.

ـ براد.. ماذا حدث؟

ـ توفي أبي.. فلنذهب من هنا، علينا إحضار سيارة الجريدة أولاً ثم سأجد وسيلة لتقلني إلىٰ شايان[1]، لابد وأنه سيدفن هناك في مقابر أسرته..

---

(١) شايان هي عاصمة ولاية وايومنج، وتقع في أقصىٰ الجنوب الشرقي للولاية.

www.ibtesama.com/vb

يمكنك العودة أنت بالسيارة إلى دينيفر، هذا إذا وجدناها من الأساس.

ـ آسف جدًا لذلك.. تعازيّ.. لو معي رخصة قيادة لعدت أنا إلى كوتنوار ولرحلت أنت من هنا إلى شايان، الطريق أقرب من هنا..

ـ لا عليك....

تدور السيارة، فتتهادى بنا في طريق ٢٨٧ المؤدي إلى سانت ستيفنز.. ثيران البيسون تذكّرني برائحة السجاد اليدوي الذي كانت تصنعه والدتي من فرائها.

تُرى، هل يجتمع الموتى في مكان ما كما يزعمون؟ أم إن أعوامًا من الكد والعذاب في تلك الأرض تذهب هباءً منثورًا في لحظة واحدة؟

إن كانت هناك سماء حيث يجتمع الموتى، أو مملكة الذئب تشيبيابوس حتى، هل تتسامح الأرواح فيما جنته في حق بعضها البعض؟ أم تستمر البغضاء في الأنفس إلى الأبد؟

أخرجت علبة من السجائر المحلية التي لم أجد سواها هنا، أولد جولد سيجاريتس.. قديمة جدًا قدم شركة لوريللارد نفسها. سيجارة واحدة كفيلة بقتلي.. أتمنى ذلك!

ـ جايك.. اقرأ لي.. بلا أي تعليق، اقرأ...

ـ ... الثاني والعشرون من نوفمبر، ١٨٣١..

www.ibtesama.com/vb

- ٢٥ -

ليو كوتنوار

من شرفة المنزل الخشبي الصغير في بلدة فرانكلين، أبصر عودة آهاب وأصدقائه الصيادين، محمّلين بالخبز الساخن والمعلبات وصفائح القهوة المطحونة، فأُزرر قميصي وأشدّ على كتفيّ الحمالتين الجلديتين للسروال ثم أفتح الباب منتزعًا ابتسامة مؤلمة.

يجلس آهاب ويخلع قبعته ثم يفتح الصناديق ويطوّح لأربعتنا أنصبتهم من القهوة والتبغ.

أجلس صامتًا أنقل نظري ما بين علب التبغ وصفيحة القهوة. أمرّن إنجليزيتي في قراءة المكتوب على العبوات..

تبغ لوريلارد (هوجزهيد - منذ ١٧٨٩).. ورسم لهندي يدخّن الغليون، واقفا جوار برميل خشبي لا أستطيع قراءة المكتوب عليه..

قهوة دوي إجبيرتس.. منذ ١٧٥٣.. رسم لفتاة شقراء تصبّ القهوة في

www.ibtesama.com/vb

أقداح. لا أستطيع التدقيق في كلا العبوتين، فكلاهما يحملان ذكريات لا أقدر على تحمل استرجاعها..

يستلقي آهاب -الأوروبي بني الشعر صديق ويدونجي- على الأريكة، ويعدّ الدولارات موزعًا الأنصبة، نصيبه هو الأكبر بلا شك، لكن ما أعطاه لي يفوق ضعف ما كنت أحصل عليه أنا جراء بيعي للفراء الذي أصطاده.

ـ أفكر جديًا في الانتقال للعيش في الولايات المتحدة شرقًا، رأيت إعلان خطوط القطارات الجديدة وأحلم بركوب أحدها. نحن في منطقة اللاشيء هنا.. لا شيء يصلنا إلا ما نذهب نحن إليه ونحضره، حتى القهوة تصلنا من تاجر هولندي..

في الغالب لا يصمت آهاب ولا يكلّ حتى يسقط نائمًا مكانه. يتحدّث عن الفتيات ذوات الفساتين التي تضغط على صدورهن، وعن السادة ذوي القبعات العالية.. عن بريطانيا العظمى حيث جاء أبواه، وبالطبع عن الفخاخ الجديدة التي أُصمّمها لهم.

من يوم اختفاء تيسایاك وقد طُردت من جنتي الأرض والسماء إلى الأبد. أنا الملوث الخاطئ المنغمس في الملذات المحرّمة.. أنا التي تكرهني أرض الحجارة الصفراء..

لم أعد قادرًا على العودة إلى قبيلة الغراب، ولن أقبل أن أُلوّث أرض الغابات بخطواتي. لم أعد لائقًا إلا للعيش على أرض الأوروبيين، أسلخ جلدي كل يوم وأمرغه في تراب بلدة فرانكلين وأهلها. يجب لهذه الروح أن تُعذّب.. يجب.

كانت ويدونجي عند اتفاقنا، أصمت أنا عن علاقاتها بالبيض، بينما تُعرّفني هي على أصدقائها فيُسهّلون لي الحياة ويشركونني في صيدهم دون أن أطأ أراضي يلوستون الطاهرة مرة أخرى.

www.ibtesama.com/vb

خطتي تكمن في جمع أكبر قدر من المال والذوبان شرقًا في أرض المجد القديم[1].

هذا العام انضمت ولاية ميزوري للولايات المستقلة، الزحف مستمر والبقاء للأقوىٰ. سرعان ما ستذوب هويتنا في الأمواج العاتية القادمة من الشرق.. فقراري هو القفز مباشرة في أحضان مدّ العلم المخطط ذو النجوم الساطعة والموت في براثنه.

أعيش مع آهاب في منزله الجديد وسط بلدة فرانكلين، أما بيته الخشبي القديم فهو ملكية مشتركة له ولأصدقائه لقضاء أوقاتهم الحميمة مع الفتيات من كل نوع وأرض.

توقفت ويدونجي عن الظهور في البلدة منذ أشهر طويلة، ربما أرحل أنا في الربيع القادم وأودع تلك الحياة القديمة.

كانت وظيفتي مع الصيادين الأوروبيين هي تصميم فخاخ جديدة لهم، و تعليمهم حيل الحيوانات في الفرار. انتعش صيدهم بسببي لذا تحمّلوا نوبات غضبي وتوحدي.

ـ ليو، ربما أحتاجك الليلة في تحنيط حيوان فريد، لك في بيعه نسبة النصف.. سيشتريه مني ثري إسباني من أوريجون. سيحضر بيللي ما تبقىٰ من الفراء المجفف والرأس المقطوع من كوخ الصيد وسأمر عليك لاصطحابك الساعة السابعة..

لرؤوس الحيوانات المحنطة أسعار باهظة.. يمكنني إذن الرحيل شرقًا الأسبوع القادم إذا صدق آهاب وأعطاني المبلغ الذي وعدني به..

سأتخلص قريبًا من روحي القلقة وأعيش. كفاني موتًا كل يوم منذ معركة

---

(١) يُدعىٰ علم الولايات المتحدة المجد القديم أو old glory.

www.ibtesama.com/vb

نهر الدب.. كفاني ضعفًا وعرجًا.. كفاني استعبادًا من خونة بلدة فرانكلين..

عند العصر شعرت بثقل يجثم على قلبي.. خرجت أتمشى، أشاهد المحال وأسمع ثرثرات الرجال من خلف زجاج دكان الحلاق. أخذتني قدماي إلى كنيسة فرانكلين.. هل حقًا كنت هنا منذ خمسة أعوام لا أكثر؟!

دلفت إلى الدفء في الداخل ولم أعرف وقتها لِمَ. التقيت كهلاً في ثوب كنسي، هزّ رأسه لي وتقدم نحوي. لابد أنه يعرف أنني لست من رعايا كنيسته، فعاجلته قبل أن يسأل:

ـ هل يمكنني الاعتراف بشيء إذا كنت غير مسيحي؟! هل سيسمعني ربكم؟

ـ هو ربنا جميعًا يا بني حتى لو لم تؤمن به.. تعالَ معي إلى حجيرة الاعتراف.

ـ لا داعٍ.. لقد.. لقد قتلت ذئبي..

ـ معذرة يابني، لم أسمع جيدًا..

احتبست الكلمات في حلقي، فتركته وانصرفت وسط نظراته المندهشة. رسوم الملائكة على الحوائط تُمزّقني لومًا، ليس لي أن أطأ مكانًا يذكرون فيه اسم الخالق.

دخنت ما يقرب من نصف علبة الطِباق وشربت ما استطاعت معدتي تحمّله من القهوة. ثم شرعت أرقب غروب يوم الثاني والعشرين من نوفمبر.. يوم أذكره جيدًا..

في طريقي مع آهاب إلى بيته خارج فرانكلين، شعرت بمعدتي تتقلّص أكثر من مرة مع دوار لعين حتى ظننت أنني أموت. تماسكت حتى أُتمّ عملي وأقبض مالي في أقرب وقت.

www.ibtesama.com/vb

سبقني آهاب يطرق الباب وهو بعد لا يكف عن الثرثرة..

ـ الثري الإسباني كان صيادًا، اصطاد مع صديق له أربعة ذئاب من قطيع مكوّن من ستة ذئاب في ليلة واحدة منذ ما يقرب من خمسة أعوام، لم يستطع يومها الظفر بالذئب القائد وقد أفسد أحد ذئاب القطيع كل فخاخه الأخرىٰ....

فتح بيللي الباب سادّا بجسده الضخم الرؤية عنا، فقط أرىٰ كومة من الفراء علىٰ المنضدة الخشبية في المدخل..

ـ .. ذئب ذكي هو، حيّر جميع صائديه وكأنه يعرف كل حيل الصيد في جعبتهم.. لعلك قابلته يومًا ما، فهو في النطاق الذي اعتدت أنت الصيد فيه.. الفضل في صيده يعود لفخاخك الجديدة..

دعني أقدّم لك.....

أزحت بيللي من أمامي فتراجع يضرب الجدار بظهره متعجبًا.. علىٰ طاولة التحنيط يقبع رأس ذئب ذهبي، بين أذنيه أثر لجرح غائر أعرفه جيدًا.. عيناه الذكيتان فقدتا بريق الحياة، لكنها مازالت تعرفني من خلف نافذة الموت..

ـ ... الرأس المقدسة للجرو الحفّار!

www.ibtesama.com/vb

الفصل الثالث

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb

" متموضعٌ في برزخِه الوَسَطي..
كيانٌ حالك الحكمة، وقِح العَظَمة!
ذو معرفةٍ عظيمة بجانب الشك،
وذو ضعفٍ تجاه التَحامل المتفاخر..
متأرجحٌ بين الحركةِ والسكون،
بين رؤية الربّ أو رؤية المسخ..
بين اختيار الجسد أو اختيار الروح.."[1]

(١) من قصيدة أليكساندر بوب "مقال عن الإنسان".

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

- ١ -

برادلي جولدنج

كما بدأنا أول الأمر، نعيده.. جالس في بيت كوتنوار، أرمق ورق الحائط المخطط في ضوء العصر المتسلل من وراء تكدس السحب في السماء.

جايكوب يجلس في صمت، مطرق الرأس احترامًا للموت. يحمل كوتنوار مكواة كهربائية ويزحف من حجرة إلى أخرى.. يبصر جلستنا فيبدو عليه أنه قد نسي أمرنا تمامًا..

ـ اعذراني يا ولديّ، يمكنكما استخدام الحمام أو تغيير ملابسكما بملابس من عندي إن أحببتما.. دقائق وأنهي كوي ملابسي ونكون مستعدين لحضور الصلاة والدفن..

لم تكن ملابسنا لائقة لحضور أي شيء رسمي، لكن الوضع لا يحتمل اقتراض ملابس من هندي أسعى كي لا أراه مرة أخرى تحت أي ظرف.

كانت مراسم الدفن والتأبين سريعة، ففتى البيرة لم يكن له سوى عدد قليل من الأحباء. أدهشتني فقط الصيغة التي كانوا يتحدثون بها عن الفقيد.

www.ibtesama.com/vb

يتحاشون استخدام ضمير الغائب بشكل مريب. يتحدّثون إما عن "الفقيد" أو "ألبرتو"[1].

بينما أتأمل النقوش الهندية من حولي، في رسم الصلبان وتعشيقات الزجاج، انتهت المراسم، فجلسنا أمام الكنيسة نحتسي الشاي بينما فضل المأمور وكوتنوار تدخين الغلايين حدادًا على سبيل إحياء العادات القديمة. سأل جايكوب كوتنوار إن كان تدخين الغلايين يتسق مع إيمان الفقيد بالمسيحية، فقال إن تدخين الغلايين حدادًا هو من صميم الهوية الهندية.

ـ بعد كل تلك الأعوام لي في الدنيا يا بني، اكتشفت أن الهوية الأصلية للإنسان يمكنها أن لا تتعارض مع دينه، تلك عادة وذاك دين طالما لا تضر تلك العادة أحدًا..

سؤال آخرمعلق في عينيّ أبصره العجوز ليو، فأستأذن القوم وقام مربتًا على كتفي. انصعتُ لإشارته وخرجنا نمشي في الجو البارد الرمادي خارج الكنيسة.

ـ لا تقلق، جاري البحث عن سيارتك. يمكننا أن نعوضك ما شئت، فقد كانت أمانة لدينا وانشغلنا عنها..

ـ سأنتظر نتيجة التحقيقات.. مفكرتك معي إن كنت تريدها.

أخرجتها من جيب سروالي الخلفي وناولتها له.. قلّب في صفحاتها شاردًا، ثم توقّف عند تاريخ محدد.. يوليو ١٩١٧..

ـ لقد تُوفي ألبرتو ولم يكمل ما بدأته في قصّتي.. ربما كان عليّ الاختصار فلا أحد يعلم موعد رحيله..

خرج جايكوب مع بيكوورث والمأمور يتقدمون نحونا، يبدو على

(١) تذكّر أنه لا يوجد مذكر أو مؤنث في الأفعال الإنجليزية.

www.ibtesama.com/vb

جايكوب الاندهاش مما يسمعه. استأذن المأمور وأخبرنا أن البحث عن سيارتنا يجري على قدم وساق، بينما تربع بيكوورث على العشب المبتل فحذونا حذوه.

جنازة أبي تنتظرني، أو لعلها لا تنتظرني.. لعلهم دفنوه وانتهى الأمر.. كأنما يقرأ كوتنوار أفكاري أجابني بصوته الهش..

ـ لقد عرفت يا سيد جولدنج حكاية الرجل الهندي الذي قتل ذئب يلوستون.. يمكنك الرحيل الآن إلى جنازة والدك وسأتابع معك تطورات البحث هاتفيًا.

أتخيل نفسي واقفًا على قبر أبي، ينظر القوم إلى وجهي منتظرين أي كلمات حزينة سأقول، أتخيل نفسي أبحث عما يقال فلا أجد، عن مشاعر فلا أجد.. لا يربطني بالرجل تحت الثرى سوى اسم وذكريات بعيدة عن راعي أبقار مشاغب. أرسلت رسالة نصية إلى السيدة كورا أعتذر فيها عن الحضور. لم أجد الشجاعة للتفوّه بتلك الكلمات لها مباشرة ولا أجد متسعًا في روحي للكذب بشأن أسباب عدم الحضور.

لم أرَ أختيّ منذ تركت بيتنا بحثًا عن أمنا ولم أعد. لم أبحث ولم أكن أنتوي البحث.. لكنه سبب مكنني من سلب آخر نظرة احترام لي في أعينهم قبل أن أرحل للأبد. هم كذلك أراحوا ضمائرهم عندما تطوّعت أنا بالبحث.. هو الشيطان الذي وعدنا بالبحث عن أمنا ولم يعد! كانت عبئًا جسديًا على أختيّ، وكانت عبئًا نفسيًا عليّ، شعرها الفاحم الذي ورثته منها وحكاياتها الخرافية، رائحة الصوف المنبعثة من أناملها وإصرارها على الغناء القديم مع صديقاتها. لا، لن يمكنني العودة مرة أخرى إلى شايان..

ـ كانت ليلة طويلة علينا، مات ألبرتو بعد أن قرر أن يعترف بعبارة واحدة للأب أنطوان أمامنا جميعًا.. قال: سامحني يا أبتِ فقد أذنبتُ، قتلتُ ذئبي، وليغفر لي الرب..

www.ibtesama.com/vb

تبادلت وجايكوب النظرات.. إن كان الفتىٰ قد قال ذلك فعلاً، فإن قصة كوتنوار قد وصلته بشكل ما حتىٰ نهايتها. أو أن الرجل يُحرّف ويمزج ماضيه بحاضره وهذا ما أُرجّحه. لم يعترض بيكوورث علىٰ مقولة كوتنوار ولم يبد عليه أنه يعي ما يحدث أمامه من الأساس. شاردٌ، يمسح بكمّه من حين لآخر دمعة قررت التخلّي عنه انتحارًا علىٰ خدّيه الموحشين.

ـ كانت المشكلة الأكبر هي استخراج أوراق الوفاة لدفنه. جاء طبيب المشفىٰ وأجرىٰ الكشف علىٰ ألبرتو، ملأ خانة سبب الوفاة وتوقّف كثيرًا عند خانة جنس المتوفىٰ. كانت التفاوض سهلاً، سنتغاضى عن الإبلاغ عن الإهمال في المشفىٰ وعدم تواجده في مواعيد عمله وهو ما تسبب في وفاة ألبرتو، علىٰ أن يكتب الجنس ذكرًا كما هو مُثبّت في كل أوراق التبني والدراسة الخاصة به.

أخبرنا كوتنوار، محاذرًا أن يخدش صوته حداد بيكوورث، أن أم ألبرتو لم تبعه فقط لاستغلاله جنسيًا، بل تم تغيير جنسه لإرضاء متع مريضة لدىٰ شخص ثري. لم يتمّ الأمر رغمًا عن الفتىٰ، فقد تشوّهت معرفته بجسده طوال فترة فراره، أراد الخروج عن جلدته وجنسه وكل ما يمت لأصوله بصلة. وافقت رغبته المجنونة رغبة الثري المنحرفة وتمت العملية في عيادة لطبيب مكسيكي غير مرخص.

حلم ألبرتو بأن يُغيّر لون بشرته وتقاسيم وجهه، كل ما نقصه هو فقط الثراء.. صاحب المال فقط هو من يمكنه شراء الأطفال وتغيير الجنس، والهجرة من أصل همجي إلىٰ آخر أسمىٰ.

أصاب الفتىٰ خلل نفسي شديد، لم يكن يتعرّف علىٰ انعكاس وجهه في المرآة حتىٰ.. لم يكن يريد أن يكون هو. بعد طول مقاومة، رضخ الفتىٰ مخدرًا إلىٰ حياة إصلاح السيارات وخدمة العجوز كوتنوار. وبين الحين والآخر،

www.ibtesama.com/vb

يُطلّ من عينيه الجنون مهدّدًا، إلا أن الجميع تظاهروا بعدم رؤيته.. الفتى بخير فدعونا نتغاضى عن بعض الجنون..

ـ تخيّل فترة مراهقة دون أن تعرف ما أنت؟ تخيّل أن تحيا دون أن يكسر احدهم حاجز الحرج ويتكلم معك دون مواربة ويجيبك عن ألف ألف سؤال في قلبك الفتي؟ في يوم قريب، سألني ألبرتو بلا أي مقدمات: ما أنا؟ لم أستطع أن أجد جوابًا واحدًا شافيًا عن سؤال كهذا.. ما أنا. إنسان.. ذكر، أنثى.. أبيض، أسود، أصفر.. أوروبي، أمريكي، آسيوي، إفريقي.. مسيحي، يهودي، مسلم، ملحد.. ديموقراطي، جمهوري.. راديكالي، يساري.. كل تلك التصنيفات لم تكن لتجيبه عن سؤال واحد من كلمتين، ما أنا.

تصور كوتنوار أن قصة كتلك التي بين دفتي مفكرته، قد تساعد الفتى على الفهم أكثر.. ربما تجيبه عن أسئلة لم يسألها كذلك.

نظر كوتنوار إلى بيكوورث الشارد نظرة خاطفة ثم ناولني المفكرة مفتوحة على العام ١٩١٧..

ـ اقرأ من هنا إن أردت، لم يتسع الوقت لألبرتو للقراءة حتى النهاية، ربما كان الاختصار مفيدًا.. التالي هو قصة الرجل الذي قتل ذئب يلوستون، القصة تكرار لسابقتها فلا تقل إنني لم أحذرك!

جرت عيناي على الأسطر لأجد أن الأمر بعيد عن التكرار، يبدو أن بطلها يدعى ليو أيضًا، هناك كنيسة وعزاء، جدة وأب وحفيد وحرب عالمية أولى وخطاب للرئيس ويلسون..

ممتاز، فلنفتح الصندوق السحري مرة أخرى..

www.ibtesama.com/vb

- ٢ -

ليو كوتنوار

٢٨ يوليو ١٩١٧..

كان يومًا حارًا، توجّهت فيه مع ابني ليو جونيور ذي السبعة أعوام لحضور جنازة جدي الذي لحق أخيرًا بوالدي في السماء عن عمر يناهز السبعة والثمانين عامًا.

لا يزال أطفال الكشافة في نشاطهم، يوزعون الدعاية المصورة للتطوع في الجيش والبحرية. شخصيًا مازال البوستر الدعائي المفضل لدي هو صورة الفتاة الشقراء مكتوب على يسارها "أريدك أنت!" ثم بخط خبيث تحت الصورة "من أجل البحرية الأمريكية"[١] مع وعد بالترقيات للمتطوعين وما إلى ذلك.

تطفو الصورة كلما اختليت إلى نفسي وأتساءل، لِمَ لا؟ وطننا في حاجة إلينا. والحق أقول إن أوروبا الغامضة تثير خيالي بشكل خاص. من هناك

---

(١) البوستر الشهير من تصميم هاوارد شاندلر كريستي.

www.ibtesama.com/vb

أتىٰ من أحال وجه أميركا المغضن القبيح إلىٰ وجه امرأة مكتملة الأنوثة والجمال. هؤلاء قوم ساعدوا الجميع وظللوا المتفرقين تحت مظلة وحدة قوية.

لم أستطع أن أجلس أكثر أثناء كلمة القس عن الفقيد، ألم ظهري من مشاركتي في الروديو الأسبوع الماضي لم يزل بعد، ولا أظنه سيزول إلا بعد انتهاء الأيام العشرة لمهرجان الرواد للروديو.

طاردت أول أمس العجل راكبًا فوق الحصان -ليس حصاني إنما حصان المسابقة- ثم ترجّلت محاولاً ربط قوائمه الثلاث بالحبال لأعلن فوزي، إلا أن العجل عاجلني بنطحة في مؤخرة ظهري مازالت تؤلمني حتىٰ اليوم.

أجلست ابني ليو الصغير بجانب جدتي، في الواقع هي أم جدي، ثم رويدًا رويدًا ظللت أتنقل في المقاعد مبتعدًا عن الأعين المُلاحِظة، توطئة للهرب واللحاق بآخر أيام الروديو في البلدة. إلا أن اللعين الصغير لاحظ تسللي فنادىٰ عليّ. قامت الجدة وتأبطت ذراعي خارجة بي من الكنيسة. ثقل اتكائها علىٰ ذراعي يؤلم ظهري بشدة.

ـ تريد اللحاق بالروديو هه؟ تخدعون أنفسكم يا صبية هذا الزمن.. زمن بلا محارب هو زمن أسود.. اعتدتم طراوة العيش، لم تروا الحياة الحقيقية التي رأيناها.. هيا.. خذني إلىٰ خيمتي لأرتاح قليلاً..

مازالت الجدة تقطن تيبي في البراري القريبة من شايان، ترفض العيش معي كما رفضت الانتقال إلىٰ المدينة مع أبي من قبل. تقول إن شايان مدينة شيطانية ظهرت بين يوم وليلة منذ ما يقرب من خمسين عامًا، لتُحابي القطار الأسود البشع الذي شقّ أراضينا موسّعًا إياها، لتذوب في الكيان الشرير المقام شرقًا.

طاوعتها رغبة مني في الخلاص من ثرثرتها. ودّعتها علىٰ مدخل التيبي

www.ibtesama.com/vb

لكنها أمسكت بيدي بقوة وأدخلتني معها رغمًا عني. فتحت صندوق أغراضها وأجلستني أمامها، ليو الصغير يُحدّق في محتويات الصندوق في دهشة وفضول.

أخرجت قلادة من الخرز، يتوسطها مخلب صغير لطائر جارح. علّقتها حول رقبتي وابتسمت. لكم تمنيت لو رأيتها في شبابها، أظنها كانت جميلة قبائل الغراب وقتها.

ـ تلك قلادة أبي جدك الراحل، الصياد الأعرج.. خذها يا بني وأعطها لابنك من بعدك. لا أظن أن في عمري بقية.. عاقبني الرب بالحياة المديدة.. رأيت جمالي يذوي، ورأيت أحبتي يموتون واحدًا تلو الآخر.. لقد أسأت كثيرًا لأمنا الأرض ولمخلوقات الإله عليها. ولا أظن الرب سيقبلني في ملكه.. تعرف يا بني، اعتنقت المسيحية طمعًا في أن أجد ربًا لا يعرف ما فعلت في حياتي السابقة! لكنني اكتشفت أنه هو ذات الرب يأتيك في صورة الأرباب المتعددة، والثالوث المقدس والإله الواحد.. كأنما يريدك أن تراه كيفما تشاء، المهم أن تراه.. وحين تراه يا بني ستدرك حقيقته الوحيدة.. حقيقة الإله الرحيم..

أخرجت من صندوق العجائب هذا زوجين من الموكاسين، نُقش على أحدهما حصان وعلى الآخر نقش لعلم الولايات المتحدة..

ـ هذا لك ياليو الصغير.. صنعته بيدي منذ عدة أعوام.. تذكّر أن الزوجين لحذاء واحد، لكنك لا يمكنك ارتداء الفردة اليسرى في قدمك اليمنى أو العكس.. حذاء واحد وفردتين منفصلتين إلى الأبد..

أمسك ليو الموكاسين واحتضنه في براءة. ثم أخذ يُراجع تعليمات الاستخدام ويكرر أن هذا لقدمه اليسرى وذاك لليمنى..

www.ibtesama.com/vb

أزاحت الجدة ويدونجي الصندوق مغلقًا تجاهي وأسندت رأسها على مرفقيها مستندة إليه، بدا كلامها من عالم آخر مع صوتها المكتوم جراء انحناء رأسها لأسفل..

ـ لا يعرف بشري سواك أن أبا جدك هو الصياد الأعرج، وليس رأس القندس.. أعلم أنك لا تهتم لذلك.. كل مايهمك هو حاضر فقط.. لا ماضٍ، لا مستقبل.. تحمّل كلماتي يا بني فقد تكون الأخيرة.. كان يوم ولادة جدك هو ما غير كل شيء في حياتي.. كنت أحتاج طفلاً هنديًا يُقنع القوم أنني زوجة صالحة وأن ابني هو ابن والده فعلاً.. لكن رأس القندس كان يعرف أنه لم يعاشرني كزوجة قط. في نبل غريب، لم يشأ أن يفضح أمري وتركني حتى أتممت حملي.. اقتادة الناس ليرى ابنه.. ابنه الذي كان نسخة من أبيه الحقيقي.. نظرة واحدة إلى وجه الوليد سقط بعدها رأس القندس ميتًا..

لا أذكر من هو رأس القندس أو غيره. اعتدت تجاهل حكاياتها الغريبة والتظاهر بالسماع.

فتح ليو الصغير الصندوق فأجفلت الجدة وابتعدت عنه.

كان الصندوق يحوي قوسًا قديمًا جدًا وسهامًا، بلطة توماهوك وقطع من الفراء. تاج من الريش الأسود المتآكل وأشياء أخرى لم أميّزها..

ـ في لحظة أدركت فعلتي.. بالرغم من أن الطفل أعاد لي هيبتي وسط قومي، إلا أن النظر في عينيه كان يذكّرني دوما بأبيه الذي اختفى قبل ولادته بشهرين ولم يجد له أحد أثرًا.. يذكرني برأس القندس الذي ظلمته وأهنته حتى آخر لحظة.. يذكرني بأختي وأبي اللذين ذابا في تراب يلوستون الحبيب..

www.ibtesama.com/vb

مسحت على رأسها الأشيب وقبّلته. طلبت منها أن تستريح ثم حاولت حمل الصندوق فلم أستطع. ثقيل جدًا على ظهري المصاب. تعجبت كيف تنقلت بكل هذا الحمل من شمال غرب الولاية إلى جنوب شرقها. رحلة طويلة بطفلها الوحيد.. منفى اختارته لنفسها.

تكوّرت تحت الغطاء الصوفي في ذلك الحر وأغمضت عيناها. قبّلها ليو الصغير وحمل معي الصندوق حتى العربة.

الطريق طويل حتى أعود إلى البيت وأستبدل ملابسي، ثم أكمل عملي في سوق مهرجان الرواد. هذا مصدر رزق يكفي لشهور قادمة ويمكنني أيضًا من الخلاص من مخزوني من بيرة الجذور المعدة منزليًا. أبيع جالونات منها يوميًا سواء الكحولي منها أو غير الكحولي، كما أتفنن في ابتكار النكهات المميزة لبيرة كوتنوار المنزلية بإضافات، فانيليا، عرقسوس، ينسون،جوزة الطيب، القرفة.

جاءتني فكرة التوسّع في إنتاج البيرة والحصول على تسجيل لاسم كوتنوار، هكذا من حلم إلى حلم حتى وصلت منزلي.

زوجتي العنيدة لم تكن بالداخل، مازالت مصرّة على العمل في دكان الحلاقة كالرجال[1].. فتحت الخزانة في المطبخ لأجد أكياس الشوفان متراصة تؤكّد أن لا شيء متاح سواه.

دقائق مرت حتى عادت إيفيتا، منهكة، تخلع الإيشارب الصغير عن رأسها وتلقيه على الأريكة غارقًا في العرق. على الأقل لم ترتدِ السروال اليوم، هكذا وفّرت عليّ عناء الشجار.

ـ أقول لك يا ليو، ماذا لو تطوعت أنا في الصليب الأحمر؟! لا أستطيع

(١) بدأت النساء مع دخول الولايات المتحدة في الحرب العالمية الأولى في العمل في وظائف الرجال الشاغرة والتي تركوها للتطوع في الحرب.

www.ibtesama.com/vb

أن أُبعد صور الملصقات في كل مكان عن عقلي.. على الأقل سأرتاح من غيرتك علي، وإن تعاملت مع رجال سأتعامل مع مصابين لا وقت لديهم للغزل.

ابتسمت فظهرت أسنانها البيضاء في بشرتها الخمرية، وضاقت عيناها المسحوبتان أكثر، فنسيت كعادتي غضبي منها. الحقيقة أنا لا أعرف سبب غضبي، ربما نشاطها وإيجابيتها تثير غيرتي منها. ربما نظرات الرجال إليها أو شعبيتها الكبيرة في الجوار. لا أعرف.. لكنها دائمًا ما تسبقني بخطوة.

حين كانت خطوة تطوعي في البحرية قيد المراجعة والتحليل، اتخذت هي قرارات إيجابية متتالية. أذهلتني شجاعتها وعقدت لساني..

ـ سيكون هذا رائعًا، لكنني سأتطوع في البحرية ولن يمكننا ترك ليو الصغير وحده..

كعادتي، سبق لساني تفكيري، انزلق قراري إلى لجة عينيها فاتسعتا ذعرًا. أعرف حبها لي وأعرف وطنيتها أيضًا. لكن ابتعادي عنها في موضع خطير كهذا أذاب وطنيتها في كأس مر من التعلق الأنثوي بالحبيب.

ـ ماذا تقول؟! أعني.. هو تصرف واجب على الجميع وأعرف ما تشعر به.. لكن ليو حبيبي، اسمح لي أن أُوضّح أمرًا ربما لم نتحدث فيه من قبل..

تشاغلت بإعداد الغداء المكون من الشوفان والحليب وبعض الطماطم من الحديقة الخلفية. تسير إيفيتا على تعليمات الحكومة حرفيًا، فتعمل على ترشيد استهلاك الأطعمة، كما أزالت الأزهار ونباتات الزينة من الحديقة الخلفية وضمتها إلى ما يسمى بحدائق النصر[1]، حدائق المنازل التي تحوّلت إلى حقول لزراعة الخضر والفواكه لرفع الضغط عن الحكومة في ظرف الحرب العظمى الطارئ.

---

(١) Victory gardens، وكانت موجودة في الحربين العالميتين الأولى والثانية.

www.ibtesama.com/vb

ـ التطوع في الصليب الأحمر هو تطوع لعلاج ومساعدة الجرحىٰ، كطبيب يمارس مهنته النبيلة مع أي بشري دون تفرقة. لكن التطوع في الجيش الأميريكي تحت راية الولايات المتحدة وإذعانًا للدعاية الخبيثة التي يظهر فيها الجميع بيضًا شقرًا، كأنما لا يوجد علىٰ تلك الأرض أجناس أخرىٰ.. ذلك التطوع مشين من وجهة نظري. كل ما أفعله ليس دعمًا للحكومة، لكنه دعم للأرواح التي تسكن تلك الأرض وقبل كل شيء، هو دعم لي ولك ولابننا الصغير..

طعم الشوفان دون محليات نشوي صعب علىٰ الابتلاع. أفهم وجهة نظرها لكنني لا أقبلها كذلك. لقد أصبحنا أمة واحدة ولننسَ ما كان في الماضي. إن تطوعت أنا في الجيش فسأدافع عن أرضي أنا لا أرضهم هم فقط.. تلك حماية لي ولها ولابننا ليو. صارحتها برأيي، فنبتت في عينيها دمعتان مسحتهما سريعًا ودفنت أفكارها في صحن الطعام.

يمكنني أن أتراجع عن فكرتي في أي وقت وأزعم أنني تراجعت من أجلها. لكن الأمر أكبر من ذلك بكثير في داخلي.

في تظاهري بعدم الاكتراث لحكايات الجدة ويدونجي عن بطولات الرجال في الماضي وحروبهم مع الأوروبيون، شيء ما كان ينغز نفسي ويحدثني في تساؤل مؤلم، لقد عرفوا من يكونون.. فمن تكون أنت؟!

شيء من كلام الجدة ويدونجي عن بطولات الروديو الزائفة صحيح. ما نفعله هو ما يفعله الصبية من اختلاق للمعارك علىٰ الرمال بجنود من حجارة صغيرة. لعب أطفال مقارنة بما كانوا يفعلونه في الماضي.

تركت ما تبقىٰ من طعامي وخرجت أُعدّ زجاجت البيرة لبيعها في المهرجان. الحاضر والمستقبل يصطرعان في ذهني، بطولة حرب أم ماركة بيرة تحمل اسم كوتنوار؟!

www.ibtesama.com/vb

- ٣ -

ذئب

عاد إلى مملكة تشيبيابوس العظيم خلال الدورات القليلة الماضية لأمنا الأرض حول أخينا الشمس ما يقرب من الثلاثين ذئبًا منهم أربع عشرة العام الماضي فقط..

هذا هو ما يسمونه بقانون المحمية الجديدة[1].. الغرباء يحضرون بعِدد صيدهم وفخاخهم ويصطادون الحيوان الأكثر شراسة -في زعمهم- في المحمية.. الذئاب..

لطالما عشق أبناء نانابوزهو قتل الذئاب، فقد كانت أول جرائمهم على الأرض قتل الأخ لأخيه.

تدور حرب عظمى في عالم البشر، تحالفات وعداوات، قتل وتضحيات..

---

(١) تمّ إنشاء محمية يلوستون ١٨٧٢، واستمرّ حراس المحمية من الجيش الأمريكي في صيد الذئاب باعتبارها تُقلّل من تكاثر الحيوانات الأخرى وتُشكّل خطرًا على الحياة البرية. كما لم يتم منع صيد الذئاب رسميًا فترة طويلة حتى تم قتل آخر ذئب في المنطقة رسميًا عام ١٩٢٦، وكما ذكرنا سابقًا آخر ذئب قتله الهندي ليو كوتنوار عام ١٩٤٣.

www.ibtesama.com/vb

اليوم يجتمع كل ألوان أبناء نانابوزهو على تلك الأرض في مواجهة إخوتهم عبر البحار.

كذئب، أنحدر من أصول عظيمة من قطيع الينبوع الساخن العظيم، أؤمن بالموت إيماني بالحياة. فلولا العداوات والمشاحنات لتوقف الكون عن الحركة. هناك دومًا تجاذب وتنافر، ثلوج وحمم، حرائق وسيول.. هذا ما تعلمته من أرض الحجارة الصفراء..

الأماكن التي جعلتها ثورة البراكين في الماضي جرداء، هي الأماكن التي لا تشعلها نيران البروق.. تظل جرداء، وتظل مقفرة.. النيران هي سر من أسرار الحياة التي يتعامل معها البشر على أنها سر من أسرار الموت..

يقبع تحت أرضنا الهادئة، بركان عظيم.. خامد.. نستشعر من حين لآخر تململه في غفوته، لكنها غفوة مهما طالت، قصيرة، ولن يظل الخامد خامدًا إلى الأبد. فليحذر أبناء نانابوزهو من الاقتراب الزائد، فليحذروا..

فأرضهم خاملة، خالية من الحياة، بينما أرضنا مازالت تنبض بزلازلها، مازالت قادرة على الاعتراض والرفض.. والرد إن شاءت.

رغم معرفتي بصلتنا القديمة بأبناء البشر، إلا أنهم لا يمثلون لي الآن سوى الخطر المستمر. أحاطوا بنا خلف أسوارٍ تدّعي الحماية، لكن كل ما فعلوه هو محاصرتنا وتحويلنا إلى مجرد طرائد تكسي جلودنا أجسادهم وتزين رؤوسنا حوائطهم.

أراقب الفخاخ التي نصبها رجال الحماية في المحمية، ولأول مرة أسمع الصوت المزعج المشوش الصادر عن مكعبات يحملونها ويستمعون إلى ما يصدر منها في تركيز. ذلك التشويش يجرح بشكل خاص أذناي ويشوّش تركيزي، فأعوي.

عوائي يثير فزعهم، فهم يعلمون جيدًا أن هناك ذئابًا ورثوا قدرة فائقة

www.ibtesama.com/vb

على إفساد الفخاخ، هؤلاء هم أحفاد الجرو الحفّار الأسطوري، قطيع الينبوع الساخن، حراس القبور الثلاثة التي تم إزالة ما ظهر منها عند إقامة المحمية.

لدي ستة أخوة من الذكور واثنان من الإناث، أنا الذئب القائد في مجموعتنا الكبيرة.

لا نعاني كثيرًا من تسلل الذئاب الأخرىٰ إلىٰ حوزنا، ونكتفي بما في نطاق تحركنا من قطعان البيسون والأيائل.

ما أثار دهشتي اليوم هو الثور الذي كنا نطارده.. رآنا فتوقف مكانه ولم يقاوم لحظة، لم يركل كما هو متوقع منه..

كان ثورًا ضعيفًا بشكل لم أره من قبل، ولم يصلني عبر ذاكرتنا الذئبية الممتدة وجود مثل تلك الثيران الضعيفة المستسلمة هنا. هذا ثالث ثور بذات الصفات نصطاده.

أشياء متسلسلة غير معتادة تحدث علىٰ أرض يلوستون. لا أعرف ما الذي يخبئه أبناء نانابوزهو لنا، ولا ما تخبؤه أرضنا لمن يحيا فوقها. فليحذر أبناء نانابوزهو، وليحذر أبناء تشيبيابوس..

www.ibtesama.com/vb

- ٤ -

ليو كوتنوار

أرمق شعري الأسود الطويل يتساقط محلوقًا تحت قدميّ. الحلاق العسكري لا يهتم كثيرًا بالجماليات، فكل ما يفعله هو التخلص من أي شعر على رأس أو وجه الجندي المتطوع.

جلست في وضع القرفصاء أشاهد الرجال محلوقي الرؤس من حولي، زنوجًا وآسيويين وبيضًا. خلفني على مقعد الحلاقة رجل ملتحي يبدو من الهند، استسلم للحلاق فزال شعر لحيته مع شعر رأسه الطويل. قام في هدوء وجلس بجانبي يشاهد كومات الشعر من كل لون وصنف بعضها فوق بعض.

هز رأسه لي وهمس مبتسمًا:

ـ صفوت سيجي، من أصل هندي..

ـ ليو كوتنوار.. أمريكي..

www.ibtesama.com/vb

ـ طبعًا.. فأنت الأمريكي الأصلي الوحيد.. أنت وكل الأخوة مثلك من السكان الأصليين..

رجل بسيط بشوش، حاضر الدعابة. يضحك بوقار ويرفع حاجبيه مصاحبة لضحكاته. علق عن كون كلانا هنديًا بشكل ما فنحن أخوة أيضًا بشكل ما.

طيلة إقامتنا في معسكر التدريب لم يصدر منه إستفزاز لأحد، ولم ينصع لاستفزاز أحد. يقضي ليلته يتعبّد في ديانته ويمارس طريقة غريبة في التنفس من البطن.

لم أجرؤ عن سؤاله عن أي شيء، فقد كنت في دوامة حياتي الخاصة غارق. أفكر في إيفيتا وليو الصغير.. أفكر في آخر كلمات الجدة ويدونجي التي رضت أخيرًا أن تقيم مع زوجتي في غيابي..

ـ الذئب لا يحيا على غير أرضه، ولا يحارب في غير معركته..

لابد وأن ذلك يعني شيئًا ما، لكنني لم أفلح في استخلاص أي معنى له.

مرت الأيام سريعًا، وعرفت أن المتطوعين يتلقون تدريبًا مختصرًا الآن، فهم يتعللون أن الأسلحة الحديثة لا تتطلب الكثير من المهارة أو التدريب.

أرى حولي الكثير من المزارعين والحطابين والتجار. أرى الذعر في أعين من تأخر الوقت بهم عن التراجع عن فكرة التطوع. تزايد الذعر في الأعين مع اقتراب موعد ركوب السفينة إلى فرنسا.

لأول مرة يقترب صفوت مني من تلقاء ذاته، يتكور بجانبي على الأرض ونحن نرمق السماء في آخر ليلة لنا في الولايات.

ـ مساء صيفي جميل.. الطقس هنا أفضل وأبرد من الطقس عندنا في

www.ibtesama.com/vb

بنجابي[1].. لا يسعك فعل شيء هناك دول أن تبتل بالأمطار الصيفية..

ـ أسمع أن الجو حار خانق في الهند..

ـ لقد اعتدنا ذلك.. نعتبر الأمطار صلة دائمة لنا بخالق السماء..

لم يُنزل عينيه السوداوين عن النجوم المتناثرة، لم تخفت ابتسامته ولم يشعرني أنه يتحدث لأحد سوىٰ نفسه.

ـ كنت أظنكم تعبدون آلهة كثيرة.. ذلك الإله ذو الأذرع المتعددة..

ـ من قال ذلك؟ هناك معتقدات كثيرة في الهند، أنا من السيخ ونعبد إلهًا واحدًا (سات بورش) الإله الكامل.. كيف يُعقل أن يعبد الإنسان أكثر من إله إن كانت الغاية من حياته أصلاً هي معرفة ما خلقه الإله من أجله وتنفيذه؟ إن كانت هناك آلهه كثيرة لما عرف الإنسان الغاية من خلقه ولا استطاع تنفيذ الغايات المتعددة لآلهة كثيرة..

لم أكن أعرف شيئًا عن الديانات الأخرىٰ، بل لم أكن أعرف الكثير عن المسيحية نفسها، وإن كنت أعرف شيئًا قليلاً عن معتقدات أجدادي التي لم أجدها عملية أبدًا.

حدثني صفوت في تلك الليلة عن الخلل الذي حدث في فهم الإنسان عندما مثّل أجداده القدماء قوىٰ الطبيعة في صور بشرية، في محاولة لفهمها أكثر. ثم جاءت أجيال تقرّبت لتلك الصور من القوىٰ بالقرابين والدعاء اتقاءً لشرها مع إيمانهم بوجود خالق واحد، ثم نسي البشر وجود خالق واحد ونسوا ما ترمز إليه تلك الصور فصاروا يتعبدون إليها. من هنا جاء الخلل والتخبط..

---

(١) إقليم في شمال الهند.

www.ibtesama.com/vb

ـ لو كان في الدنيا آلهة كثيرة لتشاجروا واختلفوا.. تمامًا مثل آلهة الأوليمب..

لم أكن قد سمعت أيضًا عن آلهة الأوليمب فشرع يحكي لي ويضيء لي ما أظلم عن عقلي.. كانت صحبته جيدة، استمتعت فيها بحديثه الروحاني العذب، واستمتع فيها بطهوي وإن لم يمس اللحم.

قبيل الفجر، سمعنا الدعوة للجميع للاستعداد للانتقال إلى الميناء. تذكرت ليو ابني فجأة وشعرت بأن كل هذا حلم طويل ثقيل الظل سيتبدد مع ضوء الفجر، وسأعود لحياتي الهادئة، سأعود لصنع البيرة وسباقات الروديو.

مع مرور الساعات وخفّض الطرق الوعرة لنا كقرب الحليب، وصلنا إلى ميناء نيويورك. كانت السفن الحربية والتجارية واقفة تهتدر، تنفث البخار من مداخنها كالبراكين، صوت من جرامافون يغني أغنية عن المكان الذي يبدأ فيه الغرب، وتمثال الحرية البعيد يبادلني النظرات من خلف بخار السفن. أنظر حولي للذهول المبتدي في الأعين، نصطف على خط اللا عودة، نعلم جميعًا أن حيواتنا لن تعود كما كانت بعد أن تطأ أقدامنا ظهر السفينة.

معظمنا لم يركب البحر قط، ومنا من أصول هندية من ركب القوارب الرفيعة في الأنهار. لكننا لم نسمع قط بدوار النهر! عزائي الوحيد هو أنني ذاهب إلى مصنع الأبطال الحقيقيين.. فلأعد بطلاً أو أموت..

أكره لوم الجدة ويدونجي الدائم لي على كل شيء أفعله أو لا أفعله. تلومني على عدم قبولي للعمل في الزراعة، تلومني على كرهي للصيد في الجبال، تلومني على تضييع وقتي في سباقات الروديو بدلاً من استغلال قدراتي تلك في رعي الأبقار الحقيقية.

www.ibtesama.com/vb

إن كان ليو الصغير وإيفيتا هما عاملا الجذب لي كي أظل هنا، فجدتي هي عامل طردي الأكبر. فلأعد بطلاً كي يخرس الجميع ويعلمون أنني على حق.

www.ibtesama.com/vb

- ٥ -

برادلي جولدنج

وضع كوتنوار سماعة هاتفه مهمومًا، ثم تشاغل بجمع علب البيرة من فوق منضدته الخشبية وقد تسبب بياتها في مكانها في دوائر متآلكة في الخشب الجيد.

تبادلت وجايكوب النظرات، فهمنا من حديثه المقتضب أنه كان يُحدّث المأمور، هناك أخبار ما يخفيها.

غاب قليلاً في المطبخ الضيق ثم خرج بصحفة عليها نصف رغيف خبز عملاق وبعض الأجبان المنزلية وإبريق من الشاي. قام جايكوب وأخذها منه شاكرًا بينما وقف كوتنوارمتحيرًا، فأوقد المصباح الكهربي رغبة منه في فعل شيء ما.

ـ أين وصلتم في قراءتكم؟

ـ أرىٰ أن أبطال مذكراتك مهما اختلفت الأزمنة، يحملون ذات الاسم.. وصلنا حتىٰ سافر ليو الكبير إلىٰ الحرب.. وأين وصلتم في التحقيقات؟

www.ibtesama.com/vb

ـ أفضل أن ننتظر قليلاً ريثما يتأكدون من المعلومات..

ـ هذا يعني أن هناك معلومات؟ إذن من حقي أن أعرفها، فأنا -إن لاحظت ذلك- صاحب السيارة المفقودة، ولم أخبر الجريدة بعد بما حدث..

ـ كلٌ في وقته يا بني، ساعات ونكون قد...

كان قد فاض بي، اختطفت المذكرة من يد جايكوب ومزقتها إلى نصفين، منع انفصالها الكامل غلافها السميك.. ألقيتها في وجهه وقد صعد الدم إلى رأسي وصرت ثورًا هائجًا لا مروض له..

ـ نكون ماذا هه؟ ما الذي تريده من تلك الترهات التي تجبرنا على قراءتها؟ أتيتك بسؤال واحد فأرسلتني من الشرق إلى الغرب بكلمات لا طائل منها.. أنت تُخرّف أيها العجوز.. أنت هندي مخرّف امتلأ عقلك بخرافات مدخني الغلايين.. هل تعتقد أن.. أن كلمات مثل تلك قد تؤثّر في قناعاتي؟! الجميع يعرف من يكون برادلي جولدنج ولن تُغيّرني كلمات رجل يظن نفسه ذئبًا!

لم يتحرك، ولم يطرف له جفن. ظل محدقًا في عينيّ بعيني ذئب عجوز. على وجهه تعبيران مختلفان كعادته البغيضة. يكرهني ويأسف لحالي.. يجذبني ويطردني.. يسخر من ثورتي ويخافها..

ـ سيد برادلي، اجلس من فضلك.. الكل يعرفك ويعرف مقالاتك المعادية للسكان الأصليين والأفارقة وأخيرًا العرب بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر.. الكل يعرفك حتى إن البرتو نفسه كان من أشد معجبيك، تخيّل؟! لقد تعرّف وجهك حين رآك، لذا سألني عنك ليتأكد. لقد كنتَ قدوة له.. كيف أنك تتحدث بلسانه وتنتقد كل ما لا يقدر هو على انتقاده في حيواتنا.. كيف نجحتَ في سنوات قليلة وكيف قدتَ حياتك إلى الضفة التي طالما حلم بها. أعرفك يا سيد برادلي ولا تظنني رجلاً عجوزًا غارقًا

www.ibtesama.com/vb

في خرافات الأجداد.. وأعرف خطورة أن يصدر كلام مثل كلامك عن شاب مثلك.. أعرف أيضًا أن شهرتك ليست نابعة من الأساس من جرأة مقالاتك، لكن أساس نجاحها هو من تكونه أنت وخلفياتك السابقة التي لا تخفىٰ علىٰ أحد.. لا تختلف كثيرًا عن راعي أبقار في سباق روديو.. راعٍ لم يُختبر بعد، كل مقوماته هو زي قديم وقبعة تُخفي وجهه، وجواد مدرّب وطريدة ضعيفة..

كانت تلك هي النهاية بالنسبة لي. كيف يجرؤ علىٰ التفوّه بتلك الكلمات؟!

انتزعني جايكوب من وقفتي أمامه وخرج بي إلىٰ الهواء البارد بالخارج. العاصفة تستقر فوق رؤوسنا، تقذف بشرارات السماء دون أمطار.

ـ ما الذي حدث؟ كيف تفقد صوابك إلىٰ هذا الحد؟ كان يمكننا استدراجه بهدوء أكثر.. اعذرني يا صديقي، أعتقد أن مذكراته تلك تغلغلت في نقطة ما في لاوعيك وقد تتسبب لك في مشاكل أكثر.. أقترح أن نُبلغ الجريدة ونعود دون إتمام اللقاء..

ـ لن أعود دون إتمام ما جئت إليه.. ذلك المقال هو الردّ علىٰ كل ما قاله عني.. ليو كوتنوار هو من قتل آخر ذئاب يلوستون وقد قتله عن إهمال وتغافل.. هؤلاء القوم لم يعد هناك ما يربطهم وماضيهم سوىٰ أحذيه مطرزة ونقوش بالية.. هؤلاء قوم انتهوا مثلهم مثل العرب والأفارقة ولابد أن يصمتوا إلىٰ الأبد، تاركين المجال لمن هم أحق بالقيادة.. هم من يتباهون بانتصارات مزيفة، هم من يأكلون من أيدي الولايات فيلعقونها تارة ويعضونها تارة كالكلاب..

لم يفعل أبي بعد رحيل أمي سوىٰ الوقوف في صفوف العاطلين عن العمل لصرف المعونة. تملأ حافظته الجلدية المهترئة طوابع الطعام مع بنسات لا تُغني من جوع..

www.ibtesama.com/vb

ماذا فعل السيد آرون ليستحق المعونة؟! لا شيء سوى الاعتراض على حياتي وطموحي، لا شيء سوى ذكريات راعي بقر قعيد.

بعد رحيلي بعامين، تركت أختاي المنزل، وقرأ آرون أول مقال لي في جريدة دينيفر. اتصل بي يعاني الفقر والوحدة، أرسلت له مبلغًا ماليًا فأرسل يسبّني ويسبّ ما أكتب.. و يسأل عن موعد الحوالة التالية!

في ذات العام وجدت السيدة جولدنج بالصدفة البحتة في مستشفى جامعة وايومنج، وهي الشيء الوحيد الذي وجدته في حياتي دون أن أبحث عنه. جثة في ثلاجة، فاقدة الأهلية، اقتات على أعضائها ضباع طلبة كلية الطب النهمين، كنموذج للمرأة الملتحية الحقيقية.

لا شيء يتغير في وايومنج.. بل لا شيء يتغير في ذلك العالم اللعين. يجلس فيه الزمن متثاقلاً، يتسلّى بإعادة نفسه مرارًا وتكرارًا كقطار أطفال فوق قضبان دائرية.

الوضع الآن هو أننا لا نملك مالاً كافيًا لخروجنا من سانت ستيفنز، لا يمكنني الاقتراض من أحد هنا ولا يمكننا المبيت. لا يمكنني إبلاغ الصحيفة الآن عن اختفاء السيارة، فبرغم كل تلك الأعوام التي عملتها معهم، قد لا يثقون بشهادتي عن اختفائها.

جلست على الرصيف المترب، منزل كوتنوار يقبع على الجهة الأخرى من الطريق، أراه من الباب المفتوح يحاول جمع ما انفرط من أوراق مذكراته على الأرض. محتقن الوجه جراء الانحناء، يعتدل كل فينة ملتقطًا نفسًا عميقًا، كأنما هو موشك على الغوص في المحيط.

جايكوب حائر ككلب بين طفلين يتقاذفان الكرة، لا يريد تركي وحدي في الشارع، ولا يقدر على ترك كوتنوار يجمع أوراقه بنفسه.

ثوانٍ مرت ثم سقط كوتنوار أرضًا بلا حراك..

www.ibtesama.com/vb

- ٦ -

ليو كوتنوار

طاهٍ.. تلك كانت وظيفتي في البحرية خلال الحرب العظمىٰ! تركت بيتي وابني وحلمي ببيرة كوتنوار لأعمل طاهيًا!

الجنود يأكلون كالخنازير، ثلاث وجبات ضخام بينهما تلال هائلة من الأطباق والأكواب والأواني الضخمة التي تحتاج الغسيل.

يراقبوننا في المطبخ، يُراقبون الكميات والنظافة والسرعة. مطبخ عسكري قاسٍ لم يترك لنا -جنود الطبخ كما أسميتهم في سري- فرصة حتىٰ للتمدّد في الشمس علىٰ سطح السفينة. لم يزِح عني صدمتي سوىٰ صديقي الهندي صفوت، بثقافته الموسوعية وكتبه التي لا تفارق مجلسه.

سبعة أيام مرت، تقلّص خلالها عدد الخائفين ما بين من تولىٰ أمر تشجيع نفسه، ومابين من اعتنق مذهب (هذا لا يحدث - هذا حلم) فاختفىٰ الذعر من الأعين وحل محلها وداعة وشهية أبقار في مرعىٰ.

عند اقترابنا من ميناء بريست الفرنسي، لم أبصر النوارس والدلافين

www.ibtesama.com/vb

كما كان البحارة يحكون لنا ونحن صغار. جو مكفهر، طائرات أمريكية مزدوجة الأجنحة، ومناطيد ضخمة لم أرَ مثيلاً لها في الولايات.

لم يكن متاحًا لي النزول مع من نزلوا في الميناء، فلا مكان لي سوى مطبخ السفينة، أظل فيه حتى تتحرك السفينة عائدة إلى الولايات مرة أخرى لجلب المزيد من الجنود.

عرفت أن الإمداد وصل لعشرة آلاف جندي أمريكي يوميًا. لابد وأن البلد يخلو من الرجال الآن.

واقفًا خلف أسوار سطح السفينة، أرى الجنود يترنحون سكارى من طيلة السفر في البحر. لم تعتد سيقانهم الوقوف على أرض ثابتة بعد. أحاول أن أتبين صفوت بين المصطفين فلا أراه. الكل في زي واحد وحال واحد من الذهول.

مازال عنوان صفوت سيجي في الولايات محفوظًا في جيبي، متفائل هو بالعودة وينتظر مني خطابات كذلك. مكتوب على ظهر الوريقة بخطه الصغير قصيدة لشاعر إنجليزي يدعى أليكساندر بوب اسمها مقال عن الإنسان. وهي قصيدة يعشقها وقد شرحها لي في ليلة هادئة مسروقة من عمر رحلتنا الشاقة.

كانت زيارته لي في المطبخ، وقفنا بفانلتينا الداخليتين نثرثر أمام قدور الطعام، وشرح لي ملخصًا لمحتوى الكتب التي لم تفارقه طيلة رحلته.

ـ ما أراد بوب قوله من تلك القصيدة هو: كيف للإنسان أن يعترض على مكانته في حلقات الحياة المتداخلة إن لم يعرف مقصد الإله من حياته؟ الإنسان دائم الشكوى لأنه لا يعرف الهدف من وضعه في شكل معين من الحياة. لابد لنا إذن أن ننظر للحياة بشكلها المتكامل وننظر لحياتنا ذاتها على أنها خيط في نسيج كامل، وقتها سندرك أن أي شيء نفعله يؤثر في النسيج

www.ibtesama.com/vb

ككل حتىٰ وإن قلّ.. ساعتها، سنحسب حسابًا لكل تصرف نقوم به وكل كلمة نتفوه بها.

نحسب حسابًا لكل تصرف نقوم به.. ظلّت تلك الكلمة تتردّد في عقلي وأنا أشاهد الجنود يبتعدون في السيارات العسكرية رفيعة العجلات مستديرة الفوانيس. أشد ما حزنت عليه في منصبي هذا هو فراقي لصفوت، فقد كان نافذتي علىٰ عالم أقف علىٰ مينائه سجينًا، يفصلني خطوات عنه لا أستطيع تجاوزها إلا بأمر.

عالم أوروبا الثري القديم، ذلك العالم الذي جاء منه الفرنسيون بفنونهم والإنجليز بانضباطهم والإسبان بشجاعتهم.. لولا الأوروبيون لظللنا نرعىٰ الأبقار وندخن الغلايين إلىٰ الأبد. لو كان عقلي كعقل صفوت لظللت هنا ودرست كل ما طالته يداي. صديقي الهندي قد ترك بلاده منذ عامين وعمل في طاحونة في أوريجون حتىٰ استطاع الالتحاق بالجامعة ودراسة الأدب الإنجليزي. من عائلة ثرية هو، لكنه يكره الارتكان إلىٰ أموال والده والصرف علىٰ زوجته وابنته منها. إلا أن نداء الواجب انتزعه من حلمه وصار عليه أن يدافع عن بلاده الجديدة. قال لي همسًا إنه لم يذهب للحرب دفاعًا عن الولايات أو مضطرًا لكون بلاده تابعة لإنجلترا، بل ذهب مشاركة منه في نشر رسالته وأفكاره في أي مكان تطوله قدماه. صفوت يرىٰ أن البشر هم رسل للرب ولكل رسالة يجب أن يؤديها بالطريقة التي أنعم الله عليه بها. فالفنان رسول، والقائد رسول، والمزراع رسول.. كل رسول في انتظار تبليغ الرسالة.

جاءني الفرج في اليوم التالي، فقد أمرني القبطان أن أنزل الميناء مع جنود المطبخ والملازم ريمبرانت لشراء ما نقص من مؤن السفينة.

كأنما رُدّت إليّ روحي، كدت أُقبّل يديه علىٰ تلك الفرصة. في دقائق كنت أخطو أول خطوات لي في العالم القديم. أحاول أن أعبّ الهواء عبًا في رئتيّ.

www.ibtesama.com/vb

الهواء يختلف عن هواء شايان تمامًا، أقل نقاءً لكن أكثر غنىً وأصالة. المباني والسيارات تشبه كثيرًا ما رأيته في نيويورك قبل رحيلنا من مينائها، لكنها أكثر قدمًا. تسبق عيناي قدميّ في تفحّص الميناء وما خفي وراءه. أتفحّص الوجوه الفرنسية وأسمع لغتهم السريعة فيبدون لي قادمين من عالم آخر.

أكثر من مرة ينادي عليّ الملازم ريمبرانت بصوته الخشن كي لا أبتعد أو أتشتت. وقد كان محقًا، فنفسي تعلقت تمامًا بالأصل الذي جاءت منه كل الخيرات لأرض الأجداد.. أوروبا!

www.ibtesama.com/vb

- ٧ -
ذئب

تكاثرت قطعان البيسون منذ قلّت الذئاب، وخرجت عن نطاق مرعاها القديم، فَرَعَت في أرض تختلط نباتاتها بسموم البراكين..

هناك خلل كبير يحدث في أرض الحجارة الصفراء. التوازن يختلّ، والسبب.. أبناء نانابوزهو..

مع قلة عددنا المستمرة، صار عليّ عبء إضافي لحماية إخوتي وتدريب الصغار منهم على أكمل وجه[1]. صعدنا اليوم -أنا وأخواي الجروان الصغيران- إلى مرتفع حيث يعيش أُسود الجبال. نحن نمر بمرحلة حرجة جدًا من حياتنا على أرض الحجارة الصفراء. التدريب القوي على الفخاخ وعلى مواجهة الحيوانات الأكثر قدرة منا على القتال هو الحل الوحيد للحفاظ على أعدادنا.

إذا واجه ذئب أسد جبال، فإن الأسد يفوز دومًا، فهو قادر على استخدام

(١) يُدرّب الذئاب الأكبر سنًا الذئاب الأصغر من نفس القطيع الواحد، وهو سلوك قريب من سلوك البشر وروابطهم.

www.ibtesama.com/vb

أنيابه ومخالبه، بينما نعتمد نحن على أنيابنا فقط. ميزتنا الكبرى هي قدرتنا العالية على استخدام عقولنا لا أكثر.

اليوم نتدرب على صغار أسد الجبال، أترك أخويّ يخرجان الشبل الصغير بمفردهما من الجحر، بينما أراقب أنا لهما عودة الأنثى الكبيرة.

يتهموننا بالقسوة، لكن القسوة الرحيمة هي ما نمارسه للحفاظ على التوازن. أُسود الجبال في تكاثر مستمر ولا تواجه خطرًا، بل تكثر طرائدها فتقتلهم على سبيل التسلية لا الاقتيات. عندما كانت الذئاب أكثر، كانت الأسود تُحافظ على حدودها معنا وتعمل على استخلاص الفائدة القصوى من عدد أقل من الطرائد.

إن التوازن يُقتل يا أخويّ في العالم كله، ولابد لنا من المقاومة لآخر نفس.

أعلم أن فعلتنا تستعدي عداءً مع أُسود الجبال، لكنني أُعوِّل على قدرات قطيعنا المتفردة. يفتك أخواي بالشبل الصغير فيتركونه، فنحن لا نقتات على الأسود. يعرف كل منهما الآن أن لكل منهما ثأرًا مع أنثى الأسد، ويعلمان أن ثأرها سيقويهما أكثر، بل سيسمح لأولادها المستقبليين بالتدريب على أخوتنا المستقبليين.. لا عداء هنا دون رد لجميل الدماء المهدرة[1].

عند عودتنا وجدت أنثاي تقف حزينة أمام أخي المريض، مستمرة صحته في التدهور ولابد له من مغادرة القطيع. في تركه لنا حياة وهو يعلم ذلك..

أخي الحبيب يسير محني الظهر في مواجهة شمس المغيب إلى حيث لا يعلم. ذئب وحيد مريض، لن تطلع عليه شمس في الأغلب. شيء آخر

---

(١) يتدرّب صغار الذئاب على صغار أُسود الجبال والقيوطات وغيرها، ويفعل الأُسود والقيوطات المثل معهم في تناغم مذهل.

www.ibtesama.com/vb

يعتبره أبناء نانابوزهو قسوة، بينما لا ينظرون هم إلى جدوى قسوتهم على أنفسهم ومع إخوتهم، ففي قسوتنا حياة أيضًا.

أعوي، فيعوي أفراد قطيعي خلفي..

أعوي زافرًا كل ما أثقل كاهلي.. أعوي من أجل الصحبة.. من أجل الوحدة.. من أجل من ذهبوا ولن يعودوا..

مايزال لدي هم كبير في الغد، أبناء نانابوزهو العظيم يغيرون سلوكهم ويسعون لصيدنا أحياء.. السؤال هو لأي غرض؟!

www.ibtesama.com/vb

- ٨ -

ليو كوتنوار

العرق يغمرني ويلصق الفانلة الداخلية على جلدي، بينما تخرج السفينة من ميناء بريست عائدة إلى نيويورك مرة أخرى.

انتهيت من طهو العشاء مع رفاقي وانتهيت من التنظيف ورائي، ثم تهاويت أرضًا اقرأ للمرة المائة ما خطه صديقي صفوت على وريقته التي صارت أقرب للعجينة الآن من العرق وكثرة الثنايا.

أحاول أن أقنع نفسي بأن ما أنا فيه منصب مشرّف بما فيه الكفاية، فكل ترس في آلة الحرب مهم مهما صغر حجمه. يكفيني فخر ارتداء الزي الأزرق البهي وغطاء الرأس الأبيض الصغير، ونظرات الجميع لي على أنني بالفعل بطل.

قررت أن أمر على رفيقي من قبائل الناز بيرسي، والذي يعمل في الأساس على طاقم تلك السفينة في غرفة المحركات. فالسفينة "جَدز ميراكل" في الأساس سفينة تجارية تطوّعت لنقل الجنود شأنها شأن عشرات السفن التجارية الأميركية منها والفرنسية في ذلك الوقت الحرج الذي نحن فيه.

www.ibtesama.com/vb

أخذت عشائي في صرة قماشية وزدت عليه ما استطعت، ثم توجهت إلى حيث يرشدني تزايد درجة الحرارة والصوت الذي يخرق الآذان.

الطرقات الضيقة تزيد من إحساسي بالاختناق، أترنح بين حوائطها بلا داعٍ، فباطن السفينة محمل بالبضائع التي تم تحميلها خلال الأيام الثلاث التي أمضيناها في الميناء، مما قلل من تأرجحها كثيرًا.

كان ميريويذر شابًا ثلاثينيًا، اكتشفت وجوده ضمن الطاقم خلال أيام الرسو على الميناء. ملامحه مغطاة بسواد الفحم والحروق الناتجة عن الحرارة. متجهم، قليل الكلام، لا تُفارق لفافة التبغ عادة التدلي من شفتيه، حتى إنه يأكل ويدخن في ذات الوقت..

ما كان مميزًا فيه حقًا هو طوله الفائق الذي تعدى السبعة أقدام وملامحه المتضخمة الغريبة، لكنه كان طيبًا حزينًا برغم كل شيء، لا يتكلم أي لغة سوى لغة النازبيرسي، ربما لبساطة عقله دورًا في عدم تعلمه للإنجليزية والفرنسية مثل أغلب الهنود.

تجمّع من يعرفني من الرجال حول الطعام وكانوا أربعة. أشادوا بطهوي وهو عبء زاد عليّ منذ أن عرف القبطان أنني من أطهو لحم الخراف بتلك الطريقة الهندية القديمة، فأمر بأن أراقب كل الطهاة بنفسي وأعمل على تطوير مذاق الطعام المعتاد الكئيب. كنت قد تعرفت أيضًا على مكونات وتوابل فرنسية هممت بها حبًا، وتمنيت لو استطعت تجربتها وإضافة نكهاتها إلى بيرة الجذور الخاصة بي.

ـ أشكرك يا ليو على الطعام الشهي، أنت تعرف أن الكميات التي يصرفونها لا تكفيني شخصيًا. وإن كنت مع الوقت أشعر أنني قد تحولت لقطعة من الفحم، تحولت لجزء قديم من السفينة لا أستطيع الإحساس بمشاعر البشر العادية. في آخر مرة زرت فيها أهلي، أثار منظري الذعر في

www.ibtesama.com/vb

قلوب الأطفال وطلبت امرأتي مني الانفصال. لم أحزن.. فكيف تحزن قطعة فحم في جوف جدز ميراكل؟

كيف تحزن قطعة فحم في جوف (معجزة الرب)؟ بالطبع كان يقصد اسم السفينة، لكن المعنى المجازي لعبارته أثار الشجن في بشكل خاص.

عدت إلى مطبخي كي لا يقتلني الملازم رمبرانت، في طريقي الضيق الملتوي، أسمع نداء ميريويذر يقترب مني منبهًا إياي أنني قد نسيت أوعية الطهي التي جئت بالعشاء فيها. كدت أستدير عائدًا، حتى سمعت انفجارًا مدويًا وقذفني ضغط الهواء على طول الممر، الألم يكسر عظامي، يعود الضغط مجددًا فيجذبني برفق في الاتجاه المعاكس نحو غرفة المحركات، إلا أنني أتشبث في باب انفتح بجانبي. ثانية أو أزيد قليلاً مرت لم أسمع فيها سوى صفير في أذناي.. ثوانٍ من الصمم حتى أبصرت النيران تتلوى في آخر الطرقات..

تمنيت أن يُغشى عليّ، أو أموت في سلام، لكنني كنت واعٍ إلى أقصى درجة.. جلدي يتجعد وتكاد مقلتاي أن تنفجرا.. أذكر ليو الصغير، والجدة ويدونجي، والحبيبة إفيتا..

أتمنى أن ينتهي عذابي، فكيف تتعذب قطعة فحم في جوف جَدز ميراكل؟!

توقف الشعور لدي تمامًا كقطعة فحم فعلية خمدت في انتظار التفتت والانزواء. يعود الصوت إلى أذنيّ، أصوات أجراس إنذار بعيدة.. تختلط في عقلي بأصوات أجراس الكنيسة المهيبة..

كلمات لأغنية حديثة، سمعتها في نيويورك قبل المغادرة، وتمثال الحرية يبدو كأقرب ما يكون، تدوي في رأسي دون أن تغادر شفتاي..

www.ibtesama.com/vb

هنالك حيث القيود قوية أكثر..

هنالك، حيث تدوىٰ الضحكة أطول..

هنالك، حيث يبدأ الغرب..

هنالك، حيث تشرق الشمس أكثر سطوعًا..

حيث تتساقط الثلوج أنصع بياضًا..

حيث الصلات بالوطن أعمق..

حيث الصداقة أصدق..

هنالك حيث يبدأ الغرب.. (١)

---

(١) Out where the west begins أغنية ذائعة الصيت أيامها، صدرت في نيويورك عام ١٩١٧ أيستللو فيليو من كلمات آرثر شابمان.

www.ibtesama.com/vb

- ٩ -

برادلي جولدنج

ـ هنالك، حيث تصنع الكلمات، حيث بضعة قلوب تتوجع يأسًا..

هنالك حيث يبدأ الغرب..

حيث الكثير من الغناء، والقليل من التنهدات..

حيث العطاء أكثر، والشراء أقل..

حيث يمكن للرجل أن يجد صديقًا دون حتىٰ أن يحاول..

هنالك، حيث يبدأ الغرب..

لم أرَ أحدًا يغني وهو بعد لم يشفَ من نوبة قلبية. ممدد علىٰ الأريكة، يمتص قرصًا من دوائه، يرفع جايكوب قدمي كوتنوار عن مستوىٰ رأسه تصورًا منه أن ذلك سيفيد العجوز بشكل ما.

لم أكن أقرأ من مذكراته المتناثرة علىٰ المنضدة فوق بقعة علب البيرة، فقط

www.ibtesama.com/vb

جرت عيناي على الأوراق وأنا أحاول ترتيبها كما كانت. لا لم أكن أقرأ.. ولِمَ أقرأ تخاريف كهذه؟!

بشكل ما بدأ تكرار الحلقات ما بين حياة ليو الأولى والثانية. لشد ما تختلف وتتشابه في الآن ذاته.

بشكل ما تلك قصة كونية عجيبة، صدق جايكوب حين فسر سبب شجاري بأن شيئًا ما فيها مس لاوعيي. من السخيف أن تترك أحدهم يعبث بمسبارٍ في ثنايا ذكرياتك دون أن تملك حق الاعتراض حتى.

تُذكّرني تلك المذكرات بنبوءات العرافين التي قد تنطبق على أي تصرف مستقبلي. السؤال هنا، هل مجيئي هنا محض صدفة؟ أم هي نتيجة لتراتب أحداث سابقة؟ مقدمات مهما اختلف تؤدي دائمًا لنفس النتائج؟! هل يسير الكون بناء على جدول واحد لا يتغير مهما ظننا أننا مختلفون وأحرار في اتخاذ وجهاتنا وقراراتنا؟!

لا تُجدي تلك التساؤلات الآن، بينما السؤال الأهم هو، أين سيارتي؟!

أطل بيكوورث مرة أخرى من نافذة كوتنوار كعادته، يبدو أنه كان يسعى لإيجاد صحبة تنسيه مصابه، إلا أنه فوجئ بكوتنوار الممدد على الأريكة فدلف مسرعًا من الباب المفتوح. ركع بجوار العجوز وأمسك بكفه المرقطة، وبيده الأخرى ناولني مسجلي الذي افترضت أنه قد ضاع مع السيارة!

ـ وجدت هذا أمام ورشة هومر المغلقة حيث تركت سيارتك آخر مرة.. ليو؟ ماذا حدث لك؟!

ـ المعتاد يا بني، لا تقلق.. لقد أنقذني الشابان..

ـ وما الذي حدث للمفكرة؟!

www.ibtesama.com/vb

ـ لا شيء.. مزقتها في لحظة اكتئاب بسبب الفقيد العزيز.. وقد أثر ذلك على قلبي..

كان المسجل في كيس بلاستيكي ملطخ بالطين، أدرته في يدي لا أدري ما مغزى وجوده أمام ورشة بيكوورث إلا أنه كان معه من البداية.. لكن لأي غرض سرقه ولأي غرض أعاده؟!

أخذ جايكوب المسجل من يدي وأشار إلى كلمات محفورة بأداة حادة على الجسد البلاستيكي للجهاز، الكلمات تقول "شغّلني!" بخط بدائي متردد..

كدت أضحك حين تذكرت القنينة في قصة أليس في بلاد العجائب المكتوب عليها "اشربيني"، تشربها فتزداد طولاً، والكعكة مكتوب عليها "كليني"، تأكلها فتتقزم.. ترى هل نزداد طولاً أم نتقزم إذا اتبعنا التعليمات على الجهاز؟!

ضغط جايكوب على الزر وكان مضبوطًا مسبقًا عند بداية الرسالة المسجلة..

ـ السيد برادلي جولدنج.. سيارتك معنا ولن نطلب فدية مالية، ولن نطالب برقبتك أو غيره.. لسنا مجرمين بأي حال ولسنا متواطئين مع أي من مرافقيك هنا.

نعلم أنك لن تصدقنا، ولا يهمنا ذلك في شيء.. لنا طلبان سهلان يتوجب عليك تنفيذ أولهما، بعدها ستجد سيارتك بكل سهولة. نعلم أنك ستنفذ الأول، أما الثاني فلن يمكننا إجبارك عليه أبدًا..

الطلب الأول قد بدأت أنت بالفعل في تنفيذه، ألا وهو قراءة مذكرات الجد كوتنوار.. أما الثاني فتعرفه حين تتم مهمتك الأولى..

التحية والاحترام من ذئاب يلوستون!

www.ibtesama.com/vb

- ١٠ -

ليو كوتنوار

فتحت عيناي لأول مرة على وجه أشقر نامي اللحية، بدا لي أنه ليل على شاطئ ما، جثث محترقة متناثرة من حولي.. الماء المالح الذي بصقته للتو يُشعل النيران في رئتاي وبطني..

مجرد نظرة ألقاها على وجهي ثم قام يتواثب من جثة لأخرى. يرافقه رجلان لم أرَ ملامحهما في الظل، لكنهما ضخمان، يحمل الرجل منهما رجلان من الغارقين حولنا بلا أدنى علامات للتعب.

أخيرًا قام أحدهما بحملي على كتفه مع كثير من الكلمات والتوجيهات الملهوفة على لسان الأشقر الشاحب. عيناه بلا لون تقريبًا، ينظر لكل شيء حوله في شغف وابتسامة طفولية على وجهه.

وضعوني برفق في صندوق شاحنة تحوي جثثًا محترقة أو غارقة أو الاثنين معًا. كان من الصعب التعرف على أحد منهم مع التشوه في وجوه الجميع. لكنني لم أبذل جهد أكبر في ذلك، فنظرة واحدة إلى يديّ المرتعشتين

www.ibtesama.com/vb

المشوهتين كانتا كافيتين لإرسالي إلى عالم الهلاوس والأحلام مرة أخرى.

كانت تلك هي الليلة التي قابلت فيها إدڤارد هنترز. لم أعرف طيلة رحلتي معه وظيفته تحديدًا، لكنه كان يمارس أعمالاً أقرب إلى الطب أو تخصص متفرع منه.

مكثت مدة طويلة أفيق وأغيب عن الوعي، مكان نومي هو فراش هنترز شخصيًا بينما هو لا يفارق معمله، ينام على حشية هناك وأحيانًا يقضي أيامًا بلا نوم.

أفقت في ليلة ووجدت أن ألمي تحسن كثيرًا، رائحة شواء مقززة تتنامى إلى أنفي من النافذة ذات الستائر البيضاء المتربة.

قمت متألمًا من قرح في جسدي، التصقت بقماش القميص الأبيض الطويل الذي أرتديه. أزحت الستار برفق فوجدت حريقًا كبيرًا لعشرات الجثث التي حُملت معنا من الشاطئ!

ضيقت عيناي لأرى بشكل أفضل، ساعدني على الرؤية الظلام في الحجرة العليا التي كنت فيها. لاحظت أن الجثث مفتوحة الصدر والبطن ومخاطة بخيط سميك أسود.

أغلقت الستار وألصقت ظهري بالحائط البارد. في ضوء القمر الخافت رأيت انعكاس صورتي المظلمة في مرآة طولية جوار الباب. اقتربت ببطء، أحاول أن أتبين ما أراه حقًا. من بين بقع المرآة السوداء وألاعيب الظل والنور، لم أعد أرى وجهي القديم.. ثمرة باذنجان تُركت لتجف بلا رحمة.. ضاعت ملامحي تمامًا تحت الحروق والقشور.

لم أتمنَ الموت، فللعجب كنت شاكرًا لما أنا عليه الآن. يمكنني العيش وإن لم أتمكن من الحياة، وشتان ما بين العيش والحياة.

www.ibtesama.com/vb

ما يهمني الآن هو معرفة كنه ما يمارسه مضيفي بالضبط. إن كان قد أنقذني وحافظ على حياتي وأنامني في سرير فاخر كهذا فهو طيب، وإن كان يعبث بجثث الموتى فهو شرير، أو على أقل تقدير، يُفضّل الاحتراس منه، فمازلت أذكر نظرة السعادة في عينيه مع مرأى كل تلك الجثث تقذفها الأمواج إلى الشاطئ.

نزلت على السلم الخشبي إلى الطابق السفلي، الأثاث من طراز قديم تعلوه الأتربة، وإن كان فاخرًا يليق بالقصور.

المنزل نفسه أقرب إلى قصر صغير، لكنه مظلم، مترب، سيء التهوية إلى حد خانق.

اكتشفت متأخرًا جدًا أنني لا أرتدي سوى قميص أبيض واسع الكمين يصل حتى فوق ركبتي بلا سروال تحته. استدرت محاولاً العودة إلى حيث أتيت، لكنني وجدت هنترز يفتح بابًا جانبيًا، مرتديًا نظارة طبية مستديرة وقميصًا مشابهًا لقميصي بلا سروال أيضًا!

كان أبيض، شديد النحول. حك أنفه في إحراج وابتسم، فبدا وسيمًا بمقاييس البيض. مشى بتؤدة إلى حيث الصالون مذهب الإطار، وجلس واضعًا ساقًا على ساق كاشفًا عن سروال قصير أبيض تحت قميصه.

أشار لي أن أجلس وهو يتفرس في ملامحي المحترقة، أشعل غليونًا أقصر من غلايينا وأكثر زخرفة، سألني بفرنسية يشوبها شائبة لغة أخرى:

ـ أنت من العالم الجديد، أليس كذلك؟

أفهم الفرنسية من اختلاطنا بالفرنسيين في بلادنا، وإن كنت أخلط كثيرًا في تصريفاتها المعقدة، فأُفضّل أن أسمعها بدلاً من الحديث بها، وأُفضّل الإنجليزية عن الخيارين السابقين.

www.ibtesama.com/vb

هززت رأسي أن نعم، لا أعرف كيف عرف ولا يهمني ذلك حاليًا، ظننت لوهلة أنه من الممكن إخفاء أصلي تحت تلك الحروق البشعة، ظننت أنني على أعتاب حياة جديدة بلا قيد أو ماضٍ يثقل كاهلي. ربما لم يتعرّف هنترز على أصلي، كونه يعرف أنني أتيت من العالم الجديد لا يعني أنه قد عرف أنني هندي. انفتح الباب العملاق ودخل منه الرجلين الضخمين المتربّين يحملان رفشين ويؤكدان لهنترز أنهما قد دفنا البقايا.

ـ آسف لما حدث لك، لقد تعرضت سفينتكم جَدز ميراكل لهجوم مباغت من غواصة ألمانية فجّرت غرفة المحركات وتسببت في غرقها. لابد وأن البحارة لم يروا الطوربيد قادمًا..

عرفت منه أننا في منطقة تدعى روسكوف على مسافة بعيدة نوعًا من ميناء بريست، تطل على القنال الإنجليزي. رغم المسافة وانحناء الساحل، إلا أنه فوجئ بعدد كبير من الجثث جرفها التيار، يبدو أنه لم ينجُ أحد منهم سواي.

ـ وهل كنت على الشاطئ بالصدفة؟

ـ بالطبع لا، سمعت ليلاً في الراديو عن الهجوم الألماني، وأخبرني هاسلهوف عن الجثث التي قذفها المد في الليلة التالية إلى الشاطئ، فأينما تجد الموت تجد دائمًا إدڤارد هنترز!

أصابتني كلماته برعدة خفيفة، لابد وأنه قد لاحظها، فقام وأشار لي أن أتبعه. جاءنا المدعو هاسلهوف بصحفة طعام وجلس يأكل معنا.

كانت حجرة هنترز واسعة، عارية من الأثاث إلا من مكتبة حائط وحشية على الأرض. في وسط المكان منضدة غريبة الشكل ملطخة بدماء وسوائل غريبة، جوارها قنينات زجاجية وأدوات تشبه أدوات تقصير الخمور والعطور وموقد بنزن.

www.ibtesama.com/vb

كنت جائعًا بشده فنسفت الرغيف والحساء الرديء بينما يتأملني هنترز وهو يشرب الشاي متربعًا جواري على الأرض. أما هاسلهوف العملاق أصفر الشعر فغيظه من التهامي طعامه كاد يفجّر الدم من خديه.

مرت ليالٍ متتابعات، طلب مني هنترز في آخرها أن أرحل إن أردت -بخبث لم ألاحظه وقتها- أو يجد عملاً لي مع خادميه. كان الخيار صعبًا. الحقيقة أن عودتي بهذا الشكل إلى البحرية يهدد بتسريحي من الخدمة وعودتي إلى أميركا مهزومًا، محترقًا. يمكنني المتاجرة بذلك هناك.. البطل الذي احترق وهو يقاوم الألمان السفاحين. غالبًا لم ينجُ أحد غيري من جَدز ميراكل، لكن لن يعدم وجود شخص ما ممن نزلوا للحرب فعليًا يعرفني، ويعرف وظيفتي تمامًا في الحرب، طباخ لا أكثر.

أؤمن بأهمية منصبي كطاهٍ، لكن غيري -خاصة الجدة ويدونجي وزوجتي- لن يؤمنا بذلك، وسأصبح مجرد عالة عليهما، يلومانني كلما رأيا وجهي، ولربما طلبت زوجتي الانفصال كما فعلت زوجة ميريويذر.. لا.. لن أعود!

كانت وظيفتي المتوقعة عند هنترز هي طاهٍ! وقد كان الرجل ذو شهية للطعام الجيد رغم نحوله، فأراه يوميًا منهمكًا في رسم أعضاء وعضلات وعظام الجثث التي يأتي بها، وكأن شيئًا لا يعنيه في العالم بأسره سوى ذلك. لكن حين تتبادر رائحة طهوي الشهي إلى أنفه المميز العظمي، يترك كل ما كان قد بدأه. ربما يترك الأحبار لتنسكب، والأعضاء البشرية تهوي أرضًا من فوق المناضد، ويهرول تجاه صحن الحساء الشهي، يرشف منه بلا ملاعق، وكأنه تائه في الصحراء يعب الماء من واحة باردة.

هنتر طبيب لا يمارس الطب بشكل مباشر، على حد ما رأيت منه بالطبع، إلا أنه يعمل مع جراح فرنسي، وكما فهمت من كلماته أنه يدرس وظائف

www.ibtesama.com/vb

أعضاء جسد الإنسان ويجهز لكتاب يحوي التشوهات والأعاجيب التي قد يراها في أجساد بشر بعينهم كالأقزام والعمالقة والتوائم الملتصقين – برغم أنني لم أرَ شيئًا كهذا في حياتي- وكذلك من لهم قدرات خارقة كمن يبتلعون الأسياخ في السيرك، وينامون على المسامير وغيرها مما يتحدى قدرات البشر الطبيعيين.

كان السيد هنترز كريمًا معي، فمع توافر محل إقامة لي وطعام وأردية – بينها سراويل لحسن الحظ- كان يعطيني مبلغًا ماليًا جيدًا، قررت ادخاره تحت الحشية لتحقيق حلمي بإقامة معمل لبيرة الجذور في فرنسا.

كان تعاملي مع البشر محدودًا جدًا، فلا أحد يُفضّل التعامل مع مشوه مثلي. أقضي الليالي في استعادة قصيدة بوب التي أعطانيها صفوت، أراقب النجوم من خلف السحب الباردة الدائمة صيفًا شتاءً وأذكر آخر ليلة قضيتها في الحديث مع صديقي الهندي.

أين هو الآن؟! ماذا حدث له في الحرب؟ يقولون إن الولايات المتحدة وحلفاءها يحققون انتصارًا هائلاً على ألمانيا، لكن متى تنتهي الحرب؟ لا أحد يعرف على وجه الدقة.

مازلنا في يناير من العام ١٩١٨، حوالَي ستة أشهر مرت كسراب منذ غادرت بلادي. لا أجرؤ على مراسلة زوجتي وابني، من الخير لهم أن يظناني ميتًا، شهيدًا وطنيًا. لكن شيئًا بداخلي يدفعني دفعًا للكتابة، لكن لمن أكتب؟

يسألني كثيرًا السيد هنترز عن حياتي السابقة، وأتحاشى أنا الإجابة متظاهرًا بعدم كفاية حصيلتي من الفرنسية. لسبب ما أشعر بالراحة في التخفي خلف وجهي المنصهر الجديد، شعور بالحرية والراحة نتاج لإخفائي ماضيَّ.

www.ibtesama.com/vb

أجوّل وحيدًا في المنزل شبه الخالي، مايزال هاسلهوف ورفيقه يغطان في نوم عميق، ومايزال السيد هنترز يرسم باتقان، تتدلى ساقاه الرفيعتان من الكرسي العالي حيث جلس بلا سروال كعادته. لمح شرودي وحيرتي فنادى عليّ، أجلسني أمامه ثم شرع يقرّب مصباح الزيت من وجهي ويدور حول رأسي، يتحسس حروقي المندملة، ويضغط على عظام خديّ وفكّي بقوة آلمتني.

ـ هل تمانع إن رسمتك يا ليو؟!

ـ بالطبع لا، لكن ماذا سترسم في وجه سالت ملامحه؟

ـ سأرسم ما أراه، سأرسم الحقيقة التي تُحاول إخفاءها!

ـ أنا لا أُخفي شيئًا يا سيدي، أنت تعرف اسمي وتعرف من أين أتيت..

ـ لكنك لم تخبرني من أنتَ حقًا.. انتظر قليلاً..

يُخرج لسانه من ركن فمه ويلويه إلى أعلى عندما ينهمك في رسم ما، يتنفس بسرعة ويحمرّ خداه، ينسدل شعره الأشقر على جبينه ويلتصق بجبهته عرقًا حتى في الشتاء.

مرت دقائق طويلة لم أسمع فيها سوى خربشات عود الفحم فوق الورق الخشن، وأخيرًا يُبعد الورقة عن عينيه وينظر لها من فوق نظارته.. يبتسم..

يمسح أصابعه الملطخة بأصابع الفحم الذي استخدمه في الرسم في قميصه الطويل، ثم يدير اللوحة تجاهي، عيناه تنظران من فوق حافتها بلؤم طفولي..

ـ فوالا! هذا هو السيد ليو، الهندي الأحمر الذي يتظاهر بأنه ليس كذلك!

كنت أنظر إلى وجه ليو كوتنوار، بعينيه المسحوبتين إلى أعلى وشعره

www.ibtesama.com/vb

الطويل الفاحم، وفكه العريض البارز.. كان ذلك هو أنا، يرمقني عبر ستة أشهر منصرمة، وفي عينيه لوم من خشيت من اللائمين..

www.ibtesama.com/vb

- ١١ -

ذئب

كان رد أُسود الجبال على غارتنا سريعًا، ومباغتًا. تنشط تلك السنوريات ليلاً، فكان هجومها بعد مغيب أخي الشمس بوقت أطبق علينا الظلام بإحكام. إلا أننا مازلنا قطيع الينبوع العظيم، نتمتع بحاسة شم لا مثيل لها، وفراء فضي يتماهى بسهولة مع الليل والجليد المتراكم.

لم أتدخل في معركة أخويّ مع أنثى الأسد الغاضبة.. اقتفت أثر رائحتنا وعرفت جيدًا ما هي مقدمة عليه. ليس حجمها ضخمًا كحجمي، لكنها بلا شك أقوى من أخويّ الصغيرين.

ما أدركناه منذ الوهلة الأولى أنها ليست بمفردها، اثنان من الإناث تتسكعان في الجوار، بخطواتهما الكسولة والنظرة الخاملة الخادعة في أعينهما.

تراقبان الحدث كما أراقبه أنا من بعيد، تلك معركتهم الخاصة، والحياة القاسية على أرض يلوستون لن تناسب الضعفاء أبدًا.

تشتت تركيز الجميع حين شعرنا بخطوات خيول ورائحة بشر تقترب

www.ibtesama.com/vb

أكثر من موقعنا. فوران الينبوع ينثر الماء الحار في الهواء حولنا، فيتجمد في الهواء قبل أن يسقط فوقنا ندفًا من الثلج الهش.

أهز جسدي نافضًا الثلج عني، لحظات قليلة حتى فتحت عيناي، لأجد أنينًا من أنثتي الأُسود مسجيتان على الأرض، تُخرج كلٌ منهما لسانها من فيها، مفتوحة العينين، بلا حراك.

لم أرَ سلاحًا كهذا مع البشر، ليس فخًا ولا نيرانًا تقذف الشظايا.. سلاحًا بلا دماء مراقة، حتى إنني أشم أنفاس الأنثيين، أشم فيهما الحياة والموت ممتزجين في آن واحد.

عدوتُ مع إخوتي ونحن نطلق عواءً محذرًا لباقي الكائنات في محيطنا. أخواي الصغيران يتكوران خلف الاشجار، فيختفيان عن أعين البشر. أما أنا، فعوائي وحجمي الضخم لم يسعفاني أمام إصرار الصيادين وسرعة الخيل.

ألم خفيف في ظهري، ثم لم تعد قدماي تحملاني.. أشعر بدخيل شرير على دمائي، تُسرع ضربات قلبي في نقله إلى جميع أوصالي..

أشعر بالنعاس....

www.ibtesama.com/vb

- ١٢ -

برادلي جولدنج

بُهتت الوجوه من حولي، لا يقدر أحد على دفع الاتهام عنه. اعتدل كوتنورا في جلسته ساعلاً، بينما ألصق بيكوورث ظهره بالحائط لا شعوريًا. يبدو أن وجهي قد فاض غضبًا لأن جايكوب أمسك بمعصمي بقوة مبقيًا إياي في مكاني على الكرسي..

ـ ماهذا الذي سمعناه؟! ألم أقل لك يا جايكوب إن كل هذا كان مؤامرة؟! إفراغ سيارتي من الوقود وجرنا معهم إلى المشفى؟ ألم أقل لك؟!

ـ براد، لن يمكنهم أبدًا وضع خطة تتضمن منتحرًا! لقد وارينا الجسد التراب أمام أعيننا. بل كيف أمكنهم تغيير حالة الطقس لصالحهم؟ وما هو الدافع لكل ذلك؟ كان يمكنهم ببساطة أن يطلبوا منك قراءة المذكرات وكفى!

ـ مازلت تدافع عنهم؟! التسجيل واضح وصريح ويتضمن اعترافًا بالسرقة.. من هم أولئك الحقراء؟! ماذا تعرف عنهم أيها الهندي؟!

www.ibtesama.com/vb

ـ لن تصدقني إن قلت لك إنني لم أعرف قط أن هناك من يسمون أنفسهم بذئاب يلوستون.. العشرات من الشباب قد قرأوا مذكراتي أو سمعوا أجزاء منها على لساني، ومنهم الفقيد ألبرتو.. لا أعرف كيف أثّرت على عقولهم إلى هذا الحد.. أؤكد لك أن ذلك لم يكن مقصودًا.

ـ لقد جعلوها إنجيلهم الخاص يا سيد كوتنوار.. حكايتك دمرت عقولهم تمامًا!

ـ ربما أصلحتها!

كان التعليق الأخير من بيكوورث الذي تحرك نحو المذكرات وشرع يرتب أوراقها وهو ينظر نحوي لائمًا. بعينين لا تطرفان أعطاني المذكرات متكلمًا بصوت ثابت غير معتاد منه.

ـ يجب عليك احترام تلك المذكرات يا فتى، تلك الأوراق هي من عرفتني من أكون.. دون كلمات كوتنوار ما كنت سأربي ألبرتو، وما كنت سأتفهّم موقف والدته.. وما كنت سأصبر على وقاحتك كذلك.. اقرأ ولننتهِ من استضافتك في أسرع وقت.

تناولت المذكرات منه وعيناي لا تفارق عيناه المحمرتين من بكاء ابنه. كنت أريد أكثر أن أتخلص من رفقتهم، لكن كلماته ضغطت على كرامتي وعنادي، فأغلقت المذكرات ووضعتها على المنضدة أمامي. وضعت ساقًا فوق ساق، محاولاً التظاهر بالثقة والثبات.

ـ لن أقرأ شيئًا، فلتعيدوا سيارتي لي إن كنتم غير متواطئين كما تزعمون، أو أُبلّغ الشرطة في دينفر عن اختطافكم لنا.

لم أكن أعرف إن كان تهديدي صالحًا للتطبيق، ولا أعرف أكانت كلمات كوتنوار التالية خوفًا من تهديدي أم ثقة في نظرته لي.

www.ibtesama.com/vb

ـ لم يتبقَ في المذكرات قدر ما فات، ما الضير في أن تُكمل طريقًا قد قطعت أكثر من نصفه؟ اقرأ وإن لم تعد لك سيارتك فيمكنك فعل ما شئت.

ـ قد تقتلوننا.. فيم الانتظار؟!

ـ إن كنا نريد قتلكما لفعلنا.. ما الذي يؤجل تلك اللحظة؟ اتبع قلبك يا بني واقرأ..

بدأ جايكوب في القراءة قبل أن أنطق أنا، كان صوته دليل قلبي في متاهة الذئاب المظلمة التي انزلق فيها رغمًا عني..

www.ibtesama.com/vb

-١٣-

ليو كوتنوار

مع بداية ربيع فرنسا البارد، كنت قد اعتدتُ على طباع السيد هنترز الغريبة، واعتدت عدم السؤال عما خلف الأبواب المغلقة في منزله.

لم أكن أساعد رجليه في اقتناص الجثث المجهولة من المستشفيات والطرقات، وكانت معيشتي تقتصر على الطبخ والتنظيف بحذر شديد في الأماكن المسموح لي دخولها. كما قد نجحت في زرع بعض الفواكه والأعشاب في الحديقة لصنع بيرة الجذور منها. في البداية خطر لي أن الفواكة قد نبتت من سماد مكون من جثث مدفونة، ربما كان ميريويذر من بينها. فكنت أتذوّقها بصعوبة، حتى اعتدت الأمر، فكل النباتات تتغذى على كائنات ميتة متحللة في التربة وتلك هي الحياة.. "سي لا في" كما يقولها السيد هنترز بالفرنسية حين أسأله عن أي شيء يخص قسوة مهنته.

في إحدى الأمسيات الدافئة، وجدت السيد هنترز يرتدي ملابسه الكاملة، يضع عطرًا ساحرًا، يعتمر قبعة سوداء أنيقة فوق شعره اللامع المصفف بعناية بالفازلين، يمسك بعصا عاجية مزخرفة.

www.ibtesama.com/vb

أمرني أن أرتدي ثيابي المكوّنة من قميص أبيض وسروال ذي حمالات، زاد فيها قبعة كبيرة نوعًا تُخفي تشوه وجهي إن أبقيتُ رأسي منخفضة. كما أمرني أن أملأ عدة زجاجات ببيرتي الشهية وأركب معه سيارته المكشوفة الصغيرة.

خلفنا كانت الشاحنة تحمل حملاً مغطىً يقودها هاسلهوف جواره رايدر زميله، بدا عليهما الغيرة من معاملة هنترز الجيدة لي.

الحقيقة أنني لا أعرف لِمَ يعاملني بتلك الطريقة. كان بارعًا واستطاع أن يعرف ملامحي الحقيقية من بنية عظام وجهي المميزة. كان هو الوحيد الذي رأىٰ ملامحي علىٰ هذه الأرض ورأىٰ ما وراءها.

كثيرًا ما كان يطلب مني -بعد أن انكشف سري الصغير- أن أحكي له عن العالم الجديد وهو يرسم، ينهمك ويضيع في خياله الخصب، حتىٰ أظنه يرسم ما أحكيه، لكنني أفاجأ برسم لقطع من القلب أو تشريح للعين.. يخبرني أنه يرسم ما أحكيه بالفعل.. فداخل جسم الإنسان عالم جديد، متجدد، مبهر، وحشي.. تمامًا مثل عالمي علىٰ الجانب الآخر من المحيط.

أفقت من شرودي لأجد أننا قد وصلنا لخيمة عظيمة بحجم مبنىٰ من طابقين، لافتة بخط ملتوٍ مزخرف بكلمات فرنسية، سيرك بارنوم للعجائب.

حملت صندوق البيرة ومشيت محنيًا خلف السيد هنترز، أضرب بعينيّ يمنة ويسرة لأتعرف علىٰ المكان الجديد.

موسيقىٰ صاخبة تختلط بأصوات التجمع الهائل، يبدو أن المكان مخصص لعلية القوم، خشبة مسرح مقامة في المقدمة، حولها مناضد مستديرة يجلس عليها السادة الرجال بصحبة بعض النساء.

خفضت رأسي مرة أخرىٰ حين لمحت أحد السادة يتقدم من السيد هنترز، صافحه في ترحاب شديد.. لم أرَ منه في إطراقي الإجباري إلىٰ

www.ibtesama.com/vb

الأرض إلا يدًا بلون نحاسي على خلاف ألوان البشر هنا. أمر السيد الذي لا أعرفه بكرسي لي في آخر الصفوف حيث يعم الظلام، فجاء رجل أخذ مني صندوق البيرة وأجلسني في ركن أرى فيه الجميع ولا يراني أحد.

أخيرًا رفعت رأسي بحرص، أرى الستائر الحمراء والبذخ في زخرفة الأخشاب والأقمشة. هؤلاء قوم لا يعيشون في ذات العالم الذي تدور فيه حرب عظمى.

أرى هنترز جالسًا في مواجتي بينما رجلان أحدهما بني الشعر والآخر أسود الشعر طويله يجلسان قبالته وظهراهما لي، الرجل ذو الشعر الأسود هو ذاته ذو اليد نحاسية اللون.

جاءهم ساقي بالبيرة التي أعددتها، وهو مشروب -كما أرى- لا يليق بالنبيذ الفاخر والبراندي على المناضد أمامهم.

على المسرح، صعد رجل قصير ممتلئ ذو شارب متدلٍ على ركني فمه، يرتدي سروالاً مخططًا ضيقًا بشكل مستفز، أعلن في صوت جهوري عن فقرات السيرك فلم أميز من بُعد صوته عني شيئًا.

صعد بعده ساحر ما يخرج الأرانب من قبعته ويخفي الحمائم في كفه، ثم مجموعة شباب يؤدون أكروبات صعبة، ثم مجموعة من الزنوج يلعبون بالنيران ويبتلعونها..

تتابعت أنفاسي انبهارًا، فأنا لم أرَ سيركًا بهذه الإمكانيات من قبل. شاهدت مرتين سيركًا جوالاً في شايان لم تتعدَ فيه الفقرات عن خدع بورق اللعب أو قفزات مملة غير خطرة.

مجموعة الفقرات التالية هي ما خلفت مرارة في حلقي، كانت هناك فقرة يتم فيها عرض أناس بزوائد لحمية وجلدية مقززة، أو أقزام يتظاهرون بالظرف.

www.ibtesama.com/vb

أصابني الهلع حين رأيت لأول مرة توأمًا ملتصقًا من البطن، السادة حولي يتأوهون انبهارًا كأن لصاحب السيرك فضلاً في كونهم أصحاب عاهات غريبة..

أشحت ببصري فلم أقدر أن أشاهد أكثر.. ثوانٍ من الصمت جعلتني أنظر بحذر هذه المرة، رأيت السيد هنترز شخصيًا يصعد على المسرح ويتحدّث. قمت متسللاً من مكاني، ملصقًا ظهري بقماش الخيمة كي لا يلاحظني أحد. اقتربت أكثر محاولاً التدقيق في كلماته.

من خلفة صعد هاسلهوف ورايدر يقودان شيئًا ضخمًا له قدمان بشريتان وباقي جسده مغطى بالكامل بقماش أصفر.

يتحدث هنترز هن العلم وعما يمكنه أن يفعل من معجزات تفوق ما رأوه. بل إن ما رآه هو ليس بمعجزات في عرف العلم وأهله.

وعدهم هنترز قريبًا بدواء لكل داء مما رأوه، طلب من السادة أن يفتحوا أعينهم جيدًا ويشاهدوا، أن يدعموا العلم بمالهم فهو المستقبل المشرق المنبعث من ظلمات الجهل والحرب.

أقترب أكثر وأضيق عينيّ.. يسحب هنترز الغطاء من فوق الشيء المتخفي.

كان رجلاً يفوق الستة أقدام طولاً، محترق الجسد، يبدو لي مألوفًا جدًا.. يبدو لي هنديًا وإن اختفت ملامحه ما بين حروق وظلال.. يبدو لي مؤمنًا أن لا قطعة فحم يمكن لها أن تتعذب في جوف جَدز ميراكل، باختصار، بدا لي ميريويذر!

يقول هنترز:

ـ أن يكون كاملاً.. هذا هو ما يسعى الإنسان إليه منذ القدم،

www.ibtesama.com/vb

في بعض العقائد القديمة لا يدخل ملكوت السماء من انتقص شيئًا من جسده.. في اكتمال الجسد اكتمال للروح. أذكّركم بأن أول جراحة تجميلية جرت منذ آلاف السنين في عهد الدولة القديمة في مصر الفرعونية، ذلك ما ذُكر في بردية إدوين سميث.. لم يكفَّ البشر من وقتها عن محاولات مداواة جراحهم. حتى جاءت الحرب العظمى وأخذت الشواطئ تُلقي بأطفال الرب وقد تشوّهت أجسادهم، وضاقت الأرض بما رحبت من مصابين، ملفوظين من المجتمع رغم كونهم من الأساس أبطالاً..

لقد تركت النرويج يا سادة منذ خمسة عشر عامًا بحثًا عن الكمال.. مع ابتكار وسائل للتخدير والتطهير أصبح عالم الكمال مفتوحًا على مصراعيه.. دلف فيه قبلي أساتذتي، السير هارولد جيليز[1] النيوزلندي، والفرنسي الطبيب هيبوليت موريستن.. وقد شرفت بالعمل معهما في لندن. وهما الآن يساعدان الآفًا من الجنود ضحايا الحرب..

أخرج السيد هنترز صورًا لجنود تم ترقيع جلودهم بجلود أخرى، مهما كان الترقيع باديًا، فصور ما قبل الجراحة أفظع بكثير..

ـ ما أبحث أنا عنه أيها السادة هو تطوير لما بدأه أساتذتي.. لن أكتفي بما توصلوا إليه، فأنا أبحث عن الطريقة التي يمكنني بها إعادة الأطراف المقطوعة، بل وتشغيل ما تم تدميره من أعصاب وعضلات.. أن أجعل الإنسان على صورة الرب، خالدًا، جميلاً.. أبديًا..

ضجت الخيمة بالحوارات الجانبية، أكثر الجلوس مستنكر، وبعضهم لمعت في عينيه ومضات الجنون. حلم البشرية القديم، الكمال.

---

(١) Harold Gillies الأب الشرعي لطب جراحة التجميل، وقد بدأت جهوده في الازدهار مع حلول الحرب العالمية الأولى.

www.ibtesama.com/vb

ـ هذا الذي معي، هو شاب احترق جلده ففقد حاسة اللمس، أجريت له عدة جراحات تجميلية كلها في منطقة الوجه، وذلك على يد جراح فرنسي لم يشأ أن أذكر اسمه الآن. حاولنا قدر المستطاع الإبقاء على هوية أبناء وطنه كما ترون.. هنا.. رسوم توضيحية لمشروعي لتوصيل ذراع صناعية له عن طريق ربطها بالعضلات الأصلية...

في دقائق كان القوم فوق خشبة المسرح، يرمقون رسوماته في فضول، ويتحسسون ما فعله ورفيقه المجهول بميريويذر..

لقد اعتدت ميريويذر بحروق وجهه البسيطة وقبحه المألوف، ما فعله هنترز هنا هو أن جعله ما تخيله هو عن وجهه. عظام وجهه الضخمة لم تُفلح كثيرًا في جعله أكثر وسامة، لكنه صار شيئًا صناعيًا بذراع واحدة. عيناه غائرتان لا تعيان أي شيء مما حوله.

بضع شيكات بمالغ مالية مختلفة اختفت في جيب بذلة هنترز، هذا هو ما أراده منهم، تمويل من مشاهدي سيرك العجائب لمشروعه العجيب. حسنًا فعل هنترز بذلك العرض في ذلك المكان بالذات، وقد جمع في خطابه ما بين العلم والدين لإرضاء من كان متشككًا في تعارض الأمر مع الدين، وأثار اهتمام من كان منهم يتخذ العلم دينًا.

أعاد هاسلهوف ورايدر الغطاء على ميريويذر وقاداه عبر فتحة في خلفية المسرح. درت حول الخيمة لأجدهما يعيدانه إلى الشاحنة مرة أخرى. جريت محاولاً الوصول إليه فمنعني هسلهوف بقبضة أطبقها على كتفي، فركعت ألمًا.

رحلت الشاحنة تاركة إياي وحيدًا على خلفية من الضحكات والصخب. عدت منكس الرأس، أُخفي عاهتي عن القوم. ما إن رآني هنترز حتى ناداني باسمي.. رفعت رأسي في حرص لأجده ومرافقيه

www.ibtesama.com/vb

يمشون نحوي، يحتسون بيرة الجذور المصنوعة من جثث رفقاء البحر التعساء. هكذا أراها الآن بلا مواربة.

ـ هذا هو ليو كوتنوار يا سيد جان تيسو، مثلك، من العالم الجديد!

رفعت رأسي بلا حذر نحو ذي اليدين نحاسيتي اللون، كان هنديًا مثلي تمامًا، عريض الفك، أسود الشعر، مسحوب العينين. أربعينيًا يرتدي قميصًا حريريًا أبيض وربطة عنق حمراء وبذلة مضبوطة على مقاسه تمامًا، وإن لمحت بعض التبرج على وجهه.

على يسار هنترز وقف رجل يكبر السيد جان بحوالي خمسة عشر عامًا، بدين يرتدي الذهب بكثافة. هز رأسه لي في لامبالاة ورحل وهو يتحدث مع آخرين يشبهونه.

ـ أهلاً بك يا سيد كوتنوار، سعيد بملاقاتك.. وآسف على ماحدث لوجهك..

بلا تحفظ ربت على كتفي واقتادني مع هنترز إلى منضدة هادئة. أثنى على مشروبي وطلب مني إمداد قصر الدوق فريدريك توسون من برمنجهام ببيرة الجذور التي أصنعها. قصره في فرنسا يقع على بعد عدة كيلومترات من هنا. بالطبع لم أعتد القياس بالنظام المتري لكن ذهني كان مشغولاً أكثر من مجرد تحويل المسافات. ما الذي أتى بالهندي هنا؟ والأهم، كيف وصل إلى الثراء البادي عليه؟

داعب كل هذا حلمي في أن أجد نفسي في العالم القديم. ثري، ناجح، تبيع بيرتي ملايين الزجاجات التي تحمل اسمي سنويًا. لا يمكن لأحد أن يجد النجاح والحرية إلا في البلد التي أهدت الحرية وتمثالها إلى أميركا.

حين عدتُ ليلاً مع السيد هنترز، كنت مرهقًا محملاً بمختلف أنواع المشاعر.. أمل.. ألم.. ذنب.. اشتياق.. تمرد.. حيرة..

www.ibtesama.com/vb

أضأت المصباح الكهربي في غرفتي -التي كانت غرفة هنترزالمهجورة- وأخرجت ورقات وقلم الحبر. خططت على المظروف العنوان الذي لم أنسه قط كما لم أنسَ صاحبه ولا القصيدة التي كتبها لي يومًا.

كنت أريد أن أُخرج كل ما يعتمل في قلبي على الورق، أحتاج لشخص يعرفني ولا يعرفني في نفس الوقت. شخص رأى ليو كوتنوار الحقيقي حتى وإن لم تتعدَّ معرفتي به ساعات منثورات في عقد قصير مقطوع من الأشهر.

كتبت، وصارت الكتابة لصفوت عادة لدي، ستتراكم الرسائل في بيته حتى يعود من الحرب فيقرؤها. أو لا يعود.. فتصير حكاياتي المكتوبة حلقة في سلسلة من ستؤل له خطاباتي في النهاية.. هكذا أخبرني صفوت وهكذا أرادني أن أفعل حين طلب مني مراسلته..

فلأكتب..

www.ibtesama.com/vb

- ١٤ -

ذئب

الربيع.. أحكّ فرائي في القضبان الحديدية.. أحكّه في الأرضية الخشنة المتسخة.. في ذلك الجو الحار، لابد لي من طرح فرائي الشتوي مبكرًا.

رغم أن الربيع الماضي كنت في ذات المكان، لكنني لم أكن أشعر ببروز عظامي إلى هذا الحد. غريزة البقاء تقتلني، بينما يذبحونني هم بإجباري على التزاوج بأنثى كلب!

لم أخضع قبل ذلك، تمزق فرائي في أكثر من موضع جراء الضرب.. لم أخضع..

إلا أن غريزة أعلى مني تجتاحني، لابد أن تتناسل، لابد أن تبقى.

كل الذئاب التي جاءت معي استسلمت، أرى جراءهم الهجينة تملأ المكان. بل إن بعضهم قُتل بعد تناسله وسُلخ. كل ذلك يتم أمام بعضنا البعض بلا اكتراث لأرواحنا المعذبة.

حين يعرضوننا في حديقة مسورة مع أقفاص تحوي حيوانات أخرى

www.ibtesama.com/vb

أغلبها من يلوستون، يقتلني عجزنا عن الهجوم على من يأتون من أبناء نانابوزهو ليحدقوا إلينا في العيون، بلا أدنى احترام لذواتنا الحرة. يقذفنا أطفالهم بالطعام، ويصدرون أصواتًا مزعجة، أعاقب بالضرب حين أعوي محاولاً إبعاد أصواتهم عن آذاننا الحساسة.

يأتي بعض المتفرجين خصيصًا لمبادلة الجراء الهجينة بأوراق صغيرة، ثم لا نرى الجراء مرة أخرى..

أدخلوا عليّ أنثى كلب منهوكة القوى، تهاوت على بطنها فور غلق القفص علينا. مازالت الكلاب والقيوطات قريبة منا بشكل ما. نستطيع التواصل وتبادل سيل الذاكرة المتوارثة عبر الأجداد.

متألمة، كسيرة الفؤاد، يستولدونها ويحرمونها جراءها بعد إتمامها الرضاعة. لا يعلمون أن رائحة كل صغير من صغارها مازالت عالقة في قلبها. لا يعلمون أنها تشعر بكل منهم مهما ابتعدت المسافات، تعلم من عاش ومن مات، ومن استُعبد على يد البشر.

انكمشت في الركن بدورها حين أدركت من أكون، هي لا تعرف شيئًا عن قطعان يلوستون، لكن السلسال القوي يدمغ ذاكرتنا بما لا يمكن إزالته، يدمغها بالحرية.

أتشممها، جاهزة هي لإطاعة غريزة البقاء رغم انكسار الروح فيها، لا تشبه رائحتها رائحة وليفتي الحرة في شيء. رائحتها حزينة، أسيرة، مستسلمة.

أقاوم حتى آخر لحظة، فلا يجوز أن تغرس بذرة حراس الثلاثة قبور في أرض غريبة، لتنبت زرعًا يؤسر ويباع لبشر.

ابتعدت عنها مكشرًا عن أنيابي، فقوّست ظهرها وثنت ذيلها بين ساقيها في ذعر. نمنا ليلتنا كل في ركن قصي من القفص. روادتني في منامي مشاهد

www.ibtesama.com/vb

لصياد أعرج صغير السن، ورجل أسود وجهه مطلي بالأحمر. رأيت هندية عجوز تبكي فتاة بيضاء ملونة العينين. وأخيرًا رأيت رجلاً بلون لم أره من قبل في يلوستون، ملامحه غريبة، طويل اللحية، مهموم العينين، يهمس لي "طبعًا.. فأنت الأمريكي الأصلي الوحيد.. أنت وكل الأخوة مثلك..

في تلك الاحلام أفهم لغة البشر ويفهمونني، لكنني لم أفهم من هو الرجل الأخير، فمن سبقوه أعرف أنهم من حيوات أجدادي السابقين، لكن الرجل الأخير غريب عن ذكرياتنا تمامًا.

في إشراقة أخي الشمس التالية، تم حرماني من الطعام لإجباري على التزاوج، فلم أفعل، أجبروا كلانا على التقارب بشكل مهين فعقرتُ ذراع الرجل الأبيض الذي فعل بنا ذلك رغم جميع الاحتياطات التي اتخذوها لمنعي من العض.

ضربة بقطعة خشبية على رأسي أخفت العالم من حولي، لكنني مازلت أشم رائحة الغضب والخوف الشديد في دماء حراسي. رجل آخر يمنعهم من قتلي ضربًا، أكاد أراه من خلف بقع على عينيّ تحجب الرؤية.

وحين جاء المشاهدون بعدها، انزويت في ركني، رغم الطعام الموضوع أمامي، لم آكل.. مازلت اشم رائحة أنثى الكلب رغم إخراجهم إياها من قفصي.

كدت أسلم الروح يومها، ليس من جوع أو حزن، فقط من انقطاع الغاية من حياتي في ذلك الأسر.. أنا لا شيء ولا أبصر أمامي أي حلقة من حلقات الحياة أتشبث بها لأكتمل.

كنت أقول إنني كدت أموت، لولا أن رأيت أمامي الرجل الذي أحلم به، بكل تفاصيله التي أعرفها من حلمي، يمسك بكفه كف فتاة صغيرة تشبهه، وقد بُترت كفه الأخرى.

www.ibtesama.com/vb

تعلقت عينانا للحظات، أثار جروح كبيرة على وجهه، واعتراض على ما يراه من الحيوانات الأسيرة حوله بادٍ على تقاسيمه.

أشاح بعينيه عن عينيّ وإن ظل وجهه يواجه وجهي، يحترم وجودي فأحترم وجوده..

كدت أن أموت، لولا أن وجدت حلقة أتشبث بها في الحياة الكريمة لصفوت سيجي!

www.ibtesama.com/vb

- ١٥ -

برادلي جولدنج

توقف جايكوب عن القراءة وبدت على وجهه الحيرة، قمت من جلستي على الرصيف، شاعرًا أن الرطوبة التي تسللت إلى عظام حوضي من الجلوس على أرض شبه مبتلة لن تخرج منها أبدًا.

وقفت جوار جايكوب المستند بظهره إلى سيارة بيكوورث ونظرت إلى المفكرة، كانت المذكرات تخلو من الفصول التي كتب عليها كوتنوار اسمه، فقط هي مذكرات ذئب بها فجوات كبيرة بسبب نقص رواية كوتنوار لدوره فيها..

ـ ترى الصفحات سقطت حين مزقتُ المفكرة؟

ـ لا أظن، هي فقط غير مكتوبة هنا، كيف تسقط صفحات كوتنوار فقط؟

ـ لن أعود لأسأله، اذهب أنت واستفسر منه، ولتسرع حتى ننتهي من

www.ibtesama.com/vb

تلك المهمة.. ولتسأله عما قاله له المأمور بخصوص سيارتي.. من حقي أن أعرف.

عبر جايكوب الطريق مرة أخرىٰ إلى الباب المفتوح، الذي يبدو منه كوتنوار غافيًا في وضعية الجلوس بينما بيكوورث يسدد لنا النظرات الغاضبة بلا توقف.

رن هاتفي المحمول، كان رقمًا لا أعرفه، رددتُ في شك..

ـ براد؟ أهذا أنت؟ هذه آنجي معك..

ـ آه أهلاً.. كيف حالك؟ تعازيَّ من أجل الرجل العجوز..

ـ أشكرك.. براد، لقد دفنا والدنا حالاً.. عرفنا من صديقة لوالدي أنك لن تأتي.. معذرة، أخذت رقمك من دفتر أبي، نريدك ان تأتي أو ترسل محاميك لإنهاء إجراءات الميراث في أقرب وقت. آرون لم يترك شيئًا سوىٰ المنزل والسيارة الموستانج.. براد... أتذكر السيارة الموستانج؟!

بدا صوتها أقل عملية في عبارتها الاخيرة، بدت آنجي التي تركتها وهي بعد في العاشرة. الأخت الصغرىٰ الجميلة، البرّية كالخيل.

ـ بالطبع أذكرها.. وأذكر رحلات زيارتنا للجد في الأعياد، بالمناسبة، أنا قريب من الطريق ٢٨٧.. مستعمرة ويند ريفر..

ـ يا إلهي! ماذا تفعل هناك.. ظننت أنك لن تعبر هذا الطريق أبدًا ما حييت.. هل تغيرت كثيرًا يا براد؟ أظن لا.. مقالاتك تقول إنك تغيرت إلى ما أردته دومًا.. أنا شخصيًا لم أتغير.. وبالمناسبة، أنا أعمل في منطقة ملاصقة لمستعمرة ويند ريفير..

ـ هل تربين الخيول كما حلمتِ دومًا؟

www.ibtesama.com/vb

ـ لا.. أعمل في متنزه يلوستون الوطني.. في مشروع إعادة إدخال الذئاب إلى المتنزه.. تخيل أننا في خلال خمس سنوات فقط حصلنا على ١٣٢ ذئبًا بالغًا من أصل ٢١ جلبوهم من كندا؟ بالطبع هم بدأوا قبل انضمامي لهم، فأنا أعمل منذ عام واحد فقط.. ما يحزنني أنه لم يعد هناك أي ذئب من الذئاب الأصلية في المتنزة، كل القطعان الجديدة ذئاب كندية..

ـ هل تعرفين ما كنت أفعله في مستعمرة ويندريفر؟ أُجري حوارًا من نوع خاص مع الهندي الذي قتل آخر ذئاب يلوستون!

ـ أتمزح؟! غريب أن يتشابك مستقبلنا بهذا الشكل رغم أنني قد ظننت أننا توجهنا في اتجاهين مختلفين تمامًا..

ليس غريبًا يا أختي الصغيرة، ليس غريبًا أبدًا بعد كل ما قرأته ومازلت أقرؤه من مذكرات قاتل آخر الذئاب.

أبصرت جايكوب آتيًا يحمل رزمة من الخطابات العتيقة، فطلبتُ من آنجي أن تتصل بي مرة أخرى غدًا لنكمل حديثنا، ذلك الحديث الذي زهدت في إكماله فجأة رغم سعادتي بسماع صوتها الشجي.

ـ هاك، تلك مجموعة خطابات من ليو.. ليو الحرب العالمية الأولى، فالمذكرات تحوي الكثير من الليو، وبين الهندي صفوت سيجي.. ربما تسدّ تلك المراسلات الفراغات في المذكرات بشكل ما..

ـ هل سألته عن سيارتي؟

ـ قال لي إن المأمور أخبره أن من سرقها هم مجموعة من الشباب من يلوستون، هم أصدقاء بشكل ما للفقيد ألبرتو، منهم من يعمل في المستعمرة، ومنهم من يعمل في السياحة في المتنزه الوطني أو فنادق لاندر.. هم يعملون على استجواب من وجدوه منهم، أما الباقي فمازالوا يبحثون عنهم..

www.ibtesama.com/vb

لم يُرد كوتنوار أن يصارحك بذلك كي لا تتهمهم مرة أخرىٰ بالسرقة، لكن المسجّل عجل بكشف السر.

مشوش الذهن أنا، هناك رابط بين كل شيء قاله جايكوب، وبين كل شيء يحدث هنا، لكنني لا أستطيع ترتيب ذهني.. كل ذلك الضغط النفسي وقلة النوم يحول ذهني إلىٰ قطعة إسفنج تمتص كل شيء وتخلط كل شيء بلا فائدة.

أخرجت مفتاح سيارة بيكوورث الذي لم يزل معي حتىٰ الآن، دعوت جايكوب لدخول السيارة، كفىٰ مؤخرتي رطوبة اليوم..

فتح جايكوب أول الخطابات، دليل لا يدحض علىٰ أن المذكرات بها شيء كبير من الصحة. هذه خطابات حقيقية لها رائحة قوية من التوابل الشرقية.

ـ العزيز صفوت سيجي..

مدوّن علىٰ المظروف عنواني في فرنسا، فلا تبخل عليّ بالرد وإن طال الزمن.. أحتاج لوصل ما انقطع من نسيج روحينا، فأنا أشعر بالضياع بعد أن فقدت ملامحي إلىٰ الأبد.. طبقة من الذكريات المحترقة مازالت تقبع بين وجهي الهندي الأصلي، وبين الوجه الجديد الذي أعطانيه هنترز.. انجدني يا أخي.....

www.ibtesama.com/vb

- ١٦ -

ليو كوتنوار

..... لا أعرف إن كان خطابي الأول لك قد وصلك، بل لا أذكر إن كنت قد أرسلته لك من الأساس. سأعيد لك ما حكيته فيه إن تلقيتُ منك ردًا..

أما الآن فأريد أن أحكي لك ما عرفته من حياة جان تيسو. هل تعرف أن ساكاجاويا من أجداده؟ كان يعيش في شريدين، وايومنج، ويعمل في مكتب البريد، حتى وصل سن الثامنة عشرة. له عم بعيد هو ابن ساكاجاويا مباشرة، أخذ ذلك العم السيد ويليام كلارك -تبناه بموافقة والده نصف الفرنسي نصف الهندي، زوج الهندية ساكاجوايا من الشوشوني- وتولى تعليمه ردًا لجميل أمه الشهيرة وأبيه في مساعدة حملته على استكشاف أراضي الهنود الغامضة. يقول جان إن عمه هذا سافر مع دوق نمساوي، لكنه لم يذكر السبب لي.. يقول إنه أمضى شبابه في أوروبا وتعلّم لغات كثيرة، ثم عاد مكتئبًا حزينًا ليموت في وطنه. انبهر جان تيسو بحكايات عمه عن أوروبا، وتجاهل عامدًا نبرة الحزن والسخط في كلماته.. تجاهل صمت عمه عما حدث هناك.

www.ibtesama.com/vb

أثناء عمل جان في مكتب البريد، تعرّف على رجل يكبره بخمسة عشر عامًا، إنجليزي. نمت بينهما صداقة أحبها جان، وشاهد من خلال بذخ الإنجليزي معه كل الملذات التي خفيت عنه في نيويورك. وأراه جان ما خفي عن الإنجليزي من أسرار الصيد في وايومنج. حتى آن ميعاد عودة الثري الإنجليزي فريدريك توسون إلى أوروبا، فلم يستطع جان التخلي عن الحياة الرغدة مع صديقه وقرر الهرب من أهله والسفر معه..

هناك رسم لهنترز يمثل وجه ساكاجاويا كما وصفها له جان من خلال حكايات عمه. جميلة وحزينة وباسلة كما تخيلتها دومًا.

واظبت على توصيل البيرة إلى القصر في كميات قليلة تتيح لي فرصة التردد على المكان الفاخر أكثر. لأول مرة أرى ثريا تحمل كل هذا العدد من المصابيح الكهربائية الغالية. سمعت موسيقى وأغاني من الفردوس في الراديو الضخم في صدر القاعة الرخامية بالقصر.

لدهشتي لم أرَ صاحب القصر أبدًا، وعرفت أنه تركه لحياة جان تيسو وعاد هو إلى إنجلترا لعمل لديه. لكنني أشعر دومًا أن جان تعيس رغم كل هذا الثراء.. يتعامل مع القصر كلعنة لا كنعمة. يأكل ويشرب ما يأكله العمال والخدم ويأبى الطعام النظيف. معظم ما يرسله له الدوق فريدريك يرسله لهنترز لتمويل مشاريعه الطبية الغريبة.

كان يطعمني ويسقيني ويغدق عليّ من الملابس والمال، يبتسم فقط حين يرى الفرحة في عينيّ. تجرأت يومًا وسألته عن سر الصداقة بينه وبين الدوق وبينه وبين هنترز..

ـ ما بيني وبين الدوق هو رباط بين رجل فقد رجولته ومن بعدها كينونته في رحلة البحث عن الكمال في العالم القديم، وبين رجل فقد آدميته وسار وراء علاقات شائنة يشتريها بأوهام ذلك العالم القديم.. أما ما بيني

www.ibtesama.com/vb

وبين هنترز هو علاقة بين رجل لا يبغي المزيد من التلوث ولا يقدر على العودة بعاره وضعفه لوطنه، وبين رجل قادر على استئصال ضعف الجنس البشري لكن ينقصه المال..

كان اعترافًا لا يصدر إلا من رجل قوي فعلاً، نادم على فشل حياته. سألته أخيرًا عن العلاقة بيني وبينه فأجاب أنها علاقة بين رجلين أحدهما يسبق الآخر بخطوة، علاقة تسمح لأحدهما بأن يُريَ الآخر مستقبله باختصار..

ـ ليو، إن أعطيتك كل ما ترغب من المال، هل تعود إلى زوجتك وابنك فورًا وتبدأ مشروعك الذي حلمت به هناك؟

ـ ولِمَ لا أفعل هنا؟ فرصة بيع بيرتي هنا أفضل بكثير.. ولا أظن أنني سأُشرّف ابني وزوجتي بكوني كنت طاهيًا في الحرب، ولا أعتقد أن زوجتي ستتحمل وجهي الشائه.. فلنُقِم هذا المصنع هنا، أنت بمالك وأنا بمجهودي!

ـ مازال البشر يجهلون الرسائل المخفية في حلقات الحياة المتصلة المنفصلة بين البشر.. لقد سمعت حكايات عمي فلم أرَ فيها إلا ما أردت رؤيته، وقد سمعت أنت حكاية عمي وحكايتي ومازلت على رأيك.. أخي، سأعطيك ثمن ما بعته من حياتي ولا أريد منك ربحًا ولا مشاركة، فقط أريد منك وعدًا أن تعود وتبدأ من حيث جذورك، ثم يمكنك التوسع إلى أوروبا ببيرة ممتازة تحمل اسم كوتنوار وصورة هندي حرّ على كل زجاجة.. أن تبيع هنا خلاصة أصلك وأصل أرضك.. أن تردّ ما فعله طموح الأوروبيين في أرضنا على الجانب الآخر من المحيط، كل ما نأكله ونشربه ونتنفسه مدموغ بدمغة أوروبية، متى نفعل نحن العكس؟!

أخرج يومها شيكًا بملغ مالي ضخم وأخبرني أن هذا هو كل ما يملك، وطلب مني أن أذهب وأُحضر هنترز حالاً.

www.ibtesama.com/vb

ذهبت، وحكيت لهنترز في الطريق ما كان بيننا، فأخذ يضرب المقود بقبضته ويزيد من سرعة السيارة في جنون حتىٰ وصلنا. اندفع هنترز جريًا أمامي خلال باب القصر الموارب، حتىٰ وصل منتصف القاعة الكبيرة وتوقف شاهقًا فجأة حتىٰ كدت أصطدم به.

كان الهندي جالسًا في كامل أناقته وسط بركة دماء، مصدرها شرايين معصميه المقطوعين بسكين من الفضة علىٰ الأرض. في جيبه العلوي وريقة بارزة، جذبها هانترز بحرص شديد كي لا يطأ بركة الدماء، وفتحها..

بلغة الشوشوني التي لم يفهما سواي، كتب جان تيسو (إلىٰ الحرية يا ليو، سبقتك).

لدهشتي من نفسي، أول ما فعلته هو أن صرفت المال من المصرف بعد أن ساعدت هنترز علىٰ حمل الجثة إلىٰ منزله وتنظيف المكان قبل أن يأتي أحد من الخدم في نهاية الأسبوع للتنظيف.

بالطبع لم نبلغ الشرطة، لأن وصية جان لهنترز هي أن يستخدم جثته لصالح العلم في حال وفاته، وقد كتب له موافقة علىٰ ذلك من قبل موقع باسمه.

بحث الدوق عن صديقه المختفي كثيرًا، وقد ثار لدرجة لم أعرف مغزاها إلا حينما أخبرني هنترز بالسر..

ـ للدوق ميول استعمارية عنصرية بلا شك، فكل خدّامه غير أوروبيين.. مرض الدوق وأصبح غير قادر علىٰ تلبية طلبات زوجته الشابة الجميلة، زار العديد من الأطباء حول العالم، آخرهم في نيويورك وأخبره ألا علاج لحالته. أكمل رحلته في صيد الذئاب والدببة في متنزه يلوستون، كان الصيد يشعره بالرجولة فعلاً، حتىٰ قابل جان تيسو. بحثًا من الدوق عن متعة

www.ibtesama.com/vb

فقدها للأبد، قرر أن يُجرّب شيئًا مجنونًا مختلفًا، علاقة مع شاب يُشاع عن جنسه قوة أسطورية في مثل تلك الممارسات.. كلام غير علمي، لكن من قال إن الدوق يسير على منطق عقلي؟

كان الاتفاق بينهما ضمنيًا، لك كل ما تريد أيها الهندي، ولي كل ما أريد. حتى سافرا إلى إنجلترا وقابلت زوجته الجميلة الشاب القوي.. يبدو أن تلك الأسطورة الجنسية شائعة بشدة، لكنني أرى أن حرمان الزوجة وشبابها هو ما كان وراء حبها الفعلي لجان تيسو. بعد فترة عرف الدوق المجنون بأمر العلاقة فأمر بعزل الشاب في قصره في فرنسا، وكان اتفاقًا ضمنيًا آخر.. لك كل ما تريد ولي كلما أريد على أن تصمت تمامًا عما تعرفه عني وتنقطع علاقتك بزوجتي.. وقد كان..

ـ لِمَ لم يقتله الدوق وينتهي الأمر؟

ـ ألم أقل لك إن الدوق قد هام به حبًا هو الآخر؟! خليط لا يُصدّق من معاقبة الذات والعنصرية والحب الآثم.. تلك أشياء تحدث..

أعتقد أن شيئًا من ذلك لن يحدث لي، ربما كان خوف جان تيسو عليَّ في غير محله. فكل ما أريده هنا هو حياة جديدة، بلا لوم ولا أعباء.

قد نسيت ميرويذر بشكل جعلني أتقزز من أنانيتي، حتى فاجأني هنترز في نهاية حديثه بطلب غريب، طلب مني أن أُقنع ميرويذر بأن يتبرّع بجسده لصالح البحث العلمي وأن يمهر بتوقيعه موافقة مكتوبة مسبقًا.

قال لي إنه وافق على جراحة التجميل تحت تأثير الصدمة، وقد تراجع عن قراره بعد أن رأى وجهه بعد الجراحة. هو لا يفهم الفرنسية ولا الإنجليزية ولا يفهم هنترز لهجة قبيلة الناز بيرسي الهندية. يبدو أن سوءً للفهم قد حدث نتيجة ذلك الاختلاف في اللغات.

www.ibtesama.com/vb

ـ لقد قدمت له مساعدة مجانية يتمناها المئات من المشوهين، ثم عاد وطالبني بلغة إنجليزية غاية في السوء بأن أُعيد كل شيء إلى ما كان عليه! بالطبع لم أوافق.. لا يمكنني ذلك فعليًا، فقد يصاب بتشوّه أكبر مما كان عليه، بالإضافة إلى.. أنت تفهمني طبعًا.. كنت أحتاجه لعرضه على المموّلين أولاً، وثانيًا.. ظننت أنه قد يوافق على منحي جسده بعد وفاته مقابل خدمتي له.. إن جسده ثمين جدًا، الرجل لم تتوقف عظامه عن النمو بعد الثامنة عشرة كالمعتاد، تشوّه ملامحه نتج عن ذلك. ستكون دراسة حالته وتكوين جسده وأعضائه شيئًا هامًا جدًا بالنسبة لي.

ـ ولم تحتاج موافقة منه؟ عندما يموت يمكنك أن تفعل به ما تشاء!

لهجتي المتّهمة أثارت حنقه، فقام يدور حول نفسه كأسد هائج، ينتفخ قميصه المتسع الطويل مع دورانه، فيبدو لي ملاكًا متمردًا ساقطًا من السماء. فتح درجًا خشبيا فانفلت من مكانه إلى الأرض، انتثرت منه العشرات من اللوحات المرسومة لوجوه مختلفة، وأوراق متماثلة موقّعة كل بتوقيع أو ختم أو بصمة إصبع.

ـ ماذا تظنني؟ هه؟ لا شرف لي؟ لقد ساعدتك وساعدته، إن أردت قتلكما لقتلتكما ولن يعلم أحد.. لكن الموافقات الكتابية هامة لمصداقيتي وشرفي في الأوساط العلمية وفي المستشفى التي يعمل بها صديقي الطبيب. هي إنجيلي ودليلي على نبوتي.. لقد ساعدتك يا ليو كوتنوار، أنقذتك من الموت وعرّفتك على من أعطاك أموالاً طائلة كنت أنا أحق بها.. لست شيطانًا يجمع عقودًا ببيع الأرواح، أنا رسول تعس لا يصدّقني قومي، يأكلون من مائدة أنزلتها لهم من السماء ثم ينكرونها..

دموع متجمدة في مقلتيه، ينظر لي من خلالها.. نبي لا يؤمن به أحد سوى نفسه.

www.ibtesama.com/vb

ـ ليو.. أنت لم تعد تعمل معي الآن.. يمكنك الرحيل في أي وقت.. تفضّل..

على باب حجرته وجدت هاسلهوف، شامتًا، مستعدًا لحملي وإلقائي في الخارج. سألت هنترز أخيرًا عن مصير ميريويذر إن رحلت أنا، أجابني أن ذلك شأنه الخاص، وهو لن يفعل شيئًا ضد مبادئه.

خرجت من عنده لا أحمل سوى عدّتي لصنع البيرة. بحثت كثيرًا عن مأوى، لكن الجميع يتطيرون من الغريب ذي الوجه المحترق.

بشق الأنفس، وجدت بيتًا ريفيًا باعه لي صاحبه ومعه بقرة بيضاء. وهو المكان الذي أرسلت إليك عنوانه. مكثت فيه أشهرًا أصنع البيرة ليلاً، فلم أكن أقدر على النوم مع كل تلك الوجوه اللائمة المعلقة في هواء خيالي. الجدة ويدونجي، جان تيسو، ميريويذر..

حاولت العودة للسيرك لبيع بضاعتي، لكنهم لا يتعاملون هناك مع عبد بلا سيد، بدون هنترز أو جان تيسو لا أمان لي.

أمضيت أيامًا في سوق حقيرة أبيع بيرتي كبائع جوال أو متربعًا على الرصيف، لا يقترب مني أحد سواء مع تغطيتي لوجهي أو تعريتي له.

كنت أشرب ما أصنعه في نوبات غضبي وحنقي، وأمضي الليالي مابين قيء وهلاوس. هكذا انتهى الأمر بليو كوتنوار وبيرته.

غريبًا، أسير في شوارع فرنسا المنمقة، يتحاشاني الجميع. أقطع تذكرة لمشاهدة السينما.. العالم الأسير في صندوق فضي، هذا العالم لن يكون لي أبدًا.

عدت لأحوم حول منزل هنترز، طلبت مقابلته وعرضت عليه أن يساعدني فرفض. كان شرطه الوحيد موافقة ميريويذر، وأنا الوحيد الذي

www.ibtesama.com/vb

أستطيع التفاهم معه بلهجته. ربما لذلك فقط أبقى هنترز على روحي.

أخبرته أخيرًا أن لهجات ولغات قبائل الهنود تختلف، وأنا لا أتحدث بلغته. كنت كاذبًا بالطبع وقد قرأ هو لغة جسدي في ثوانٍ.

ـ ولِمَ لم تقل ذلك من البداية يا ليو؟ تذكَّر أنني أعرفك أكثر من نفسك. لتنصرف الآن فلدي عمل يجب أن أنتهي منه.

من زيارتي له، تبينت أن حالته المادية في تدهور منذ انتحار مموله الأكبر، حالته النفسية كذلك في انحدار مستمر. يحتاجني وأحتاجه.

العلاقة بيني وبينه هي علاقة رجل يُجيد البيع وآخر يُجيد الشراء. وقد قبلت أخيرًا ببيع أثمن ما يملكه المرء لإدفارد هنترز.

www.ibtesama.com/vb

-١٧-

ذئب

أحيانًا كثيرة كان يأتي صفوت لزيارتي، منفردًا أو مع جمع من البشر بأشياء يحملونها وينظرون لنا من ورائها للحظات. لم يكونوا يشاهدوننا كغيرهم، كانوا رفقاء، يحاولون الحديث كثيرًا مع حرّاسنا وأحيانًا ما ينفعل الطرفان على بعضهما.

كانت نظراته مطمئنة لي، أشعر من خلالها أنني أقوى، وقادر على المقاومة. مرت فترة تحاشى فيها حراسي التعامل معي جراء فعلتي الأخيرة. لكن شيئًا من أخي البشري بدأ يتسرب إلى وعيي ببطء. الطريقة التي يتنفس بها ويذيب بها ذاته مع الكون. هذا ابن حقيقي لنانابوزهو العظيم، جزء من منظومة الكون وإدراكه لوحدته.

في إشراقة أخي الشمس التالية لم يأتِ صفوت، وإن شممت رائحة مميزة للغاية تقترب، رائحة جسدي ممتزجة بدماء أبناء قطيع الينبوع الساخن العظيم.

أخواي هما الوافدان الجديدان إلى سجننا، تلاقت عيوننا في مرورهم من

www.ibtesama.com/vb

أمامي، يرفض كلاهما أن يشاركني الذكريات عما حدث في غيابي.

لم يتحملا الضرب كثيرًا، ففي القطعان نمنع الذئاب الصغيرة من اتخاذ وليفة حتىٰ تكتمل تدريباتهم ويصبحون قادرين علىٰ مغادرة القطيع، لكن ما يقدّمه الآسرون لهما كان أقوىٰ منهما.

كدت أزفر روحي مع عوائي الرافض لوأد تفردنا في رحم أنثىٰ كلب تعسة. جزء من روحيهما غادر جسديهما إلىٰ الأبد بعد ما فعله الحراس بهما وما سمحا هما بأن يفعلاه في نفسيهما.

مع مرور الإشراقات المتتالية، وهن جسدي وذبلت روحي، وأنا أشعر بأخويّ يندمجان في حياتهما الوضيعة الجديدة. يأكلان ويتناسلان، تعجبهما الحياة الآمنة والطعام السهل. كيف لذئاب يلوستون أن تكون كذلك؟ كيف تلوّثت روحاهما إلىٰ تلك الدرجة؟!

تبتعد المسافات بيننا وتتحلل روابط أرواحنا إلىٰ الأبد. مع استسلام من حولي واحدًا تلو الآخر، أجد نفسي الذئب الوحيد الذي مايزال ذئبًا، مايزال حيوانًا، لم يكتسب صفات أبناء البشر بعد، ويفضل الموت علىٰ اكتسابها.

أيقظني في الليل أصوات الحراس يفتحون سجني الانفرادي، أرىٰ الخوف في الأعين خشية الاقتراب مني. يتقدم من عقرت ذراعه واللؤم في عينيه، يربط خطمي بأنشوطة مربوطة بعصا تجعل بيننا مسافة آمنة.

يسحبونني خارج القفص ويوجّه الرجل الموتور مني سلاحًا إلىٰ رأسي ويبتسم في جنون. لم أقاوم، فالموت هو ما أجده مفرًا من المهانة التي تُلاحق بني جنسي.

وقفت في مكاني، مرفوع الرأس والذيل، أُثبّت عينيّ في عينيه الكريهتين. لا يجب أن تنمحي نظرتي من عينيه إلىٰ الأبد. لا يجب أن ينسىٰ أن ابن نانابوزهو أهان أخاه ابن تشيبيابوس وقتله بدم بارد.

www.ibtesama.com/vb

ولإن عاش هذا الرجل من بعدي، فلتتبعه لعنة قتل روحه في جسدي ولتتبع أبناءه اللعنة إلى نهاية هذه الدنيا، كما تبعت ذات اللعنة أبناء ليو كوتنوار، الأخ الخائن لأخيه الذئب.

www.ibtesama.com/vb

- ١٨ -

ليو كوتنوار

الأخ الكريم ليو كوتنوار:

تلقيت خطابيك بمزيج من الفرحة والأسىٰ. أما الفرحة فهي لكونك تذكرني، وتذكر حديثنا. بل والأهم، مايزال بداخلك ما يُذكّرك دومًا بخطأ الدرب الذي اخترت أن تسلكه. والأسىٰ لما حدث لك وهو شيء لا يمكن زواله. لا أتحدث عن عرضك علىٰ هنترز أن يُغيّر وجهك، فيصلح الحروق ويمحو أي أصل هندي تحمله ملامحك.

وصلني مع الخطاب صورتك مع الرسم الذي رسمه هنترز لما ستكون عليه بعد الجراحة. أعذرني يا أخي، فأنا لم أفهم قط ولعك بالتخلص من ملامحك إلىٰ هذا الحد. ما فعله هنترز وصديقه هو سلخك حيًا وكسر عظامك لتصير كائنًا مشوهًا لا ينتمي لنوع أو عرق. لم أفهم كيف ترىٰ أن ما فعلاه هو عين ما أردته أنت. كيف ترىٰ في مرآتك أنك قد تحوّلت أخيرًا إلىٰ أوروبي؟! تقول إن الجراحة ماتزال قيد التطوير وكل هذا الهراء الذي تبرر به

www.ibtesama.com/vb

قبولك لذلك التشوّه.. لا يا صديقي، إن التشوه ليس ما أحدثاه في وجهك، أنما هو جاثوم يقبع فوق روحك ويمنعها من الاستغاثة.

تقول إن الناس قد بدأوا في تقبّلك بعد التغيير الذي حدث في وجهك، ونسيت أن هنترز يلازمك والناس تتعامل معك لأنك صرت عبدًا لأحدهم. أنت قلت ذلك في خطابك السابق، لن يتعامل معك أحد دون أن تكون تابعًا لتيسو أو هنترز.

اعذر حدّة لهجتي يا أخي، فرغم حفظك التام لقصيدة بوب كما تزعم، فإنها لم تجد إلى قلبك سبيلاً.

لا أتوقع أن تكون ملاكًا، لكن ما فعلته بميريويذر فاق كل فهمي لتعقيدات النفس البشرية. أن تستغل جهل الرجل باللغات وتخون ثقته بك، فتخدعه للتوقيع على صك بيع جسده لذلك الشيطان المجنون مقابل أن يعيدك إلى جنته الملعونة، فهذا خارج نطاق فهمي للطبائع البشرية وتقبّلي لتقلباتها.

أخي، لقد قتلت أخاك بدم بارد، وهو بعد لا يعلم. أترى قبولك العجيب لشكلك الجديد هو عقاب تؤنب به نفسك الضعيفة المشوشة؟ أم هي لعنة حلّت بك ولا ندري لها شفاءً؟

إن كنت نادمًا كما تقول يا ليو فخذ ما تبقى من مالك واهرب مع ميريويذر، نفّذ وصيه جان تيسو وعد إلى هنا. لا تخشَ شيئًا، سأكون في انتظاركما، فقد تم تسريحي تسريحًا مشرفًا من الخدمة قبل انتهاء الحرب بثمانية أشهر نتيجة لفقدي كفي اليمنى في الحرب.

لقد جعلني هذا أرى الدنيا بشكل مختلف، جعلني أجد نفسي في أشياء عدّة لم أكن أتصور أن أجد نفسي فيها.

www.ibtesama.com/vb

فلتطلب المغفرة، ولتقتنص ما تبقىٰ من بشريتك وتعد إلىٰ وطنك. حتمًا ستجد المغفرة إن سعيت أنت في اتجاهها.

تذكّر يا أخي ما قاله بوب في قصيدته:

خُلق الإنسان نصفه في سمو، ونصفه في انحدار..

سيد علىٰ شيء، وعبد لكل شيء..

أو كما يقول المعلم كاماراجيفا: تقبّل عملي، ولا تتوقّع أن تكون حياتي مثالية. فاللوتس ينمو في الوحل، فأحب اللوتس ولا تكترث للوحل.

أخوك: صفوت..

العزيز صفوت سيجي:

يحتفلون بالميلاد في الخارج، يزعمون أن للأعياد طعمًا مختلفًا بعد انتهاء الحرب منذ ما يزيد عن شهر[1].

وحيد، أقرأ خطابك للمرة الثامنة وأحاول أن أكتب إليك. هاسلهوف ورايدر يراقبانني وميريويذر رقابة لصيقة. لا يجب أن يموت ميريويذر بعيدًا عنهما فيفقدان جثته، ولا ينبغي لكلانا أن نفترق عن هنترز، فهو يعرضنا في كافة المحافل العلمية مع صديقه الطبيب الفرنسي.

ما عرفته هو أن هنترز قد طُرد من المستشفىٰ منذ سنوات لأعمال لا أخلاقية تخص استغلاله للمرضى طبيًا دون علمهم. لذلك فقد ابتعد عن ممارسة الطب بشكل رسمي، ونما عنده الولع الشيطاني بجمع موافقات البشر علىٰ بيعهم أجسادهم له حتىٰ وإن كانت موافقة تحت ضغط الحيلة والاضطرار.

---

(١) انتهت الحرب العالمية الأولىٰ في نوفمبر ١٩١٨.

www.ibtesama.com/vb

عدت مرة أخرىٰ للعيش في منزله، وإن كنت أمر علىٰ بيتي الريفي من وقت لآخر بمرافقة هاسلهوف كي أجمع خطاباتك.

لا ترسل لي علىٰ عنوان هنترز، فلربما قرأ خطاباتك لي واستشفّ منها ما يؤذيني وميريويذر.

الرجل الضخم ينام تحت قدميّ وأنا أكتب لك، تحوّل إلىٰ طفل كبير، ينام متكورًا ملاصقًا لما يعتبره صديقه الوحيد، أنا!

هو الوحيد الذي لم يُعلّق علىٰ وجهي الجديد، بشكل ما، مايزال يرىٰ ليو القديم، طاهي السفينة. رغم ما تغيّر في داخلي وخارجي، ماتزال فطرته تخترق الحجب وجدران الروح العطنة، مايزال قادرًا علىٰ منحي لحظات من إدراك حقيقتي، تلك الحقيقة العفنة التي لن أقدر علىٰ إخفائها ثانية ولا بكل عمليات الدنيا.

ما فعلته بميريويذر هو ما يمنعني من الاستمتاع بوجهي الجديد، هو ما يمنعني من مخالطة الأوروبيين كواحد منهم. لقد صرت وسيمًا بمقاييسهم. لربما وجدت زوجة لو أحببت، لكن ميريويذر يمنعني من الحياة.

لن أخفي عليك أنني أحيانًا أتمنىٰ موته لأنساه تمامًا وأنسىٰ حمله الثقيل، فلولاه لكنت ناجحًا، مشهورًا.. يا إلهي.. ما الذي أكتبه؟!

أرسلت لك صورتي وأتعجب كيف تراني قبيحًا؟ مازالت الجراحة لم تُشفَ بالكامل، لكنني أرىٰ نظرات الإعجاب في الأعين، والتجمّع حولي أينما ذهبت، هل تظنني كنت أحصل علىٰ كل ذلك حتىٰ ولو بوجه ليو الهندي القديم؟!

مازلت أجد صعوبة في تحريك فكّي وعينيّ بشكل طبيعي، لكن كل ذلك لا يهم في سبيل حلمي وطريقي الذي وُجدت في الدنيا من أجله.

www.ibtesama.com/vb

أخي صفوت، أشعر بالبرد، والخوف.. تائه في محيط لا أعرف شواطئه وأخشىٰ الغرق خشيتي الرسو علىٰ ميناء مجهول موحش. أخشىٰ الرسو وأخشىٰ الغرق..

ساعدني..

www.ibtesama.com/vb

- ١٩ -

برادلي جولدنج

من منا لا يخشى الغرق خشيته للرسو على ميناء مجهول؟

انتهى جايكوب من قراءة خطاب ليو لصفوت. مايزال ذهني غير قادر على تجميع الصورة الكاملة من تلك الحكاية العجيبة، إلا أنها وصلت كاملة بشكل ما إلى نفسي. أحتاج إلى نوم طويل بعده أستطيع أن أقف على أرض صلبة.

ـ أعتقد أن هناك مرضًا نفسيًا لا أذكر اسمه يجعل الإنسان يرى نفسه بشكل مغاير للحقيقة.. فيصف جسده بأوصاف ليست فيه. هل هذا هو ما يعانيه ليو في الخطابات؟ أرى أن صفوت حكم على الصور بشكل جيد، فجراحات التجميل في ذلك الوقت كانت نتائجها غير مرضية تمامًا، أشك أن ما فعله الطبيبان أدى لشكل يتقبله أي شخص في كامل قواه العقلية. لكني مازلت غير مقتنع بتمسك ليو بالحياة في أوروبا والتحجج بوجود ميريويذر لتبرير فشله المضاعف..

www.ibtesama.com/vb

ـ ربما لم يجد ليو في حياته القديمة ما يميّزه عن أي شخص آخر، ظن أن التغيير الخارجي سيُصلح كل ضعفه وتخاذله الداخلي. لقد أبحر الرجل بلا خارطة ففقد الميناء الذي انطلق منه، والمرسى الذي يتوجه إليه.. هو رجل أحرق كل السبل للتراجع وأهال السدود أمام كل سبل التقدم.. رجل حبيس في الحاضر، بين ماضٍ لن يعود ومستقبل لن يأتي.

نظرة جايكوب المتعجبة لي جعلتني أدرك أنني قد تكلمت دون أن أشعر، وأنني استنتجت أشياء ما كنت لأصرّح بها أمام أحد.

لحظات من الصمت مرت، شق آخرها صوت سيارة المأمور. ترجل الرجل السمين ووقف ينظر إلى توتر الأجواء بين معسكرينا. اقترب من جلستنا فخرجنا من السيارة نرد تحية المساء التي ألقاها.

ـ أعتذر بشدة عما بدر من أولادنا تجاهك.. لن أبرر ما فعلوه لكن دعني أحكي لك ما اعترف لي به راميريز، الفتى الذي يعمل في نزل فرونتير لودج.. نعم، هو ذات النزل الذي صادف أن نزلت أنت فيه ليلة أمس. عندما رآك ألبرتو يوم جئت إلى السيد كوتنوار اتصل بصديق له يدعى ألفريد، أنت رأيته بصحبة بيكوورث، يعمل في سوق لاندر للسيارات المستعملة، أخبره في انبهار أن برادلي جولدنج الشهير عندهم في المستعمرة وأنه حاول الحديث معك لكنك أحرجته بنظراتك له. قال لألفريد إنه لم يغضب من معاملتك بتاتًا، قال له إنه يعرف إنه شاب فاشل حقير لا يحق له الحديث مع من هم مثلك..

صمت المأمور كأنه ينتظر ردة فعل ما مني على ما سمعته، غصة ما في حلقي شعرت بها حين استرجعت منظر الفقيد وهو يضع أمامنا عبوات البيرة ويبتسم. سألت المأمور إن كان قد أخبر صديقه هذا عما كان يريده مني، فرد متحاشيًا النظر إلى عيني، فلا تنفضح عبرات متجمدة في مقلتيه:

www.ibtesama.com/vb

ـ كان فقط يريد أن يسألك، كيف وصلت إلى ما وصلت إليه يا سيد جولدنج.. رغم سنه الصغير، فقد كان متابعًا لجميع مقالاتك بالرغم من كونك.. اعذرني، لست نابغًا إلى هذا الحد، لكنك كنت تُمثّل كل ما كان يحلم به الشاب الصغير..

أخذ يُكمل حديثه وهو يسير جيئة وذهابًا أمامنا، لم أردّ على رأيه المتعالي فيما أكتبه الآن، فقد فقدت الكثير من طاقتي اليوم. جلّ ما أريده هو الانتهاء من كل ذلك في أقرب وقت. أخبرني أن ألفريد كان شاهدًا كما أعلم على انتحار ألبرتو. لا مبالاتي لما حدث له أمام عينيّ أوحى له بفكرة إخفاء سيارتي التي تركتها لقمة سائغة لإجباري على قراءة مذكرات الجد كوتنوار، والتي يرى أنها ضرورية لتغيير نظرتي لهم. تحدث ألفريد هاتفيًا مع أصدقائه ممن يسمون أنفسهم بذئاب يلوستون، وهم مجوعة من الشباب تربوا على يد كوتنوار ويعيشون في المستعمرة ويعملون خارجها لكن في داخل حدود وايومنج.

ـ كان المدعو راميريز أخو ألفريد، وهو من أولئك الشباب، وقد جئتَ إليه على طبق من فضة يومها. سمح لك بالمبيت رغم غرابة هيئتك أنت ورفيقك كي لا تُفكّر في العودة إلى دينيفر في حال استحالة إقامتك في لاندر. كان يعلم أن معظم فنادق لاندر سترفض مبيتكما. الشاب الآخر في وردية الصباح لم يكن على علم بأي شيء بخصوصك، لذا طبّق ما يتحتم عليه من تعليمات النُّزُل.

ـ لا أفهم، لم كل تلك التعقيدات؟! ماذا لو لم أذهب إلى نزل فرونتير لودج يومها؟ ماذا لو عدت إلى المستعمرة أو رجعت إلى لاندر؟

ـ ما كان ليحدث شيء لو عدت مبكرًا إلى المستعمرة، يبدو أنهم قد أخفوها في مكان قريب، للأسف أزال المطر آثار العجلات عن الطريق

www.ibtesama.com/vb

فصار تتبّع مسارها مستحيلاً. أما خيار عودتك بسيارة بيكوورث إلى دينيفر فكان خيارًا بعيدًا، حتى إن عدت، فستضطر إلى المجيء للمستعمرة مرة أخرى حين تعرف أن سيارتك اختفت، ما فعلوه هو استغلال للموقف لضغط الوقت.

ـ لِمَ يريدونني أن أقرأ المذكرات بكل هذا الإلحاح؟! يعرفون أنني أهاجم الهنود ويمقتونني لذلك، فلِمَ لا يتركونني وشأني، أو يقتلونني ويتخلصون من قلمي الذي يجلد ظهورهم؟

ـ لا أعرف يا سيد جولدنج.. لقد اعترف الشاب ووجدنا ألفريد وشابين آخرين من ذئاب يلوستون قالا إنهما لم يكونا على علم بخطة ألفريد. تحفظنا عليهم وجاري البحث عن سيارتك..

ـ لو كان السارقون من غير المستعمرة لكان تعذيبهم أسرع وسيلة تستخدمونها لانتزاع مكان السيارة. أما والمجني عليه برادلي جولدنج، فلا يجد المجرمون لديكم إلا التدليل ومعاملة الأطفال!

قطب المأمور جبينه ناظرًا إليّ في اشمئزاز، أطلق سبّة من بين أسنانه وتوجّه إلى منزل كوتنوار بخطوات ثقيلة غاضبة نثرت الوحل على أطراف سرواله.

دفعني جايكوب المنهك إلى السيارة مرة أخرى، ثم أخذ يبحث في الخطابات عن الخطاب الذي يُكمل ما مرّ من أحداث، وهو الخطاب قبل الأخير بالمناسبة في جعبتنا.

لم يعد هناك الكثير في المذكرات أيضًا، هل أجد إجابات إذن في النهاية لكل تلك الأسئلة المعلقة؟!

www.ibtesama.com/vb

- ٢٠ -

ليو كوتنوار

أخي ليو كوتنوار:

اليوم أشعر أنني أكثر هدوءً، وأكثر قابلية لتفهّم ما تمر به. اعذرني يا صديقي، فلو علمتَ ما أمرّ به لعذرتني أنت أيضًا.

حين عدت من الحرب إلى الولايات المتحدة وجدت أحد أساتذتي الأعزاء من وطني بنجابي غارقًا في قضايا بسبب رفض الولايات المتحدة منحه الجنسية الأمريكية. بحسب قانون الجنسية لعام ١٩٠٦، يحق لأي شخص أبيض أو من أصل أفريقي الحصول على الجنسية الأمريكية. وجهة نظر صديقي أن الهنود من بنجابي وشمال الهند يجب أن يُصنّفوا كبيض، لأنهم آريين، والآريون قوقازيون، بناء على ذلك فالهنود لهم الحق في الحصول على الجنسية.

لم تكن المشكلة هنا هي حصوله على جنسية بلد لا تعترف بوجوده، لكنه كان تحديًا منه لإظهار عنصرية تلك الحكومة وكذبها بشأن اللاعنصرية والوحدة.

www.ibtesama.com/vb

لقد منحت المحكمة الجنسية لهنود كُثُر من قبله، لكنها تحدّته ورفضت طلبه عدة مرات بناءً على نظرية تقسيم إثني تقول إن الآريين ليسوا قوقازيين. لن أدخل بك في متاهات تُثقل عقلك، ما أردت قوله هو أن طلب صديقي رُفض لأنه رجل ثوري، قاد العديد من الحركات في الولايات المتحدة لتحرير الهند من سطوة إنجلترا. بالطبع الحكومة الأمريكية هي في الأصل حكومة إستعمارية تتكون من عدد كبير من رجال أوروبيي الأصل، مايزال وفاؤهم الأصلي لأرضهم.

لم أخبرك بتلك الحكاية؟ لا أعلم، لربما استخلصت منها شيئًا ما، ولربما كانتَ مجرد مقدمة لحكايتي الخاصة مع ذئب يلوستون الأسير.

تم افتتاح حديقة للحيوانات البرية في لارامي لعرض الحيوانات التي يصطادونها من منطقة يلوستون، والتي من المفترض أن تكون محمية. زرت تلك المحمية مرة واحدة ولم أستطع أن أُكمل ساعة واحدة هناك. الأنين يتصاعد من أرواح الحيوانات ومن ذبذبات الأرض. تلقيت دعوة لزيارة تلك الحديقة من سيدة تهتم بشؤون الحيوانات البرّية. ذهبت وابنتي في مجموعة من الرافضين لنشاطات ذلك المكان المشبوه. فهم يصطادون الحيوانات الفريدة من يلوستون بطلقات بدائية مغموسة في نبات مخدّر محلّي ويعرضونها في أقفاص نهارًا، ثم يستولدون كلابًا مهجنة من الذئاب والكلاب ويبيعونها للأثرياء. بينما يسلخون فراء ما امتاز شكله من الحيوانات ويبيعونه بأثمان باهظة. تلك تجارة رائجة احترفها رجال من الهنود الحمر والبيض، فالهنود هم الأقدر والأمهر في الصيد. لكنني أذكر فيما قرأت عن عاداتكم أنكم صائدون فقط، ومحرّم عندكم تعذيب الحيوانات أو انتهاك طبائعها. ربما تغيّر ذلك مع ما تغيّر في العالم.

منذ وطئت قدماي الحديقة ولم أستطع أن أبتعد عن ذئب ضعيف الجسد، كاسح الشخصية، يرفع رأسه في شمم دائم. بدا لي أنه يتعرض لتعذيب

www.ibtesama.com/vb

ما مع تكرار زيارتي للمكان في محاولة للتفاوض مع مالكيه للإفراج عن الحيوانات البائسة، دومًا تنتهي مناقشاتنا بتركنا أرقام هواتفنا لهم في حال تغيّرت نواياهم.

بالطبع كنا نتحرك وحدنا، وسط انشغال العالم بالحرب العظمى، لن تجد من يستمع إلى أناس تُناضل من أجل حرية حيوانات برية. صدقني يا أخي العزيز، النضال من أجل الحرية واحد، وهو نضال من أجل الهويّة في الأساس. ولا تُمنح الحرية لمن فقد هويّته أبدًا.

زارني ذلك الذئب في أحلامي كثيرًا، مشاهد متناثرة لا تمت لعقلي الباطن بصلة هي فحوى تلك الرؤى. هذا ما دفعني للقراءة عن قومك وصلتهم بالذئاب، فقد رأيت شابًا هنديًا أعرج في حلمي ورأيت ذئابًا حول منطقة الينبوع الساخن، لكن المكان يختلف عما رأيته في زيارتي ليلوستون.

وحين تُظلم الدنيا من حولي فأنا رجل يتبع قلبه. فكرّرتُ زياراتي للحديقة رغم كره العاملين فيها لي، ورغم يأس مرافقيّ من محبّي الحياة البرّية.

لا أخفي عليك أن اليأس قد تسلّل لقلبي أنا الآخر، فقد عرضت أن أشتري ذلك الذئب وأطلقه في البرية، لكن ما الذي سيحلّه ذلك التصرف من مشكلة باقي الحيوانات واستمرار استغلالهم بذلك الشكل المهين؟ على كل حال فقد رفض القوم بيعه يومها كرهًا لي وليس للطلب ذاته.

فقط بالأمس تلقيت اتصالاً من أحد العاملين في الحديقة وطلب مني الحضور للضرورة، حين وصلت وجدت أن من اتصل بي هو الشاب الذي قد عقره ذلك الذئب من فترة. أدخلني إلى كشك خشبي يبدو كاستراحة له. كان واجمًا خاوي النظرات، أخبرني بصوت مرتجف أنه يريد بيع الذئب لي!

قال لي إنه شرع في قتلة لبيع فرائه ليلة أمس الأول، فهو عديم الفائدة

www.ibtesama.com/vb

لهم، لكن الذئب ثبّت عينيه في عينيه بشكل مريب، وصاح أحد الهنود المرافقين له في ذعر أن ذلك الذئب ملعون وأنزل السلاح الموجّه إلى رأسه. وأضاف الهندي أن اللعنة ربما تطولهم جميعًا لو ظلّ هذا الذئب في حوزتهم.

ما حدث بعدها هو أن مُحدّثي شعر بالفعل بشيء كاللعنة تجري في دمائه، يقول إنه فقد القدرة على رؤية الحياة كما كان، وأن ذلك الحيوان قد مزّق من روحه شيئًا.

لم أساومه كثيرًا، ولم يفعل هو، فقد قبل المبلغ القليل الذي كان بحوزتي وأعطاني الذئب المُطوّق كالكلاب في يدي!

بالطبع أثار ذلك قلقي في البداية من ردّة فعل الذئب، لكنه كان هادئًا، منتفش الصدر، مرفوع الذيل. فككت طوقه ما إن خرجنا من الحديقة وفتحت له الباب الخلفي لسيارتي. تشمم الهواء حوله فظننته سيهرب مني إلى البرية، لكنه عرف أنه يبعد مئات الأميال عن موطنه، فركب السيارة في هدوء!

لم أفكّر كثيرًا، توجّهت إلى حدود المحمية وأطلقته. هو أدرى مني بالمكان المناسب لمعيشته.

أكتب إليك الآن وقد شعرت أنني أديت جزءًا من واجبي في حياتي. لا أعرف دور ما فعلته في الحياة، لكنني أعرف أن من يتبع قلبه لن يضلّ أبدًا.

العزيز صفوت سيجي

يذكّرني كلامك بحكايات الجدة ويدونجي عن الصياد الأعرج وذئاب الينبوع الساخن العظيم! لو أن ما تقوله أنت وما تقوله الجدة حقيقي، فإن ما يحدث لنا هو السحر بعينه!

www.ibtesama.com/vb

كيف تعرفتك أنتَ دون غيرك ممن تطوعوا معنا، وكيف تمّ تسريحك من الجيش في ذلك الوقت تحديدًا الذي تمّ صيد ذلك الذئب فيه، بل كيف أن ذلك الذئب يشاركك ذكريات عن أحد أجدادي أنا بالذات!

أكاد أرىٰ تكوّن حلقة فعلية من حلقات الحياة التي حدثتني عنها، صدفًا لا يُمكن أن تُصدّق! هل لي أن أقول إن لا شيء في هذه الحياة يُدعىٰ صدفة؟! كل شيء مرتب ومخطط بعناية، من أبسط الأشياء إلىٰ أعقدها؟

أعود بذاكرتي إلىٰ طفولتي فأجد ذلك التشابك واضحًا، حتىٰ إنني عاجز عن فصل حياتي عن حياة من سبقوني. أين تبدأ حياتي الخاصة إن لم تكن قد تمّ الترتيب لوجودي هنا بالذات علىٰ الجانب الآخر من العالم منذ مئات الأعوام؟ بل إن وجودنا جميعًا هو رهن إغواء حواء لآدم. تصرّف واحد أدىٰ إلىٰ وجود مليارات البشر إلىٰ يوم الدينونة!

أنتَ علىٰ حق في كل كلمة قلتها يا صديقي، لابد لنا إذن أن ننظر للحياة بشكلها المتكامل وننظر لحياتنا ذاتها علىٰ إنها خيط في نسيج واحد، وقتها سندرك أن أي شيء نفعله يؤثّر في النسيج ككل حتىٰ وإن قلّ.. ساعتها سنحسب حسابًا لكل تصرف نقوم به وكل كلمة نتفوه بها.

واليوم قررت أن أُصلح ما فعلته في صديقي ميريويذر، لن يناله هنترز أبدًا.

سأرسل إليك ذلك الخطاب ثم أعود لأحرّر صديقي الهندي ميريويذر، فلا يبقىٰ للشيطان النرويجي جسد يستحوذ عليه، سأحرّر ميريويذر وأحرّر نفسي مهما كان الثمن!

لا ترسل لي ردًا، سألقاك يا صديقي قريبًا..

وداعًا..

www.ibtesama.com/vb

- ٢١ -
ذئب

أعود، أبحث ولا أجد، أعطش ولا أُروىٰ من صوت أو صورة. أعو فلا مجيب..

أتشمم حدود القطعان القديمة فأجدها مهجورة، تكاثرت الثيران إلىٰ الحد الذي صارت معه تموت من أكلها للأعشاب السامة حول الينابيع والبراكين.

هجرت الفطرة أرضنا الطاهرة، ولوث أبناؤها ماءها وهواءها. وانسلخ نانابوتزهو عن جذره المتين.

ضلّ أبناء تشيبيابوس بضلال إخوتهم البشر، أبدًا لم يكن عالمانا منفصلين. كلاهما مرآة للآخر، يرىٰ كلُ منا الآن ذاته المشوّهة في عيني أخيه.

في الأمسيات، أجلس وحيدًا، أرىٰ قطعان القيوطات والضباع تسود الظلمات. لم يعد هذا زمن الذئاب.

مجبر علىٰ التجوال كذئب منفرد، أشعر بوجود امتداد لي بشكل ما،

www.ibtesama.com/vb

أجوب وديان يلوستون وجبالها، أشهد حرائق الصيف المعتادة وانبثاق بذور الصنوبر من قلب الموت، فيصحو الأمل والقوة في مرة أخرىٰ. مازالت أمنا الأرض تُمسّد فرائي في حنان وتهمس أن دائرة الحياة موصولة ولابد لي أن أجد جذرًا وفرعًا.

نمتُ، ومازلت موصولاً بحبل ذكريات أجدادي، وحبل وجود محرّري، صفوت سيجي. لكن الليلة رأيت رجلاً يظهر أحيانًا بوجه هندي، وأحيانًا بوجه شاحب ملوّن كأبناء الغزاة قاتلي أبناء نانابوتزو في الماضي ومستعبديهم في الحاضر.

أيقظني صوت دقّات قلب أمنا الأرض المتسارعة، قمت فزعًا لأرىٰ الطيور تُغادر أعشاشها، وكل مختبئ في جحر يلوذ بالفرار في متّسع غابة الصنوبر.

هزّة أرضية عنيفة صحبتها تفجّر الينابيع، لتسلخ بحرارتها كلّ من كان منها قريبًا. أعدو مبتعدًا لكنني أبدًا لن أغفل عما رأيته حولي، العديد من الحيوانات الضارية منفردة بلا قطعان.. كل تلك الحيوانات ظنت أنها الوحيدة التي شارف وجود جنسها علىٰ الاختفاء من الدنيا.

لوهلة لاحظ الجميع ما لاحظته، ومع استقرار اهتزاز الأرض تحت أقدامنا تلاقت الأعين واستقرت النفوس. ومن بين عشرات الأعين، ألتقي عيني أنثاي الحبيبة الجريحة.

بلا خوف أو تفكير، أعوي، فتعوي هي، ويتعالىٰ خليط الزئير والخوار والنباح..

أبناء الأرض يستغيثون، تجمعهم هويّة واحدة وإن اختلفت أجسادهم، أيقظتهم الأم بانتفاضة ألمها، فهل يلبّون النداء؟

www.ibtesama.com/vb

- ٢٢ -

برادلي جولدنج

عدنا إلى الطريقة المعتادة للسرد في المذكرات. لاحظت أن الخط المكتوبة به المذكرات واحد لا يتغير، بينما خطابات ليو كوتنوار بخط مختلف تمامًا. لاحظ جايكوب ذلك، أخرج كاميرته والتقط صورًا للخطابات مع المذكرات. فلاش الكاميرا أصابني بالعمى لثوانٍ، حين فتحتُ عينيّ رأيت كوتنوار آتٍ نحونا في الظلام بينما بيكوورث والمأمور يسيران نحو سيارة الأخير ويتهامسان.

ـ "سويعات قليلة وينتصف الليل، ادخل يا سيد برادلي أنت وصديقك إلى المنزل. لن يضايقكما أحد" ثم وقعت عيناه على الخطابات والمذكرة فأردف "أرى أن النهاية قد اقتربت، ربما تود أن تستفسر مني عن شيء، أو تود سماع النهاية مني بدلاً من قراءتها".

ركب بيكوورث مع المأمور وانطلقا، فحثّني جايكوب على العودة إلى منزل كوتنوار. الحقيقة أن مقاومتي انتهت تمامًا، وصرت خرقة يُلقونها حيث شاءوا ويستخدمونها كيفما بدا لهم.

www.ibtesama.com/vb

أمسك العجوز بالمذكرات كطفل طال غيابه عن والده، وقادنا للداخل. أحضر لنا القهوة ثم جلس يقرأ في أوراقه باشتياق ويبتسم. مال على خزانته الصغيرة المظلمة حيث ألقى دولار ساكاجاويا، فبصقت لنا الخزانة تلك المذكرات العجيبة المجنونة. أخرج كيسًا قماشيًا مدّ يده فيه فخرجت بصورة فوتوغرافية قديمة تُمثّل رجلاً مشوّه الوجه تم إجراء عملية ترقيع بدائية لجلده، بينما هناك شيء غير مريح في وضعية فكّه وفمه. يبدو أن تلك هي الصورة التي أرسلها كوتنوار الحرب العالمية الأولى إلى صفوت سيجي.

ـ الجزء التالي من مذكراتي غريب بعض الشيء، جنوني إلى حد كبير، لكن كل تلك المشاعر المختلطة هي بالضبط ما شعر به ليو في ذلك الوقت وقد كتبته بأمانة ودقة. ليو لم يكن من الأشخاص الذين يتحملون مسؤولية أو نتيجة أي شيء، دائمًا ما كان يُلقي ضعفه على عاتق أي شيء آخر، ينتظر أوضاعًا مستحيلة ليُحقّق ذاته من خلالها. ليو نثر محتوى ذاته في أجيال تلته حتى لو لم تُقابله أو تعرف بوجوده. أحيانًا أشعر أن للأمم عقلاً واحدًا وذكرى واحدة كذكريات قطعان الذئاب، تتوارث وتتطور بناء على آخر تجربة مرت بها. أنظر حولي الآن يا بني وأرى أشلاء أرواح أجدادي في أعين الجميع. تلك الأشلاء التي اتخذت هيئة الذئب الأسود الجشع. تصوّرت أنني إن حكيت قصتي تلك للأولاد من حولي لربما أطعمت شيئًا للذئب الأبيض داخلهم، ولربما أصبح قادرًا على الصراع، والفوز.

لم أُعلّق، ولن أفعل.. متعب وكأنني عشت كل تلك الحيوات التي وصفها كوتنوار. متعب وكأنني أنتزع شظايا حكايته من حياتي، فأغرق في الألم والدماء.

استغل جايكوب الضوء والوضع المريح، وأخذ يرسم بسرعة، وجوه ووجوه، شظايا من عيون وأنوف وأفواه. يرسم وقد انعكست في عينيه الروح المجنونة لهنترز، والتي ترى الكون مجسدًا في هيئاتنا البشرية.

www.ibtesama.com/vb

تركت القيادة لكوتنوار، وغصت بظهري في الأريكة، أُغمض عينيّ وأرتشف القهوة المنزلية. احكِ يا سيد كوتنوار وأنهِ مأساتي سريعًا.

www.ibtesama.com/vb

- ٢٣ -

ليو كوتنوار

"هنالك، حيث تُصنع الكلمات، حيث بضعة قلوب تتوجّع يأسًا..

هنالك حيث يبدأ الغرب..

حيث الكثير من الغناء، والقليل من التنهّدات..

حيث العطاء أكثر، والشراء أقل..

حيث يمكن للرجل أن يجد صديقًا دون حتى أن يحاول..

هنالك، حيث يبدأ الغرب.."

يصدح صوت إيستللو فيليو في المطعم القديم بمدينة نيويوك الصاخبة، يتذوّق صاحب المطعم كأسًا من بيرتي فيُغمض عينيه في امتعاض ويضع الكأس جانبًا، ماسحًا شفتيه بكمّه.

ـ لا نريد منها.. لدينا بيرة جذور معلبة مضمونة المصدر..

يتركني منكس الرأس، يائسًا، تُغطي ظلال قبعتي وجهي الجديد. لابد

www.ibtesama.com/vb

وأنه يكره التعامل معي لأنني أوروبي.. لابد أن ملامحي تفضحني..

عدت إلى النزل الحقير، يرمق صاحبه وجهي في ذعر. أعرف أنني قد تأخرت في دفع إيجار غرفتي، لكن كل ما تبقى معي من مال جان تيسو بعد شراء المنزل الريفي في فرنسا وتذكرة العودة إلى الولايات على ظهر السفينة؛ اشتريت به ما صنعت منه آخر كمية من بيرة الجذور، والتي رفضتها كل الأماكن التي حاولت بيعها فيها ولفظتني.

جلست أمسح عرقي في مواجهة النافذة القبلية التي تُطلّ على زقاق خلفي، وأراجع أخطائي.. ما الذي يختلف في تلك البيرة عن تلك التي أحبها جان تيسو وهنترز؟

ما الذي اختلف؟!

لم تكن معي ملابس أخرى سوى تلك التي أرتديها، الملابس التي هربت بها من بيت هنترز تمزقت وتلاشت في رحلتي البحرية في الدرجة الثالثة. ما أحمله في حقيبتي هو أثمن ما أمتلكه، أدوات صناعة البيرة، الوريقة التي تركها لي جان، والعقد الذي خدعت به ميريويذر ليبيع جسده لهنترز.

في آخر يوم لي في منزل الطبيب المخبول، راحت كلمات صفوت تتردّد في عقلي، يجب أن أفعل شيئًا لتحرير ميريويذر وتحرير نفسي، تحرير نفسي من قيده ومن قيد هنترز.

تسللت إلى مكتبه مشعلاً شمعة، حتى لا توقظه أضواء المصابيح. سرقت الورقة التي وقعها ميريويذر، ثم تجمدت يدي مكانها حين أدركت أن غياب ورقة كتلك لن تمنع هنترز من الوصول لجسد صديقي.

دسستها في ثيابي على أية حال، وفي طريقي للخروج وجدت هاسلهوف يسدّ عليّ الطريق ويبتسم. أضاء الأنوار فصحا هنترز من غفوته على الحشية، حيث مالت نظارته على وجهه، لم يستطع تخيّل أنني أسرقه،

www.ibtesama.com/vb

دسست الموافقة في جيبي ووقفت كتمثال باهت من شمع.

ـ ماذا تفعل يا ليو؟ تسرق موافقة صديقك؟ دعني أفهم شيئًا لعينًا واحدًا فيما تفعله، هل تظن أن ديدان الأرض أولىٰ به من العلم وتقدّمه؟ ما الخطأ الذي فعلته انا لك وله؟ هل تظنني الرجل الأبيض الغازي الذي أباد قومك؟ لا، إدفارد هنترز ليس كذلك، وأنت تعلم في داخلك أنني لست كذلك. وتعلم أنك المخادع الوحيد هنا، لقد بعت لي جسد صديقك دون علمه.. ذلك ما يبرع فيه قومك منذ مئات السنين، إلقاء اللوم علىٰ الرجل الأبيض..

أزاح هنترز هاسلهوف من علىٰ الباب، وأشار لي بيده الناحلة أن أعود إلىٰ حجرتي في هدوء، فأنا ملكه وأدين له بما لا أملك قيمته. كيف يترك تحفته الفنية تهرب من بين يديه؟

علىٰ السلم رأىٰ هنترز ميريزيذر، فابتسم بسمته المختلّة وهمس:

ـ لا تقل لي إنه سيكون في أمان معك، أتريد بيعه مرة أخرىٰ؟!

خرج ميريويذر من مكمنه حيث طلبت منه أن ينتظرني لنرحل في الليل، بالطبع لم يفهم سوىٰ أن خطتي لسرقة موافقته قد انكشفت.

مازلت ممسكًا بالشمعة رغم حرقها لجلدي بقطراتها، أراقب هنترز في قميصه الطويل يسير بتؤدة نحو ميريويذر ويمسك بكتفه، يحدّق في عينيه بصدق غريب، هذا الرجل ممثل بارع حقًا.

ـ هذا، ليس صديق.. ليس صديق.. هذا خائن..

كلمتان إنجليزيتان فهمهما ميريويذر رغم عدم إجادته لأي لغة سوىٰ لغة قومه. رمقني ميريويذر بعدم فهم فعادت الشمعة تحرقني كنظراته المتشكّكة.

www.ibtesama.com/vb

وقف هاسلهوف بيني وبين صديقي الهندي، فلم أجد سوىٰ الجنون مخرجًا. دلفت في سرعة إلىٰ حجرة هنترز وأحضرت زجاجة كحول ضخمة وأفرغت محتواها فوق ميريويذر وألقيت فوقه بالشمعة فاشتعل فورًا.

لم يدرك أحد ما أفعله، انشغلوا في إطفاء الرجل، ففررت أنا بحقيبتي في غفلة منهم.

ماتزال صرخات قطعة الفحم المعذّبة في جوف جدزميراكل تدوي في أذنيّ، لكنّ هنترز لن يجد جسدًا يستولي عليه.

أكتب إلىٰ صديقي صفوت، ومازلت أُفكّر، ما الذي يعوق بيع بيرتي؟ هه؟! لقد فعلت كل ما يجب عليّ أن أفعله.

لم أحكِ لصفوت ما فعلته بميريويذر، فأحيانًا ينتابني الشك فيما فعلته، هل حقًا غادرت الولايات المتحدة إلىٰ فرنسا من الأساس؟ وهل حقًا عدت؟ هل حقًا تركت هنترز أم إن الجالس في ركن الحجرة في الظلال بقميص طويل هو هنترز ذاته؟!

مزقت الخطاب، وأرسلت له برقية تُخبره بمكاني في مدينة نيويورك، ثم حبست نفسي في غرفتي حتىٰ توصلت إلىٰ سرّ عدم رواج بيرتي. في ذات اليوم أخبرني صاحب النزل أن هناك رجلاً هنديًا يرغب في مقابلتي في اللوبي.

رأيته في ثيابه البيضاء وعمامته، كملاك نحيل طيب يطالبني بنظراته بوأد خطاياي والارتماء في جنّة ربّه. رغم تحفظي علىٰ عناق الرجال، لكنني وجدت نفسي مندسًا في كتفه، أبكي وأتنشق رائحته الشرقية العذبة.

تجمّعت النظرات الفضولية حولنا، فدفعني عنه برفق، نظر إلىٰ حال ملابسي وابتسم آسيًا. طلب مني أن أُحضر حاجياتي، وحين نزلت، وجدته قد سوّىٰ حسابي.

www.ibtesama.com/vb

كان صفوت منسجمًا مع حرارة الجو، بثيابه الهندية التقليدية ولحيته الطويلة. حمل عني حقيبتي ومشينا حتى انتصف الليل، ثم جلسنا في متنزة عام نرمق السماء كما فعلنا ليلة السفر.

ـ صفوت، أريد أن أعود إلى وايومنج.. لكنني لا أريد العودة إلى شايان، لن يعرفونني بهذه الهيئة..

ـ أتخاف ألا يتعرفونك أم تخشى مواجهة تعليقاتهم عما حدث لك؟

ـ أنا لا أخشى شيئًا.. فقط أريد أن أعود منتصرًا، وجدت السبب الذي لا تُباع من أجله بيرتي.

ـ تراك اقتنعت أخيرًا بأن البداية يجب ان تكون هنا، في وطنك؟

ـ شيء كهذا، قل لي، ماذا تفعل في حياتك الآن؟

ـ لقد عدت إلى هيئتي الحقيقية، أشعر بالراحة في ذلك الزي.. تركت العمل في الطاحونة، ورحت أزرع أرضي الصغيرة حول منزلي في لارامي كما كنت أفعل قبل تطوعي في الحرب، وتبيع زوجتي منتجاتي في السوق. أكتب أيضًا كتابًا عن معتقدات السيخ وأديان الهند، فقد وجدت أن تلك المعتقدات تروق للكثيرين في الولايات وتُثير فضولهم.. أريد أن انشر فلسفة أجدادي، وحين يعرفون من هم الهنود، ستكون قضية مثل قضية جنسية صديقي الهندي الذي حدّثتك عنه محل تفهّم من الرأي العام. نحن بالنسبة لهم قوم بدائيون، يعبدون آلهة كثيرة ويضعون التوابل على كل شيء حتى الماء. لا يستحق الحرية من فقد هويّته كما قلتُ لك، وأنا لن أفقدها هنا.. وسأعود حتمًا إلى الهند بعد انتهاء دراستي هنا.

سألني عن ميريويذر، فقلت له إنه قد مات متأثرًا بالعمليات الجراحية التي أُجريت له. لم أجد الشجاعة للاعتراف له بما حدث فعلاً. طال الحديث

www.ibtesama.com/vb

بيننا عن كل شيء حتى الصباح، ثم عدنا سويًا إلى وايومنج مع سلفة مالية منه لبدء مشروعي. رفضت الإقامة في منزله، فهيّأ لي مسكنًا خشبيًا بسيطًا على أطراف أرضه المزروعة، فيعطيني بعض الخصوصية دون أن أبتعد كثيرًا عن دفء صحبته.

كنت أفكّر في طريقة أُنفّذ بها خطتي لتحسين مذاق بيرتي كما فعلت في فرنسا، لكنني لم أُحدّد بعد من أين أبدأ. حتى طلب مني صفوت في الأسبوع التالي لإقامتي عنده أن يريني الحديقة التي قابل فيها الذئب، فوافقت على مضض.

ربما كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها ذئابًا بهذا القرب. أحيانًا ما أسمع عواءها قريبًا من خيمة الجدة ويدونجي، لكنها المرة الأولى التي أراها فيها.

سأل صفوت عن ريمون، الشاب الذي باعه الذئب كي يطمئن على حاله، فأخبره الهندي صديقه أنه ترك العمل في الحديقة ويعمل حاليًا في مستشفى لارامي الجامعي.

أعرف أن صفوت يريد أن يريني الرجل لسبب فلسفي ملتوٍ من أسبابه التي لا تنتهي، تلك الأسباب التي تُماثل طريقة الجدة ويدونجي في ربط البشر بالذئاب على نحو أسطوري لا أفهمه.

عرجنا على مستشفى لارامي في طريق عودتنا، وسأل صفوت عن الشاب فقيل له إنه يعمل في المشرحة. وقع الخبر موقعًا حسنًا في قلبي بشكل كبير، فصرت متلهفًا للقاء الرجل فجأة.

كان شابًا أحمر الشعر يُغطّي النمش وجهه المربع السمين. نظرة حمراء غير مستقرة في عينيه لم تختفِ تمامًا حين رأى صفوت، بل زادت عليها نظرة ذعر غير مبررة.

www.ibtesama.com/vb

مدّ صفوت يده مصافحًا فسأله الشاب في لهفة:

ـ هل الذئب معك؟ بالخارج؟!

ـ بالطبع لا! هو ليس كلبًا أليفًا كي أحتفظ به. لقد أعدته إلى حيث ينتمي منذ أكثر من عام.

ـ ولم يعد لك مرة أخرى؟!

أجابه صفوت مبتسمًا بالنفي، فتنفّس الشاب الصعداء واستقرّت عيناه بعض الشيء. عرّفني صفوت عليه فهزّ رأسه كمن لا يعي شيئًا مما يقال حوله.

في طريقنا إلى المنزل سألني صفوت عن رأيي في مسأله اللعنة التي يزعمون أنها أصابت ريمون من نظرة الذئب، فلم أجد إجابة شافية سوى مزاعم الجدة ويدونجي حول الذئاب التي تحيا داخل كل واحد فينا. ما قالته الجدة هو كلام رمزي لن ينطبق على الواقع بأي شكل.

ـ أحيانًا ما تكون الفلسفة هي خطاب لشخص غائب عن الوعي، وهذا ما نفعله كي يستردّ وعيه.

لا يهمّني كل ذلك الآن، كل ما أفكر فيه هو أنني سأعود وأزور ريمون هذا في أقرب وقت ممكن..

www.ibtesama.com/vb

- ٢٤ -

ذئب

كانت هجماتنا على أي بشري على أرض المحمية شرسة للغاية. أبت خيولهم حملهم لمواجهتنا، انقلبت حياتهم جحيمًا لا يفهمون من أين انفتحت بواباته عليهم.

أعلم أن ما نفعله سيعطيهم مبررًا أكبر لقتلنا، لكن متى كانت تعوزهم المبررات؟!

في غياب أخينا الشمس، نتّخذ من الجبال مخابئًا.. ولأول مرة لا تُهاجم الذئاب الدببة، ولا تفترس أُسود الجبال القيوطات. الجميع في مركب واحد، والغذاء كثير، فلا يوجد سبب فعلي كي نقضي على بعضنا البعض.

أصبح الثار الآن هو ما يُحرّكنا ويُحرّك أبناء نانابوزهو.. حتى جاء يومًا صائد دببة مع عشرات من الكلاب المهجّنة، يبحث عن طرائد حول تجمّعنا في الجبال.

www.ibtesama.com/vb

نزلت مع قطيعي الجديد من الذئاب المتفرّدة الأخرىٰ، والتي خضعت لي بعد استحقاقي للزعامة، وقررنا إخافة الصياد الجديد لإبعاده عن حوزنا.

كلما اقتربت من موضعه، كلما شعرت بطعنات في قلبي لا أدري مصدرها، أهي الرائحة التي تُذكّرني بأخويّ؟! أتراهم أطلقوا سراحهما في مكان ما هنا؟

أطلقت عواءً فلم أتلقَ ردًا سوىٰ من نباح الكلاب الممطوط. الرائحة مازالت في تزايد جعلني أزيد من سرعتي فأسبق باقي أفراد قطيعي.

من بين الأشجار تبدت لي الكلاب الذئبية، كبيرة الحجم، شرسة، قوية. تلتقي الأعين فتنساب ذكريات متواصلة بيننا تعضدها الرائحة المشتركة البعيدة.

ما أراه هو أبناء أخواي من الكلاب المهجّنة! يحثّهم الصياد علىٰ مهاجمتنا، فيتجمّدون، وأتجمّد في مكاني.

يطلب أفراد قطيعي الإذن في المهجامة فلا أستطيع ردًا. يدركون التشابه بين رائحتهم التي دمغتهم بها، وبين رائحة الكلاب.

هكهذا، نُجبر علىٰ مهاجمة أولادنا ويُجبرون هم علىٰ العقوق. الكلاب تُطيع سيّدها وتُفضّله أحيانًا علىٰ أبناء جنسها، هذا هو الفرق والفراق بيننا وبينهم..

www.ibtesama.com/vb

- ٢٥ -

ليو كوتنوار

جاءني ريمون في الليل بنفس نظراته الخاوية. ألقىٰ أمامي بطلبي في كيس كبير نافذ الرائحة، فنقدته ما اتفقنا عليه. طلبت منه أن يجلس ليشرب شيئًا فجلس..

ـ هل تعمل عند ذلك الهندي؟

ـ لا.. هو فقط صديقي وأعيش بالقرب منه.

ـ وماذا حدث لوجهك؟!

ـ حريق، ثم عملية تجميل.. لِمَ تركت العمل في الحديقة يا ريمون؟

رشف ما كان عندي من البيرة ولم يُعلّق علىٰ مذاقها، فقد قال لي إنه خشي أن يعود الذئب إلىٰ الحديقة لينتقم منه. سألني عن جنسيتي فأخبرته أنني فرنسي.

ـ لا أعرف، لا تبدو فرنسيًا.. عيناك تُشبه عيني زميل من الشوشوني كان يعمل معي في الحديقة.. قل لي، فيم تحتاج بقايا الجثث تلك؟

www.ibtesama.com/vb

ـ أنا طبيب، وأحتاجها للدراسة..

لم يبدُ مقتنعًا، لكنّ المال أسكته. انصرف على وعد مني بمهاتفته حين أحتاج قطعًا بشرية أخرى.

في الظلام أفتح الحقيبة فأجد أشلاءً سبق تشريحها من طلبة الطب، تفوح منها رائحة كيميائية خانقة بالإضافة إلى رائحة تحلّل بسيطة.

أفرغت معدتي ثم تربّعت أشرب المزيد من البيرة وأنظر إلى هنترز المتربّع أمامي بقميصه الملطخ بسواد أقلام الفحم.

شاكرًا، تركته يحفر قطعة الأرض التي خصصها لي صفوت كي أزرع فيها ما أحتاجه لإنتاج بيرتي. بالطبع لم أخبره بالسرّ، فجثث الغرقى التي تمّ دفنها في حديقة هنترز هي ما أنتجت النكهة الشهية للبيرة التي أعجبت هنترز وجان تيسو!

انتهى هنترز من دفن البقايا وقبع في ركن البيت يبتسم لي. على الأقل لم أُلوّث يدي بذلك الفعل، لكنني مضطر، فبدون تلك الجثث لن تُباع بيرتي ولن أُثبت ذاتي أبدًا.

مرت شهور قليلة، حتى صنعت أول دفعة من بيرتي الشهية المتقنة، بعتها لأصدقاء صفوت في تلك المجموعة التي تُدافع عن حقوق الحيوان. أما الدفعة الثانية فدفع لي صفوت ثمنها وأهداها لصديقه الهندي صاحب قضية الجنسية. لم أشأ أن أظهر بوجهي الجديد فيهرب الهنود من شرائها مني على اعتباري أوروبيًا، فكان صفوت واجهة جيدة لي.

بدأت بيرتي في الرواج في لارامي حتى أصبحوا يطلبونها في الحانات بالاسم. وأصبح توافد ريمون على كوخي منتظمًا بشكل أكبر.

و مع أوائل عام ١٩٢٠، انهار كل شيء فجأة، فقد تم منع بيع وتجارة

www.ibtesama.com/vb

وشرب الكحول في كل أنحاء الولايات، وانصاع صفوت للقوانين فرفض مساعدتي في تهريب بيرتي الكحولية. أما البيرة غير الكحولية فكان الطلب عليها ضعيفًا من الأساس.

حتىٰ التجارة في السرّ بين المعارف قلّت بشكل كبير، فمع موجة شديدة من الكساد وتسريح العمّال من المصانع، أصبح المال أغلىٰ عند مالكيه من إنفاقه علىٰ الشراب.

في ذلك الوقت تحديدًا، ظهر لي ميريويذر المتفحّم يُذكّرني بأن لعنته عليّ هي السبب في تدهور حالي وخسارتي كل ما أملك.

ومابين هنترز وميريويذر، طالت فترات عزلتي في كوخي، وفشلت محاولات صفوت في إخراجي مما أنا فيه. أنا إنسان ملعون بكل لغات الأرض.

زارني ريمون في أواخر العام، وأخبرني أنه يمكنني بيع بيرتي لمهربي الخمور في شمال شرق وايومنج وأنه سيتوسط لبيع بيرتي لديه مقابل نسبة في البيع.

كان من الصعب أن أصنع بيرتي مع رفض صفوت لمخالفة القانون، كما أنني لن أرضى بأذية صديقي الذي فتح لي منزله إن انكشف أمر وجود معمل بيرة علىٰ أرضه.

كان وداع صفوت مؤلمًا، خاصة مع شعوره بأن حالتي العقلية غير مستقرة، وسفري مع رجل في ذات حالتي العقلية. لكنه طلب مني أن أتصل به فور استقراري هناك، وأنه سيأتي لزيارتي كلما سنحت له الفرصة.

سافرنا ليلاً، أنا وريمون.. بينما هنترز عن يساري، يسخر من بيرتي المستنبتة من أجساد البشر، وميرويذر عن يميني، يصبّ عليّ لعناته الأبدية، يهمس في أذني بلهجة الناز بيرسي أنني كنت عبدًا لدىٰ جان تيسو وهنترز،

www.ibtesama.com/vb

ثم عبدًا عند صفوت، وأخيرًا عند المختّل ريمون.. يُخبرني أنني ضعيف، ولن يمكنني الاعتماد على نفسي الحقيرة أبدًا.

استقررنا أنا وريمون في أرض قديمة كانت مستقرًا لقبائل الغراب قديمًا. ابتعنا أدوات تقطير الخمور والمواقد. فمكثت أنا أصنع بيرتي سرًا، واستمرّ ريمون في العمل في مشرحة لارامي كما هو.

ولاضطراري لقبول إقامة ريمون عندي، اعترفت له بسرّ صنعتي الصغير في ليلة باردة عاصفة، منعت كلانا من مغادرة تدثرنا بأغطيتنا الصوفية..

ـ أنت إذن كنت تحتاج بقايا بشرية لدفنها تحت مزروعاتك؟! هل فكّرت في استخدام بقايا حيوانية؟

ـ جربت ذلك في مزرعة صفوت فلم تُنتج المذاق الذي يُميّز البيرة التي كنت أصنعها في أوروبا..

لوى طرفي شفتيه في استخفاف بما أقول، لكنه أدار مقود الحديث في اتجاه آخر وهو يقطب حاجبيه ويُنصت لأصوات العاصفة بالخارج..

ـ أهذا صوت عواء ذئاب؟

ـ لا أظن.. ريمون، هل أطلب منك خدمة؟! فأنت تعلم أن شكلي الأوروبي ربما يتسبّب لي في حرج.. أريدك أن تذهب إلى شايان وتسأل عن إيفيتا كوتنوار في العنوان الذي سأعطيه لك.

ـ زوجتك أم أختك؟ على أية حال سأفعل ما تريد، لكن دعني أخبرك أنك تشبه السكّان الأصليين إلى حد كبير، فلا تخف أن يظن أحدهم أنك أوروبي.. ثم إنه لا أحد يخشى التعامل مع الأوروبيين الآن، على العكس تمامًا...

www.ibtesama.com/vb

تلاقت عينانا في الظلام، فانتفض مبتعدًا عني، محدقًا في عينيّ في ذعر..

ـ عيناك.. عيناك تشبهان عيني الذئب الذي لعنني..

قام دون أن يُبعد عيناه عني، وتكوّر جوار المدفأة، في ذات الصف الذي يتربع فيه هنترز بقميصه وسرواله القصير، وميريويذر بملابس البحرية المحترقة.

هكذا كانت معظم لياليَّ مع ريمون، شرب وضحك، ثم ذعر وتحاشي التقاء الأعين بالأعين. علمت أن زوجتي وابني والجدة ويدونجي قد ارتحلوا إلى مستعمرة ويندريفر. لم يُخبرنا الحلاق الذي سأله ريمون عن عنوانهم بالضبط لأنه لا يعرفه.

أتخيل كره الجدة ويدونجي للعيش في شايان، وأتخيل تمسّك زوجتي وابني بالعيش في مدينة لها شوارع وبها حوانيت وأسواق. مستعمرة ويندريفر هي مزيج فريد بين الاثنين، سيتيح للجدة الشمطاء أن تكون على اتصال بالغابات والبراري كما اعتادت أن تعيش أيام شبابها مع قبائل الغراب، في قلب يلوستون البري.

كنت قد تلقيت زيارة واحدة من صفوت في أوائل عام ١٩٢٢، نثر حولي فيها نظرات الأسى، وخوفه من أن يتم القبض عليّ. عرض عليّ مرة أخرى أن أعود للعيش معه وأعمل معه في مزرعته التي توسّع فيها، بل وعرض عليّ أن أعود إلى الدراسة.

كان عرضه كريمًا، لكنني رفضت. فرغم استحواذ ريمون على معظم الأرباح، إلا أن توسّعي في إنتاج كحوليات أفضل وأغلى ثمنًا جعل الأموال التي أحصل عليها أكثر من الأموال التي يعرضها عليّ صفوت مقابل أن أعمل مزراعًا غارقًا في الطين والعرق.

www.ibtesama.com/vb

ترك لي صفوت كتابه الذي صدر حديثًا باسم (روح الهند)، وكتب لي إهداءً رقيقًا وانصرف.

في بدايات ١٩٢٣، أذكر اليوم جيدًا، رغم عدد ساعات إفاقتي من السكر الشحيحة. كنت في القبو أتذوّق باستمتاع تركيبات جديدة معتّقة، فسمعت صوت سيارة يقترب. نظرت من النافذة الضيقة المرتفعة لأجد شاحنة صفوت في سحابة من الغبار.

خرجت له مرحبًا، فلم يمدّ يده لي، أخرج من سرواله الأبيض مظروفًا مفتوحًا، يحمل عنوانًا فرنسيًا أعرفه جيدًا.

ـ اعذرني يا سيد كوتنوار، فقد تلقيت ذلك الخطاب في عنواني، مع إخطار باستلام جثة آتية من فرنسا تخصني. فتحت الخطاب لأجد تلك الصور فيه، استلمت الجثة من الميناء ووجدت أنها تخصّك أنت..

فتحت الخطاب لأجد صورتين فوتوغرافيتين لميريويذر، الأولى وهو محترق الوجه لكنه حي، والثانية وهو ممدد على طاولة التشريح، مخاط بخيط أسود يجمع شقي جسده المنتهك.

مع الصور خطاب وموافقة ممهورة ببصمة ميريويذر.

ـ الهندي ليو كوتنوار، هذه هدية أخيرة من السيد إدڤارد هنترز..

المرسل: ميكاييل هاسلهوف

www.ibtesama.com/vb

- ٢٦ -

ذئب

الكلاب دومًا ما يكون ولاؤها لسيّدها. كم سقط منا تحت براثن مخالبها وفكوكها القوية التي ورثتها عنا؟

نموت في كل إشراقة شمس بأيدي أبناء من دمنا، فقد اكتشف الصيادون أخيرًا كيفية استغلال أبناء الجنس الواحد ضد بعضهم البعض، وولى زمن القتل بالأسلحة والفخاخ.

لم يتبقَ من ذئاب يلوستون سواي وجروين من نسلي، بعد أن قُتل كل قطيعي. أعوي وحيدًا، لا يردّ عوائي سوى النباح الكلبي الخائن[1].

منعت جرويّ من النزول من الجبال، فيجب أن يتناسلا، يجب أن يستمرّ نسل أبناء تشيبيابوس بأي ثمن.

---

(١) لم يوثّق صيد أي ذئب في منطقة يلوستون من عام ١٩٢٣ حتى ١٩٢٦، حين قتل حراس الحديقة آخر جروين للذئاب بها. لذلك يغلب الظن أن ما تبقى من الذئاب كان قليلاً جدًا في تلك الفترة وكان متخفٍ في الجبال.

www.ibtesama.com/vb

غادر النوم عينيّ للأبد، فكنت أحلم مفتوح العينين، أحمل مذلّة أن يختبئ ذئب خشية الموت.

في الصباح الباكر أُحاول الصيد متخفيًا، مذعورًا، لا أحمل للحياة أهمية سوىٰ حماية جرويّ الصغيرين حتىٰ يشتد عودهما.

أخاف نسلاً ضعيفًا، وأخاف كذلك أن يُقتلا في تدريبهما علىٰ الصيد. ممزق أنا بين هذا وذاك، حتىٰ رأيتها. هندية عجوز، تحمل رائحة من ذكريات أجدادي. تنام تحت شجرة وتحلم، تئن، ثم تصحو مذعورة تدور عيناها في المكان حتىٰ تراني وكأنها تبحث عني.

هندية ممزقة الروح، تحمل لعنة ذئب قديم من أجدادي، امرأة محرومة من دخول مملكة الذئب تشيبيابوس، محرومة من الموت.

زحفت مقتربة مني رغم تكشيري عن أنيابي وزمجرتي، هي لا تخشىٰ الموت، بل تتمناه علىٰ يدي أنا بالذات. أتراجع وتقترب، تمد يدها المرتعشة وتمس فرائي. تنظر تجاهي ولا تُثبّت عينيها في عينيّ أبدًا. بيدها الأخرىٰ تتلمس آثار مخالبي علىٰ الأرض، تهمس فأفهمها علىٰ الفور..

ـ لا تنسَ إنني هندية، أجيد اقتفاء الأثر..

اسمها ويدونجي، تحمل في جسدها رغم طول الزمن رائحة الصياد الأعرج من أحلامي، تحمل في جسدها لعنة وعارًا، ندمًا وتوبة تفيض من عينيها فتتقبّلها الأم الكبرىٰ، يلوستون.

أصوات الكلاب تقترب، مايزال الصيادون نشطون..

أعدو في الاتجاه المعاكس للصوت ثم أتوقف ملقيًا نظرة علىٰ المرأة. كانت مذعورة، مفكوكة الجدائل، تحاول أن تقف علىٰ قدميها الضعيفتين.

أتردد في الهرب، يمكنني الدفاع عنها أو تشتيت الكلاب ريثما تهرب،

www.ibtesama.com/vb

فهي قبل كل شيء قد قُبلت من أمنا الأرض. لكن إن هاجمتني الكلاب فمن لأولادي من بعدي؟

باسلة، وقفت تُطيح الرياح بشعرها الأبيض، تواجه ستة كلاب من خلفهم أربعة رجال من البيض على خيل وهندي شاب مترجلاً.

يشير لها الهندي أن تبتعد عن الطريق، إلا أنها تنظر خلفها في هدوء تجاهي وتزيد من تشبّثها في الأرض. يقترب منها رجل أبيض فيزيحها بطرف سلاحه. تسقط أرضًا لا تبعد عني الكثير. تصهل الخيل وترفض أن تحمل الرجال ليقتربوا مني، فيفلت الهندي رباط الكلاب الهائجة نحوي.

تتدحرج الهندية وتُلقي بجسدها الواهن فوقي، تحجب عني هجوم الكلاب التي طوّقتني ومنعتني من الهرب. أرى الشاب الهندي مذعورًا، يحاول الاقتراب لإنقاذ ابنة جنسه، لكن الأبيض على الحصان يمنعه من الاقتراب ويأمر كلابه بالابتعاد.

يُصوّب سلاحه ورفقاؤه نحونا ويأمر الهندية أن تبتعد، لكنها تزيد تشبّثها بي واحتواء جسدها لجسدي الواهن ممزق الظهر.

ببرود، يطلق نيرانه نحونا، تخترق جسدها قبل أن تُدفن في مثواها الأخير في رأسي.

يختفي الملاعين من أمامي، فلا أرى سواها، شابة جميلة، تتصاعد النباتات من أمنا الارض وتحتضننا في رفق، تغوص بنا وسط الأزهار والمياه المنعشة. يحيط بناء أبناء نانابوزهو الذين ماتوا في سبيل الحرية.

الزعيم ساجاويتش وابنه تيمبيمبو، ماري آن وتشارلي كرو، الزعيم المندفع ورأس القندس.. بشر على مدى البصر من كل لون وجنس، يضمّون ويدونجي إلى صحبتهم أخيرًا.

www.ibtesama.com/vb

وللمرة الأولى أرى الذئب تشيبيابوس، فراؤه لا يثبت على لون، بل يموج بكل أضواء العالم وألوانه. خلفه أجدادي العظام، في قطيع واحد أبدي، أنضم إليه فيدمغونني برائحة أمنا الأرض.

لم أعد أشكو الخوف أو الوحدة، ولم يعد لعوائي سببًا سوى سعادتي لعودتي لأمي وإخوتي الذئاب، والبشر.

www.ibtesama.com/vb

- ٢٧ -

ليو كوتنوار

أستعيد كلمات صفوت في آخر مرة رأيته فيها في حياتي، قال لي "هذا الرجل الميت، كان آخر ذئب تبقىٰ في حياتك، وقد قتلته". ثم اختفىٰ بزيه الأبيض البهي في غمامة من الغبار، ولم يعد مرة أخرىٰ..

لم أقدر يومها علىٰ فتح التابوت المغلق، فتحه بدلاً مني هنترز في سعادة ولهفة، دفن الجسد المهان وراء المعمل، وأنا أحاول أن أزيل ما أراه من عقلي بالشرب مباشرة من برميل الخمر المعتّق. لم يُصدّق ريمون حين عاد أنني لم أدفن الجثة، بل دفنها هنترز. ظلّ ينظر لي متشككًا ومنعني من الشراب باقي اليوم.

ربما وجد هاسلهوف خطاباتي لصفوت، وربما التقط العنوان من علىٰ المظاريف حين كان يصاحبني لجلب الخطابات. لا يهم ما حدث، لكن انتقام هنترز وصلني كاملاً، فصرت بعدها أرىٰ وجهه الأشقر في وجهي. تخلصت من المرايا وغطيت زجاج النوافذ، فظلّ وجهه يطلّ عليّ من فوق عنقي في انعكاسه علىٰ سطح البيرة والخمور.

www.ibtesama.com/vb

سرعان ما نمت حشيشة الدينار فوق قبر ميريوذر، هي أساس أي بيرة أصنعها، لكنها لم تكن كأي حشيشة دينار أنبتتها في حياتي. كانت ضخمة، مسودّة الأطراف، يصدر منها صوت عميق حزين لدىٰ مداعبة الرياح لها.

كنت أسمع صوتها ليل نهار، أحيانًا ما أسمعها تتساءل، كيف تتعذّب قطعة فحم في جوف جدز ميراكل؟! كيف؟!

لا أظن ميرويذر قد تعذّب، فقد انتقل عذابه لي، ونهش مني روحي العفنة كضبع لعين. حششت النبات الهامس وصنعت منه بيرة بلا أي نكهة مضافة. علىٰ سطحها الرقراق الأصفر أرىٰ وجه ليو كوتنوار، الهندي، من قبائل الغراب.

اغترفت من البيرة براحة يدي وشربت، كانت أفضل من أي بيرة شربتها في حياتي حتىٰ إنني أفرغت الكمية كلها في جوفي. أسمع طرقات ريمون علىٰ باب القبو، فلا أعبأ به. أُمسك بزجاجة ويسكي وأفرغها فوق رأسي باردة مهدّئة.

ترتعش يداي وأنا أمسك بعلبة الثقاب، أنظر حولي فأرىٰ هنترز يصفق ببطء وثقة لعرضي الأخير في سيرك حياتي، فأنحني لتصفيقه. مايزال ميريويذر صامتًا، لائمًا..

تقول الجدة ويدونجي، إن هناك ذئبين يصطرعان في نفس كل شخص، وأنا الآن أُصدّقها..

أحيانًا، كنت أشعر بمدىٰ صعوبة الحياة وهذان الذئبان يصطرعان داخلي، يتجاذبان أطراف روحي.. يختصمان أيهما أحق بها.

تسألني أيهما انتصر، فأجيبك، انتصر الذي أُطعمه!

www.ibtesama.com/vb

الفصل الرابع

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb

"وُلِدَ ليمُوت، وليقودهُ عقلهُ للهلاك..
جَهله كعلمه، سواء فكَّر أم لم يفكِّر..
فَوضى أفكاره ومشاعره، كُلّها في ارتباك..
سيظلُّ بمفردِه، مُحرَّر أو مُستعبَد..
خُلق الإنسان نصفه في سمو، ونصفه في انحدار..
سيدٌ على كلّ شيء، وعبدٌ لكلّ شيء.."(١)

(١) من قصيدة للشاعر أليكساندر بوب بعنوان "مقال عن الإنسان".

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

- ١ -

برادلي جولدنج

صمت، عقلي غارق في الصمت. لا أجد أي فكرة في أي صوب. انقطع صوت كوتنوار في قراءته، ففتحت عينيّ. الساعة تُشير إلى الثانية إلا ربع صباحًا.

غسلت وجهي في حمام الرجل الضيق ونظرت للحلقات الداكنة والانتفاخات المتكوّنة تحت عينيّ. لوهلة لم أتعرف على نفسي في المرآة، خطر لي أنني أُشبه والدي كثيرًا في شبابه، فلم أُطل النظر أكثر من ذلك.

حين عدت، وجدت كوتنوار ممددًا على الأريكة وجايكوب يُحكم الغطاء فوقه. جلست في ذات كرسي كوتنوار الدافئ في مواجهة النافذة، وقد طار النعاس من عينيّ وإن ظللتُ مشوّش الذهن.

وضع كوتنوار كفّه اليمنى تحت خدّه وهو مستلقٍ، ونظر في عينيّ مبتسمًا بذات الملامح متعددة التعبيرات التي يستخدمها.

ـ وهكذا، تمت قصة الهندي الثاني الذي قتل ذئب يلوستون. هل مازلتَ

www.ibtesama.com/vb

تريد أن تسمع قصتي؟ لن تجد فيها جديدًا عما سبقها، وعما قرأته أنت فيما نشر عام ١٩٩٣.

ـ لكن ليو الحرب العالمية الأولى لم يقتل ذئب يلوستون، لقد قتله صياد وكلاب..

ضحك حتى تحوّلت الضحكات سعالاً، فاعتدل جالسًا ثم هتف والضحكات لا تُفارق حروفه:

ـ أعتقد أنك في حاجة لسماع القصة حتى النهاية، ربما أفادك بعض النوم.. يمكنك النوم في سريري.

ـ لا.. لا أريد النوم، أكمل قصتك.. كيف وصلتك الرسائل والصور القديمة؟

ـ كان ذلك في العام ١٩٣٢، أذكر أنني كنت أتهيّأ لرعي الأغنام، بعد أن ألحّت عليّ أمي في الإفطار، وهو إفطار دسم من بقايا المطعم الهندي الذي افتتحته في مستعمرة ويندريفر. وقفت شاحنة قديمة أمام المنزل، ترجل منها رجل ملتح في رداء وعمامة أبيضين. سألني إن كان هذا هو منزل إيفيتا كوتنوار....

www.ibtesama.com/vb

- ٢ -

ليو كوتنوار

ـ نعم يا سيدي، من تكون؟

ـ صفوت سيجي، صديق قديم لوالدك ليو كوتنوار.. هو والدك اليس كذلك؟

ـ نعم، لكنه مات في الحرب العظمىٰ ولم يذكرك لنا في حياته.. كيف عرفت عناوننا الجديد؟!

حكىٰ لي يومها صفوت ما كان بينه وبين والدي، وكيف أن ريمون هذا قد جاءه بعد وفاة والدي وأعطاه متعلقات أبي وما توصّل إليه من سؤاله عنا في شايان. مطعم أمي شهير حتىٰ لإن جميع سكّان المستعمرة يعرفونه، فدلوه عليه حتىٰ وصل لنا.

لقد هدم صفوت سيجي أعوامًا من مراهقتي وطفولتي وأنا أظن أن والدي بطل حرب، وأنه مات ولم يتخلّ عنا بهذا الشكل المهين. سألت الهندي عن جدوىٰ حكايته فأجاب بهدوء وهو يمسّد لحيته الممزوجة بالبياض:

www.ibtesama.com/vb

ـ ابني العزيز، في كل حياة إجابة لتساؤل قد طُرح في حياة شخص آخر، وتساؤل يُطرح لتُجيبه حياة شخص آخر.. لقد أجاب أبوك عن تساؤلات في حيوات مضت، وطرح تساؤلات لتُجيبها حيوات ستأتي.

ترك لي الرجل هاتفه، فلم أهتم بأن أحتفظ به. كرهته لذنب لم يقترفه، فقد جذب آخر عمود يُقيم سقف بيت يحترق من الأساس. ألقيت ما أعطاه لي في صندوق الجدة ويدونجي الذي أعطته لوالدي وأوصتني كي أحتفظ بمحتوياته لي من بعد رحيله.

لقد فارقتنا الجدة ويدونجي في أوائل عام ١٩٢٣، لم تستمع لتوسلات أمي لتبقى. أخبرتها في هدوء أنها اشتاقت لقلب الأرض النابض وأنها ستعود لأرض أجدادها وقبر أبيها.

لم يعد لأمي أحد سواي. بعد انتقالنا إلى ويندريفر، كانت تطبخ الطعام الهندي القديم حسب وصفات الجدة ويدونجي، وتبيعه لسياح متنزه يلوستون الوطني. حتى نمت سمعتها الطيبة، فافتتحت مطعمًا صغيرًا يحمل اسم كوتنوار، وصار معلمًا من معالم البلدة منذ سنوات.

أحيانًا ما كنت أجد أن أمي تُبالغ في هنديتها في مقابل انسلاخ من حولها عن تلك الهويّة القديمة. في حين كان يأكل الجميع الطعام الأوروبي، كانت تُقاطع أي شيء ليس هنديًا أو مزروعًا بيدٍ هندية.

إرضاءً لها، عملت في الرعي رغمًا عني، كنت سأكسر فؤادها لو هجرت المستعمرة وعملتُ كما يعمل أقراني في ولايات الساحل الشرقي.

ما فعله صفوت سيجي هو أن أحال إقامتي هنا جحيمًا. حاولت لسنوات بعد زيارته إقناع أمي بالانتقال إلى الساحل الشرقي لكنها رفضت وبكت، فأذعنتُ. لكنني دون علمها بحثت عن أي طريقة أجمع بها المال وأهرب شرقًا.

www.ibtesama.com/vb

منذ خمسة أعوام صاحب مزرعة ماشية وأغنام كبيرة وضع مكافأة لمن يأتي له بعدد كبير من الذئاب من لون واحد. تحمّست لذلك، وأمضيت أسابيع مع رفاقي نبحث عن الذئاب القليلة المختبئة في الجبال، والتي كانت تُهاجم المزراع من وقت لآخر. صدتُ وحدي ستة ذئاب من لون فضّي مخلوط بالأسود وعدت لصاحب المزرعة منتفش الصدر، فقال لي إنه لا يُحب ذلك اللون الأجرب لكنه دفع لي خمسة دولارات للقطعة، ادّخرتها كلها تحت حشيتي. لكننا لم نجد ذئابًا أخرىٰ نصطادها لجمع المزيد من المال.

تزوّجت وأنا في الخامسة والعشرين من فتاة تعمل مع أمي من قبائل الشوشوني الغربيين. كانت هندية بشكل مستفز أحيانًا، اختارتها أمي لذلك السبب، ظنًا منها أنها بهذه الطريقة تربطني بأرض وايومنج. بعد زواجي بعام فتحت أمي صندوق الجدة ويدونجي والذي لم آخذه معي إلىٰ منزل الزوجية، فوجدت خطابات والدي إلىٰ صفوت. ووجدناها يومها وقد أصابتها جلطة مخية شلّت نصف جسدها الأيمن.

عدت للإقامة مع والدتي، وكان ذلك سببًا جيدًا لابتعادي عن زوجتي. لم نُنجب ولم نفعل ما يؤدي إلىٰ الحمل سوىٰ مرات معدودات. أحيانًا ما كنت أشفق علىٰ زوجتي، لكنني كنت بالفعل ناقمًا علىٰ تلك الحياة التي تستنزف المتع من عمري.

عشت حياة بلا طعم أو لون، ما بين رعي الأغنام والتسكع مع الرفاق. بالطبع تآكل وجودهم في حياتي مع زواجهم أو رحيلهم من المستعمرة فارين بما تبقىٰ من أعمارهم.

حتىٰ جاء يوم الثالث والعشرين من مارس عام ١٩٤٣..

www.ibtesama.com/vb

- ٣ -
ذئب

أتراني تجسدًا للعظيم تشيبيابوس في هذه الأرض؟ أم إن ذكريات أجدادي المؤلمة قد احتلّت عقلي وفاضت فما عدتُ أعرف من أكون حقًا؟

وُلدت في قطيع ضئيل يتخفّى في الجبال، فتكاد تشك في وجوده من الأساس. صرنا مطمعًا لأُسود الجبال والدببة، فكنا لانزيد عن ثلاثة أو خمسة أبدًا.

احتل أبناء نانابوزهو أرض يلوستون وسماءها، مما جعلني أشكّ في صدق ما يرد في ذكريات الأجداد عن علاقة جيدة نمت بين الذئاب والبشر في زمن ما.

نحن والبشر أعداء، وإن كنا أكثر عددًا لأبدناهم واستعدنا أرضنا. شيء يهيب بي أن أقترب من أرضهم رغم كل التحذيرات من ذلك. رغم أنني شهدت وأنا بعد جرو مختبئ في أحضان الحجارة، أحد الهنود يقتل ستة من قطيع أبي في يوم واحد.

www.ibtesama.com/vb

أنا الآن الذئب المسيطر، مسيطر على قطيع من جروين إناث فقط. لا يوجد غيري في أرض يلوستون ولن يوجد بعدي. هكذا أعرف وبهذا أنا موقن.

أنا تشيبيابوس، أخو نانابوزهو شئت أم أبيت، فما خُلق الأخ إلا ليقتل أخاه في ذلك العالم. أعرف على الأقل أن ثأري مع واحد من البشر، ذلك الذي قتل قطيعي، لكن غريزة قديمة تسري في دمائي تُخبرني أنني لابد أن أصل آخر حلقات الذئاب بالبشر، ليبدأ بعدها عهد جديد لبشر بلا روح.

الربيع.. أحمي آخر من تبقّى من قطيعي، فأقبل الإذلال والصيد مع القيوطات على أن أخاطر بموت أحد جرويّ. أقبل بالصيد ليلاً كالجبناء.

أقترب من أرض البشر، وأشم رائحة قاتل عائلتي في مكان قريب، أقترب مع قيوطين من مزرعة مسوّرة بسور خشبي ضعيف فأجتازها.. مع كل خطوة لي في داخلها تقترب رائحة البشري مني..

فأعوي، ويعلو صوتي.. يجيبه صوت سلاح البشر، فلا أخاف..

www.ibtesama.com/vb

- ٤ -

ليو كوتنوار

لم أسمع عواءً في تلك المنطقة منذ عشرات الأعوام. لم يجرؤ ذئب على الاقتراب إلى هذا الحدّ من مزرعة والد زوجتي التي أعمل فيها منذ تزوجتها.

امتطيت حصاني وأطلقت طلقة في الهواء، لعله قيوط جبان فيرحل. لكن العواء لدهشتي استمرّ. مشيت في اتجاه الصوت، فأبصرت على مسافة كبيرة ظلالاً كلبية، ظننتها وقتها قيوطًا وجروين. أطلقت نحوها الرصاص فاختفت خلف صخرة هناك.

اقتربت أكثر فوجدت ما ظننته قيوطًا ذئبًا شديد الضخامة وقيوطين بديا مقارنة به كالجراء.

أطلقت النار مرتين فهربت القيوطات، بينما ظلّ الذئب يتفادى الطلقات دون أن يبتعد عن طريقي. وقف مكانه فاقتربتُ حتى كاد الحصان أن يرميني من فوقه. لم يُرد أن يقترب أكثر، فترجّلت شاهرًا سلاحي.. أنظر في عيني الذئب الضخم فينظر لي ويُزمجر. أطلقت الرصاص من مسافة قريبة

www.ibtesama.com/vb

فطار الذئب إلى الخلف وتدحرج على العشب. اقتربت منه ودفعته بطرف سلاحي، فأدار وجهه نحوي..

وسقط السلاح مني..

www.ibtesama.com/vb

- ٥ -

ذئب

ربما كنت أنا تشيبيابوس، لذا ستكون لعنتي غير أي لعنة لُعن بها ذئب بشري. في آخر وقت لي في هذه الحياة، ومع انقطاع نسلي العظيم إلى الأبد، سأنسج حياة ذئاب يلوستون في حياة البشر، وسينمو داخل كل بشري ذئبه الخاص، يُذكّره دومًا بحياة قتلها أجداده وطعنة مباشرة سدّدوها إلى قلب أمنا الأرض.

أدرك حصان البشري ما أكونه، فرفض الاقتراب[1]. أحنى رأسه حزنًا وثبّت حوافره في الأرض. اقترب البشري مني وظن أنني قد متُّ، كنت قد متُّ فعلاً، لكنني لم أغادر إلى مملكة الموت البهية، فقد غادرت إلى جسده، مزّقت كيانه واحتللت تجاويف عالمه.

ربما كنت تشيبيابوس، لذا كان من واجبي أن أُبلّغ رسالة ذئاب يلوستون إلى أبناء نانبوزهو العظيم.

---

(١) رفض حصان كوتنوار بالفعل الاقتراب من الذئب ولا حمله بعد موته، وهو تصرف رآه كوتنوار غريبًا جدًا.

www.ibtesama.com/vb

ـ انهض يا ابن العم نانابوزهو، ابن تشيبيابوس[1] قد وجدك في أرضه وأنت بعد لم تُتمّ مهمتك في عالم المحسوس.. انهض يا ابن العم نانابوتزهو واضرب جذورك في الأرض، منها تنبت ومن مائها تتكاثر ومن هواء أرض الصخور الصفراء تتنشَّق أنفاس إخوتك في هذا العالم وفي العالم الآخر العظيم..

(١) الذئب أبو الذئاب وأخو نانبوتزهو أبو البشر.

www.ibtesama.com/vb

- ٦ -

برادلي جولدنج

تسارعت دقات قلبي مع سماعي رسالة الذئاب الأخيرة، لم أشأ أن أُفسد ما وقر في قلبي بكلامي. ظللت صامتًا لساعات، أرمق شروق الشمس من النافذة أمامي..

أخبرني كوتنوار أن حصانه لم يرد أن يحمل جسد الذئب الأخير، فجرّه إلى المزرعة جرًا دون أن يعي كيف جرّ سبعين باوندًا كل تلك المسافة. عندما رآه حموه بحمله، جلس أرضًا وأخذ يُمسّد الشعر متعدّد الألوان للذئب الأخير. همس له في ذعر إنه قد قتل آخر ذئاب يلوستون، فلم يردّ كوتنوار.

مكث حتى الصباح يسلخ فراءه ويُحنّط رأسه شديدة الضخامة، ويعيد تلك الرسالة التي انغرست في عقله إلى الأبد. ظلّ أيامًا لا يدري ماذا يفعل بنفسه وبرسالة الذئاب. حتى قرّر في ليلة أن يكتب تلك المذكرات العجيبة.

قال كوتنوار إن من بعد يوم قتله لآخر ذئاب يلوستون، ظلّ القوم يسمعون عواء الذئاب ولا يرون أيها لمدة أعوام طويلة..

www.ibtesama.com/vb

ـ ذلك ما حدث مع قومي يا بني، فهناك الآن سيارات شيروكي، وصواريخ توماهوك، وفرق رياضية تحمل اسم قبائل السيوكس.. لكن أين هم الآن؟ صوت بلا وجود..

ـ ألا ترىٰ أن صوت الهنود هذا هو أعظم عقاب لنا يا سيد كوتنوار؟ أنا من أصل أسكتلندي، ويحيط بي كما قلت كميات من الرموز والأسماء الهندية، حتىٰ إنني أشعر أنكم انتزعتم انتصار البيض بوجودكم الخفي هذا..

أسمع حوار جايكوب وكوتنوار فلا أجد في نفسي طاقة لاستيعابه أو التعليق عليه. تركاني وخرجا يتنشقان هواء الليل. وحيدًا، أعبث في هاتفي فأجد آخر اسمين، آنجي وآرون..

مع شروق الشمس، قمت متخشب الظهر، أبحث عن جايكوب وكوتنوار. كان الطريق خاليًا، أمامي ورشة هومر وعن يساري ورشة بيكوورث. أخرجت علبة السجائر اللعينة وألقيتها في بركة من مياه الأمطار.

تُذكّرني بسقطتي في فناء المدرسة وسط سخرية الساخرين من حقيبتي الهندية، وشعري الفاحم، وانكشاف عينيّ الضيقتين المسحوبتين بعد سقوط نظارتي.

لم أرد أن أذهب إلىٰ تلك المدرسة الحقيرة مرة أخرىٰ، رغم كون معظم طلبتها من الهنود، إلا أن أحدًا منهم لم يعد يطيل شعره، أو يحمل حقيبة مزدانة بنقوش هندية، أو تُغني أمه في الكنيسة أغانِ هندية قديمة تُمجّد الأجداد..

أمي، ثور بيسون حزين أكل حتىٰ مات من أعشاب الأرض السامة..

www.ibtesama.com/vb

أبي، راعي أبقار في مسابقات الروديو، ولم يصطد بقرة حقيقية وحيدة في حياته..

جدي، هندي عاش في خيمة تيبي على طريق ٢٨٧، مجرد إشغال للطريق، زال منذ أعوام طويلة..

يمكنك أن تدعوني برادلي جولدنج، أو ألفريد فتى البيرة، أو جان تيسو الهندي، أو حتى ليو كوتنوار، قاتل آخر ذئاب يلوستون بقلم حاد في صحيفة دينيفر الأسبوعية.

أفقت من شرودي على منظر السيارات المغطاة أمام ورشة هومر. عبرت الطريق وكشفت الغطاء الضخم، كانت سيارتي هي الأولى من ناحية الطريق.

تحت المساحات المعطلة وريقة في كيس بلاستيكي، فتحتها لأجد رسالة أخرى من ذئاب يلوستون..

ـ ما تبحث عنه غالبًا ما يكون أقرب مما تظن..

مازالت في جديلتنا بقية يا صديقي.. اجدُل ما دمتَ قد أُعطِيتَ أنفاسًا ودقات قلب.. اجدل.

عاد المأمور مع بيكوورث وألفريد في السابعة صباحًا. اعتذر الشاب وقال إنه رأى فيّ ما أراده ذئب يلوستون، نشر رسالة الذئاب الأخيرة..

ـ لديك القلم، و لديك من يقرأ، ظننت أنك تستطيع مساعدتنا ومساعدة نفسك بنشر تلك المذكرات. لا أعترض على هجومك علينا، فتلك المذكرات هي دليل إدانة جنسنا كله، لكنها أيضًا تنبيه لمن بقي منا على عهد الذئاب. سيد جولدنج، أنت منا، وستكون المذكرات أكثر مصداقية

www.ibtesama.com/vb

إذا نُشرت بقلمك. هذا هو طلبنا الثاني. كما قلت، لن أستطيع إجبارك على تنفيذه. كما لن أستطيع إجبارك على التخلي عن حقك في الإبلاغ عني، لكن أعفُ عن صديقي راميريز، هو يعول إخوته الصغار. أنا المسؤول أمام القانون، وحتمًا ستجد بصماتي على السيارة وحدي.

ـ اذهب يا ألفريد.. لي طلب واحد فقط، أصلحوا سيارتي ودعوني أعود.

جاءنا كوتنوار برأس ذئب يلوستون الأخير المحنّط. حضور كاسح حبس الأنفاس في الصدور، لا أعرف كيف كان ذلك المخلوق حيًا، لكن كوتنوار كان مغفلاً فعلاً كي يقتل شيئًا كهذا.

أخرج جايكوب كاميرته ليُصوّر الرأس، فوجد شحنها فارغًا. لم يحاول شحنها مرة أخرى، فقط تربّع وأخرج دفتره وشرع يخطّ لوحته الأخيرة لتلك الرحلة.

ـ تصوير الآلات لا يليق بمخلوق كهذا، أرجو أن تقبل روحه أن يرسمه أوروبي مثلي.

ـ في مملكة تشيبيابوس يا بني لا نفرّق بين نوع أو جنس، من يستحقها يدخلها بلا نقاش، وأظنك مرحبٌ بك فيها.

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

الفصل الخامس

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb

" لَو، أيها الهندي الأُمِّي..
ترىٰ الربّ في السحاب، وتسمع كلماته تحملها الريح..
روحك هي علم عُلوي، لم تتعلم الضلال..
ساميةٌ، كمسار الشموس وتجليات المَجرَّات...."[1]

---

(١) من قصيدة للشاعر أليكساندر بوب بعنوان "مقال عن الإنسان".

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

- ١ -

برادلي جولدنج

الأول من يناير ٢٠٠٥..

قرية لامار، يلوستون، وايومنج.

عارضَت جريدة دينيفر نشر مذكرات ليو كوتنوار، فقد أرادت دومًا الاحتفاظ بصورة الهندي الذي يهاجم الهنود. استقلت من الجريدة وعدت لأعيش مع أختي الجميلة آنجي في يلوستون.

أرىٰ آنجي من النافذة، تُروّض حصانًا أبيض كروحها، يُحلّق فوقها باز أحمر حرّ، يربطها وجودهما أكثر وأكثر بأمنا الأرض. فإن كنت في وايومنج، فلتعش كما يعش أهل وايومنج!

أكتب الآن آخر سطور في كتابي "ذئاب يلوستون"، وكنت أودّ لو أجد اسمًا أعمّ من ذلك، فتلك حكاية تنطبق علىٰ أي جنس ممن اعتدت مهاجمتهم في مقالاتي، فكتبتُ إهداءً داخل الكتاب إلىٰ كل من غدوا أصواتًا بلا وجود.

لقد عرضت في كتابي كل ما ورد علىٰ لسان كوتنوار أو في مذكّراته.

www.ibtesama.com/vb

لا أعرف كيف عرف كل تفاصيل حياة جده الأكبر أو أبيه، أو ماحدث بالضبط في غابات يلوستون بين قطعان الذئاب، لكنني أُصدّقه.. تبعت قلبي وصدّقت الرجل العجوز، فما الذي سأخسره لو فعلت؟ بل ما الذي كنت سأخسره لو لم أفعل؟

مع احتفالات الأعياد افتتح جايكوب معرضًا للوحاته المستوحاة من التراث الهندي مع بعض الصور الفوتوغرافية التي التقطها في ذلك الصيف الذي أقام فيه مع العجوز ليو العام الماضي. فخور بما فعله الشاب الصغير وسأضع بعض لوحاته في كتابي أيضًا.

لم تسر الأمور كنهايات الروايات القديمة للأسف، فلم يتمّ إغلاق المستوصف المخالف، ولم يتمّ تحسين الأوضاع الصحية ولا الحياتية في المستعمرة. لكنني لن أيأس من التغيير سواء في حياتي أو في حياة من سيُكمل جَدِّل حياتي من بعدي.

في زيارتي الأخيرة أمس لكنيسة سانت ستيفنز، اعترفت للأب أنطوان أنني قد قتلت ذئابًا كثيرة من قبل، فأخبرني أن لنا كبشر معجزة في إحياء الموتى، أو إحياء أرواحهم. فلا أحد يموت فعليًا إلا من أردنا موته.

أذكر أخيرًا -قبل أن أُغلق مذكرات كوتنوار وأضعها في صندوق الجدة ويدونجي في غرفتي- كلمات الأب أنطون لي في المشفى "حكى لي السيد كوتنوار الكثير مما ورد في تلك المذكرات وطلب مني أن أُصلّي من أجل روحه. وفي كل مرة أُصلّي من أجله فيها، أجد نفسي أُصلّي من أجل المئات ممن أعرفهم وكادت أن تكون حيواتهم متطابقة مع جوهر حكاية رجلنا العجوز. أجد نفسي أُصلّي من أجل خطاياي أنا نفسي.. تلك الخطايا التي لا نراها إلا منعكسة في مرايا غيرنا.. اقرأ!

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

ذئاب يلوستون

حين ذهب الصحفي العنصري برادلي جولدنج ليسمع من الهندي ليو كوتنوار قصة قتله لآخر ذئاب يلوستون كان يتوقّع أن الأمر لن يستغرق وقتًا طويلاً، لكنّه وجد نفسه متورطًا في صراع امتدّ عبر ما يزيد عن مائتي عام بين ذئاب يلوستون في أشكالها المتعدّدة؛ سواء كذئاب رمادية، أو بشر، أو جماعة غريبة الأطوار. ويكتشف برادلي أن عليه خلال تلك الرحلة أن يواجه ألدّ أعدائه، وأقربهم إليه.

شيرين أحمد هنائي

مصرية من مواليد القاهرة ١٩٨٢، تخرجت في كلية الفنون الجميلة عام ٢٠٠٤ قسم الجرافيك والرسوم المتحركة، تعمل مخرجة رسوم متحركة وكاتبة سيناريو ومصممة إعلانات ومترجمة. نشرت روايتها الأولى نيكروفيليا عام ٢٠١١، ثم صندوق الدمى عام ٢٠١٢، وروايتها الثالثة طغراء عام ٢٠١٤.

للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb